

د. مُحَمَّدٌ عَمَّارٌ

الْثِيَابُ الْإِغْوَى وَالْإِسْلَامِيَّةُ



دار الشروق

الشياخ القوي الإسلامى

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
استشرى محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

د. مُحَمَّدٌ عَمَّارٌ

الشيء القوي والإسلامي

دار الشروق —

كلمات

[يدافع من الحب للأمة العربية ، أحببنا الإسلام ، منذ السَّنِّ اليافعة .
وبعد أن اقتربنا أكثر من فهم الإسلام ، أضحي حيناً لأمتنا يتلخص في حيناً
للإسلام ، وفي كون الأمة العربية هي أمة الإسلام .
إن هذه العلاقة الحميمة بالإسلام ، هي من النوع التاريخي ، الموسوم
بالتجرد الخالص !

وإن ثقة عميقة تملأ نفوسنا بأننا أخلصنا كل الإخلاص ، طوال عمسنا
لأمتنا ، لمصلحتها ، ولتاريخها ، ولعقيدتها ، ولستقبلها . وأنا كنا دوماً حيث
العروبة الصحيحة والإسلام الصحيح . .]

ميشيل عفلق

٧ / ٤ / ١٩٨٦ م

ميشيل عفلق في سطور

- هو : ميشيل يوسف عفلق [١٩١٠ - ١٩٨٩ م] . .
- ولد - مسيحيا - من طائفة الروم الأرثوذكس - بدمشق في ١٩ من يناير سنة ١٩١٠ م . .
- وفي دمشق ، درس حتى المرحلة المتوسطة - البكالوريا - . . ثم سافر إلى باريس . . فدرس الأدب والفلسفة والقانون - بكلية الآداب - جامعة السربون .
- وفي باريس ، مارس العمل الطلابي العام . . فانضم إلى [الجمعية العربية السورية] ، وكذلك [جمعية الثقافة العربية] . .
- وبعد إتمام دراسته الجامعية ، عاد من باريس إلى دمشق سنة ١٩٣٣ م . . مشغلا بالتدريس في المدارس السورية . .
- وفي دمشق ، مارس النشاط الأدبي وكتابة القصة . . وأسهم سنة ١٩٣٥ م في إصدار صحيفة [الطليعة] السورية . . كما شارك في تأسيس [ندوة المأمون] الأدبية . .
- وفي سنة ١٩٣٩ م ، بدأ نشاطيه القومي والسياسي بتأسيس جمعية «الإحياء العربي» مع زميله صلاح الدين البيطار . وهي الجمعية التي انبثقت

منها، إبان ثورة العراق ، التي قادها رشيد عالي الكيلاني ضد الاستعمار الإنجليزي ، في مايو سنة ١٩٤١م ، حركة «نصرة العراق» . . وهي التي كتب ميشيل عفلق وثائقها القومية . .

● وفي يونيو سنة ١٩٤٣م ، سميت «جمعية الإحياء العربي» بـ [حركة البعث العربي] . .

● وفي سنة ١٩٤٥ ، انعقدت بدمشق أولى حفلات «حزب البعث» . . وكان عدد أعضائه يومئذ أربعائة عضو، أغلبيتهم من الطلاب . . وفي شهر إبريل سنة ١٩٤٧م انعقد - بدمشق - المؤتمر التأسيسي الأول للحزب ، وانتخب ميشيل عفلق أميناً عاماً له . .

● تولى ميشيل عفلق وزارة المعارف في سورية سنة ١٩٤٩م . .

● تزوج في أغسطس سنة ١٩٥٩م - وسنه ثمانية وأربعون عاماً - من الطبيبة أمل بشور.

● وفي ٣ - ٨ - ١٩٧١م ، صدر بدمشق حكم بإعدامه - وكان قد غادرها قبل خمس سنوات - . . ثم صدر عفو عنه في ٢١ - ١١ - ١٩٧١م . .

● استقر به المقام في العراق ، منذ سنة ١٩٧٥م . بعد أزمته مع قيادة الحزب بسورية في منتصف الستينيات .

● توفي في يوم الجمعة ٢٤ - ٦ - ١٩٨٩م - أثناء علاجه بباريس . .

● دفن ببغداد ، وفق التقاليد الإسلامية . . حيث أعلنت القيادة القومية لحزب البعث ، أنه قد سبق أن اعتنق دين الإسلام . . لكنه «لم يرغب هو ولا رفاقه في القيادة إعلان ذلك حرصاً منه ومنهم على ألا يعطى هذا الخيار أى تأويل سياسي» . .

● في تكوينه الفكري ، تجاورت وامتزجت وتفاعلت قراءاته عن رسول الإسلام محمد بن عبد الله ، ﷺ . . مع آثار أبي العلاء المعري . . . والمنتبى . . وإسماعيل مظهر . . وشبلى شميل . . وجورجى زيدان . . . ونيتشة . . ودستوفسكى . . وكارل ماركس . . وغيرهم من الأدباء والفلاسفة والمفكرين ودعاة الإصلاح والشوار . . مع ميل واضح لآثار الأدبية والفلسفية . .

ولقد عبر عن أصول فلسفته القومية بقوله :

« إن فكرتنا ، فلسفتنا القومية ، بلغت درجة الوضوح والتناسك قبيل الحرب العالمية الثانية ، بعد تجارب فكرية وعملية ، وبعد الاطلاع على المذاهب الفكرية السياسية المعاصرة ، كالماركسية وسواها من المذاهب الفلسفية والسياسية المختلفة ، وبعد تكون خميرة أدبية من المطالعات وقراءة الشعر والقصص والروايات . .

لقد بدأت حياتى بالأدب ، ومع ذلك فلا أريد القول بأننى أديب . . وكنت أعطى القيمة الأولى للأدب والأدباء فى الفترة بين سن الخامسة عشرة والعشرين ، ولكن نوع الأدب الذى كنت أقرؤه ، حتى فى صغرى ، كان على الأكثر أدبا فلسفيا . فقد قرأت المعري ، مثلاً . . لزومياته ، وسقط زنده ، وأنا فى السادسة عشرة من العمر ، وانتقيت لنفسى مختارات من اللزوميات . . وكذلك المنتبى ، قرأته وأنا فى تلك السن نفسها .

ولما ذهبت إلى باريس للدراسة ، بعد حصولى على البكالوريا ، كان الأدباء الذين أغرتنى كتبهم ، أدباء مفكرين . لذلك ، كان من الطبيعى الانزلاق من الأدب إلى الفلسفة ! وأول فيلسوف تعرفت عليه ، عن طريق الأدب ، هو نيتشة . . وقد شغل مكانا خاصا فى مطالعاتى كما أعجبت غاية الإعجاب بالقصصى الروسى دوستوفسكى . .

لقد كنت أمتص الآثار الأدبية والفنية التي أصادفها، ولا أقرؤها كناقداً،
فيخلق تراكم المطالعات خيرة من العمق والغنى الروحي يجنب الفكر
السياسي والفكر الاجتماعي خطر السطحية وخطر الابتعاد عن طبيعة النفس
الإنسانية وحقيقة متطلباتها، كما أنه يمكننا من معرفة أبعاد النفس الإنسانية
وغناها»^(١).

● بلغت كتاباته السياسية المجموعة والمطبوعة - [في سبيل البحث -
الكتابات السياسية الكاملة] - قرابة ألفي الصفحة - في خمسة مجلدات - . . .
وذلك، غير مانتناشر في كتاب [نضال البعث] البالغ ثلاثة عشر جزءاً . . .
فمشروعه الفكري . . هو أشهر وأبرز المشروعات الفكرية للمفكرين القوميين
العرب المعاصرين .

(١) [في سبيل البحث] : ج ٥، ص ٣٢، ٣٣. طبعة بغداد، سنة ١٩٨٨ م.

مقدمات تمهيدية

- ١ -

لو أن سائلاً سألنى ، قبل أحد عشر شهراً من كتابة هذا الكتاب ، عن إمكانية أن أفرغ لدراسة كتابات الأستاذ ميشيل عفلق [١٣٢٨ - ١٤٠٩ هـ ، ١٩١٠ - ١٩٨٩ م] لأكتب عنه - أو عن أحد جوانب مشروعته الفكرى والسياسى - كتابا . . لأثار هذا السؤال عندى الكثير من الاستغراب . . بل والاستنكار !! .

وذلك ، لا لتزاحم القضايا الفكرية الإسلامية الجوهرية والملحة على العقل ، فى هذه الحقبة ، فقط . . ولا لضيق الوقت عن إنجاز المشروعات الفكرية التى تم الاتفاق عليها ، وتحددت المواقيت لإنجازها ، فحسب . . وإنما ، أيضا ، للمسافة التى تفصل بين اهتماماتى الفكرية الراهنة وبين فكر الأستاذ ميشيل عفلق !! . .

لقد جمعتنى علاقات صداقة واحترام ومودة ، مع عدد كبير من مفكرى حزب البعث العربى الاشتراكى ومثقفيه ومناضليه . . وإذا كنت لم أقرأ ، على نحو منظم ، وبمنهج الباحث الدارس ، أعمال مؤسس هذا الحزب ومفكره الأول وفيلسوفه الأكبر ميشيل عفلق إبان حياته . . إلا أن صورة هذا الفكر

عندى كما عرفتھا من علاقاتى بمن عرفت من البعثين ، وكما عايشتها خلال الممارسات الحزبية التى كنت شاهدا عليها ، وعلى مقربة منها ، بل ومحتكا بنفر من البعثين خلالها منذ حقبة الدراسة الجامعية فى عقد الخمسينيات - صورة هذا الفكر ، الذى صاغة ميشيل عفلق ، كانت لدى ، كما هى لدى جبهة الإسلاميين ، بل وجبهة البعثيين !! صورة : « المشروع الفكرى - السياسى - الحضارى - الاجتماعى » القومى - الاشتراكى - العلمانى . . الذى ، وإن مثل تيارا من تيارات التغيير والتجديد فى واقعنا العربى ، متميزا إلى حد المغايرة والعداء - عن تيارات الرجعية والجمود . . إلا أنه ، أيضا ، متميز - إلى حد المغايرة والعداء - عن التيار الإسلامى ، الذى يتخذ من الإسلام منطلقا للإحياء والتجديد والنهضة والتغيير .

فصورة « المشروع البعثى » عندى - إلى ما قبل الشروع فى العمل لإخراج هذا الكتاب - كانت هى صورة « المشروع » المغاير للمشروع الإسلامى ، بل والمنافس له . . سلما كانت المنافسة أو عنفا . . .

فإذا أضفنا إلى هذه « الصورة » : « علامات استفهام » سلبية ، قامت واستقرت فى ذهنى ، حول دور « البعث » فى انفصال وحدة مصر وسورية سنة ١٩٦١ م . . وفى مباحثات الوحدة بين مصر وسورية والعراق سنة ١٩٦٣ م . . وفى الصراع اللامبدئى بين جناحين وسلطتين تلتزمان بذات الحزب ونفس المشروع - فى سورية والعراق - . . إذا أضفنا « علامات الاستفهام » هذه إلى « الصورة » التى تكونت لدى عن علاقة « المشروع البعثى » بـ « المشروع الإسلامى » . . كان التفكير - من جانبى أو من جانب من يعرف موقعى الفكرى - فى الكتابة عن ميشيل عفلق مدعاة للاستغراب . . فلا أنا متعاطف مع « المشروع البعثى » لأكتب عن فيلسوفه ، عارضا فكره على الناس . .

ولاطبيعة المرحلة التى تعيشها أمتنا وأولوية القضايا التى تلح على العقل المسلم، تجعل من نقد «المشروع البعثى» قضية تأخذ الأولوية فى جدول الأعمال! . .

تلك هى «الصورة» . . وهذا هو «الموقف»، إلى ما قبل أحد عشر شهرا من الشروع فى كتابة هذا الكتاب على وجه التحديد . . فكيف . . ولماذا تغير الحال . . واحتلت دراسة «المشروع الفكرى» للأستاذ ميشيل عفلق الأهمية التى جعلتنى أعطيه عاما كاملا - للقراءة والتأمل - . . والأولوية التى جعلتنى أشرع فى كتابة هذا الكتاب، قبل غيره من الكتب «المعلقة» . . ربما منذ سنوات!؟ . .

- ٢ -

لقد توفى الأستاذ ميشيل عفلق فى ٢٤ - ٦ - ١٩٨٩ م . . وكنت يومئذ أشارك فى ندوة علمية عن «السنة النبوية : مصدر للمعرفة والحضارة»، نظمها فى «عمّان» - بالأردن - «المعهد العالمى للفكر الإسلامى» - بواشنطن - و«المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية» - بعمّان - . . وكانت أعمال الندوة، فى تلك الأيام، شاغلة لى عن متابعة ماكتب عنه من مقالات وأخبار وتحليلات . .

وفى مطار «عمّان»، ونحن عائدون إلى القاهرة، وكنا بصحبة شيخنا محمد الغزالى، انضم إلينا الأستاذ الدكتور خير الدين حسيب - مدير مركز دراسات الوحدة العربية - الذى سمعت منه، وللمرة الأولى، مضمون ما جاء فى بيان القيادة القومية لحزب البعث عن اعتناق الأستاذ ميشيل للإسلام، قبل وفاته،

وكيف أنه - حسب نص البيان - «لم يرغب هو ولا رفاقه في القيادة إعلان ذلك حرصاً منه ومنهم على ألا يعطى لهذا الخيار أى تأويل سياسى . .» (١).

وسمعنا ، كذلك ، عن دفنه وفق التقاليد الإسلامية . . وسمعنا ، أيضاً ، رأى شيخنا الغزالي فى ميشيل عفلق . . وكيف أنه كان كتيبة من كتائب الصليبية العالمية العاملة فى صفوف العرب والمسلمين ! . .

فى هذا اللقاء . . بدأ خيط الاهتمام بمشيل عفلق يتخذ له مكاناً فى عقلى واهتماماتى الفكرية . . وتخلق لدى سؤال يقول : ماذا لو حاولت تبين أثر اعتناقه للإسلام فى مشروعه الفكرى ؟! . ومتى . . وكيف . . وعلى أى نحو كان تأثير اعتناقه للإسلام فى ملامح هذا المشروع ؟!

إنه أمر مهم . . بل ومثير . . يستحق الاهتمام . . فاعتناق ميشيل عفلق للإسلام ، وتدينه به - وهو الأمر الذى نصده ورفاقه فيه ، ونسعد به كل السعادة - ليس بالأمر الذى يمر عليه أهل الفكر مرورهم على اعتناق «أحد من الناس» دين الإسلام . . لأن الرجل واحد من أبرز مفكرى وقادة التيار القومى العربى فى العصر الحديث . . وأستاذ تتلمذ وتتلמד عليه أجيال من المناضلين والمفكرين والمثقفين . . وأهم من هذا ، فإذا كان اعتناقه للإسلام قد صحبه تطور فى مكانة الإسلام بمشروعه الحضارى ، كانت القضية أكبر من اهتمام قائد ومفكر إلى دين الإسلام . . وغدت تحولا فى المشروع القومى الذى صاغه هذا المفكر ، والذى تبنى ، ولا يزال ، تيار فكرى وسياسى مؤثر فى واقعنا الفكرى والسياسى . . فالقضية ليست من القضايا التى طويت بانتقال الرجل إلى بارئه ، وإنما هى واحدة من القضايا المطروحة ، اليوم وغداً ، على التيار الفكرى

(١) انظر نص البيان فى صحيفة [الوطن] الكويتية : عدد ٢٥ - ٦ - ١٩٨٩ م .

والسياسى الذى يتبنى هذا المشروع القومى ، كما صاغه وطوره هذا المفكر
الفيلسوف ! . .

- ٣ -

ومرة ثانية ، عادت القضية تلح على - كى أشرع فى دراستها - من جديد . .
ففى الفترة من ٢٥ حتى ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩٨٩ م . دعا «مركز
دراسات الوحدة العربية» إلى ندوة - عقدت بالقاهرة - عن «الحوار القومى
الدينى» . . شارك فيها لفيف من أبرز مفكرى التيار القومى العربى ، والتيار
الإسلامى . . وما استلقت نظرى - وقد شاركت فى أعمال هذه الندوة ، ووقائع
الحوار الذى دار فيها - أن بعض أوراق العمل التى قدمت إليها قد تبنت ،
عند الحديث عن علاقة «العروبة» بـ «الإسلام» تلك الصيغة التى صاغها
ميشيل عفلق فى بداية حياته الفكرية والسياسية . . وهى الصيغة التى تحتل
«الإسلام» إلى مجرد «مقوم من مقومات القومية العربية»^(٢) . . مع إغفال التطور
الفكرى الواضح والحاسم الذى حدث لفكر الرجل فى هذا الموضوع . . الأمر
الذى جعلنى أشير فى أثناء هذا الحوار إلى خطأ إغفال هذا التطور الفكرى ،
الذى وصل بميشيل عفلق إلى عكس هذه المعادلة تماما . . فلقد انتهى إلى أن
الإسلام هو الأصل والمحور والمكون الأول والأب الشرعى للقومية العربية ،
والأمة العربية . . وقلت ، فى هذه الإشارة بوقائع ذلك الحوار :

(٢) انظر ورقة العمل التى قدمها الأستاذ الدكتور محمد عابد الجابرى «حول الحوار القومى
الدينى» : ص ١٢٢ من الكتاب الذى يضم أعمال الندوة [الحوار القومى - الدينى] .
طبعة بيروت - الأولى - ديسمبر ، سنة ١٩٨٩ م .

« . . ليس الإسلام «مجرد مقوم من مقومات القومية العربية» . . وإنما العكس هو الصحيح . فالعروبة - ومعيارها اللغة - متضمنة في الإسلام . ثم إن صاحب هذا التعبير - تعبير: إن الإسلام واحد من مقومات القومية العربية - هو ميشيل عفلق ، وهو صاغه في الأربعينات ، وأعتقد أن صاحب هذا الشعار قد طور فكره إزاءه ، بل لقد اهتدى إلى الإسلام فاعتنقه . وأنا أتمنى أن ندرس دلالة اهتداء أبي القومية العلمانية في المشرق إلى الإسلام . وفي حدود متابعتي المحدودة ، فإن « عفلق » منذ خطابه في إبريل سنة ١٩٨١ م - في ذكرى تأسيس البعث - قد تجاوز هذه الصياغة التي تختزل الإسلام كمجرد مقوم من مقومات القومية العربية ، وتحدث عن الإسلام باعتباره المقوم الرئيسي لقوميتنا ، وباعتباره جوهر الأسس التي لا بد من قيام نهوضنا الحديث عليها . فهذه الصياغة ، إذن قد تجاوزها حتى واضعوها . . « (٣) » .

وعندما رأيت علامات الاستفهام الكثيرة حول حقيقة ومدى التطور الذي حدث لفكر ميشال عفلق . . ورأيت بعض الشك في هذا الذي أشرت إليه . . أدركت مدى أهمية القضية . . ومدى الحاجة إلى دراستها ، لنصل فيها إلى الخبر اليقين . .

بل لقد تذكرت ، يومئذ ، ما حدث لي في شهر إبريل سنة ١٩٨١ م . . فلقد كنت يومئذ في زيارة لبغداد بدعوة من جامعته لإلقاء عدد من المحاضرات على أساتذة قسم السياسة - بكلية القانون والسياسة - وطلبة الدراسات العليا فيه . . وسمعت - وأنا بالفندق - خطاب ميشال عفلق ، في ذكرى تأسيس حزب البعث - ٧ إبريل - فاسترعى انتباهي في حديثه عن علاقة العروبة بالإسلام هذا التغير وهذا التطور اللذان أشرت إليهما . . حتى لقد احتجت إلى

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٢ .

أن أتأكد مما سمعته أذنأى!! . . فأعدت قراءة الخطاب في الصحف العراقية صباح اليوم التالى! . . فلما عدت إلى القاهرة ، تحدثت إلى واحد من كبار المثقفين البعثيين - غير الحركيين (٤) - عن هذا الذى سمعت . . فرفض - فى استنكار وإنكار - أن يقول عفلق هذا ، وأن يصل الإسلام فى فكره - إزاء العروبة - إلى هذا المستوى الجديد !! .

تذكرت ، وأنا فى ندوة « الحوار القومى - الدينى » سنة ١٩٨٩ م . . ذلك الحوار الذى حدث فى إبريل سنة ١٩٨١ م . . فتزايدت لدى دواعى دراسة هذا الموضوع! . .

٤ -

ثم جاءت دعوة « الجمعية العربية للدراسات السياسية » و«مركز الدراسات السياسية» بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - بجامعة القاهرة - إلى ندوة عن ميشيل عفلق ومحاور مشروعه الفكرى - وهى الندوة التى عقدت بالقاهرة فى مارس سنة ١٩٩٠ م . . ولقد طلب منى القائمون على تنظيمها أن أكتب عن محور: « الإسلام فى فكر ميشيل عفلق » . . فكانت الفرصة التى انتقلت بالنية والرغبة إلى ميدان الممارسة والتطبيق . . فبدأت ، فجمعت كل كتابات الرجل ، وشرعت فى جمع مادة « البحث » . . لكننى وجدت الأمر أكبر وأخطر من أن يحتزل فى صفحات تقدم إلى ندوة . . فعزمت على استكمالها ، ليخرج فى هذا الكتاب! . .

(٤) هو الأستاذ الدكتور محمد أحمد خلف الله .

ولقد يكون مفيدا أن أشير ، في هذا المقام ، إلى بعض التساؤلات والآراء التي قد ترد حول دراستي لهذا الموضوع . . موضوع : الإسلام في فكر ميشيل عفلق . . كنموذج لموقف التيار القومي من الإسلام . .

● فحول ميشيل عفلق ، كُتبت - قبل وفاته وبعدها - العديد من الكتب والدراسات . . وقد يرى البعض أنه لا مجال لجديد بعد الذي كتبه عن الرجل مفكرون ومثقفون وساسة بارزون ، كان الكثيرون منهم على مقربة من فكره ونضاله ، بل ومن حياته الخاصة لعقود عديدة من حياته الفكرية والنضالية . . لكن الحقيقة التي توصلت إليها ، والتي يقوم هذا الكتاب شاهدا عليها ، أن الأمر على عكس هذا الظن الذي يظنه هؤلاء . .

فالذين كتبوا على فكر ميشيل عفلق ، سواء أكانوا من محبيه أم من الكارهين له . . بعثين كانوا أم غير بعثيين ، قد صمتوا صمتا كاملا أو شبه كامل عن دلالة اعتناقه للإسلام . . وأهم من ذلك صمتوا - بحسن نية أو بسوءها - عن الاهتمام بدراسة مسار الخط البياني لمكانة الإسلام في مشروعه الفكري وحياته النضالية . .

لقد أعلنت القيادة القومية لحزب البعث ، في بيان نعيها للرجل أنه « قد اعتنق الإسلام ديناً » . . وكتبت مجلة « الوطن العربي » - وهي مجلة بعثية - أن « القيادة القومية قد أعلنت في بيان نعيها له - وأول مرة - عن مدى إدراك الراحل ميشيل عفلق للعلاقة الجدلية بين الإسلام وبين العروبة ، حيث قاده هذا الإيمان والفعل العميقان بترابط القومية بالدين في اعتناقه الإسلام ، دينا ، ولم يرغب هو ولا رفاقه في القيادة في الإعلان عن ذلك ، حرصا منه ومنهم على ألا يعطى لهذا الخيار أى تأويل سياسى »^(٥) .

(٥) [الوطن العربي] : العدد ١٢٠ - ٦٤٦ ، في ٣٠ - ٦ - ١٩٨٩ م .

ولقد شهد العالم كيف تمت مراسم دفن الرجل وفق الشعائر والتقاليد الإسلامية . . ومع ذلك . . فإن عددا من أقرب الناس إلى فكره وشخصه ، عندما يكتبون عنه ، نراهم يتجاهلون هذا الحدث ، وما له من دلالات . . نرى ذلك فيما كتبه الأساتذة - المفكرون . . والمتقنون . . والقادة البعثيون - : شبلى العيشى - الأمين العام المساعد لحزب البعث العربى الاشتراكى - . . وعبد المجيد السرافعى - أمين سر القيادة القطرية لحزب البعث العربى الاشتراكى فى لبنان - . . وزيد حيدر - سفير العراق فى بروكسيل - ورئيس البعثة العراقية لدى السوق الأوروبية المشتركة - . . وناصر عواد . . وناصر سابا . . وإلياس الفرزلى - وهو من أصدقاء البعث - . . لقد كتبوا جميعا ، فتحدثوا عن أهم نواحي فكر ميشيل عفلق وحياته ، دون أى إشارة إلى اعتناقه للإسلام ، فضلا عن دلالات هذا الإسلام . وانعكاساته فى مشروعه الفكرى (٦) !! .

وإذا كان من حق المرء أن يرتاب فى « الدلالات العلمانية » لهذا التجاهل لحدث يزلزل من مشروعية « الخيار العلمانى » للحزب الذى أسسه وقاده وصاغ مشروعه الفكرى ميشيل عفلق . . فإن هذا الارتياب ، فى هذه « الدلالات العلمانية » يرسخ ويتأكد عندما يصل الأمر إلى حد التشكيك - لا لشيء إلا « بمنطق التكفير » !! - فى اعتناق الرجل للإسلام . . .

فالأستاذ الدكتور سعد الدين إبراهيم . . عندما يسأله الأديب جهاد فاضل - فى حوار معه لمجلة [الحوادث] - عن رأيه فى دلالة اعتناق عفلق للإسلام ، قائلا له : « لقد عادت قضية العلاقة بين العروبة والإسلام لتطرح من جديد فى الفكر القومى ، وبخاصة بعد اعتناق الأستاذ ميشيل عفلق ، قبل رحيله ،

(٦) مجلة [الوطن العربى] : العدد ١٢١ - ٦٤٧ ، فى ٧ - ٧ - ١٩٨٩ م .

للإسلام» . . إذا بالدكتور سعد الدين إبراهيم يشكك في حقيقة إسلام الرجل . . بل وينفى عنه «التدين» من الأساس !! . . فيقول : «ربما كان الأستاذ ميشيل عفلق ، الذى لم يُعرف عنه التدين ، في رأى ، قد خطا خطوته هذه ليقفل أو يقلص المفاضلة الوهمية ، أو المساجلة الزائفة بين العروبة والإسلام من ناحية . وكان دائما يشكك في منشأ حزب البعث العربى الاشتراكى ، أن بعضهم من أصول مسيحية ، وكان يستخدم هذا كذريعة للتشكيك في دعوتهم القومية . . » .

ثم يمضى الدكتور سعد الدين إبراهيم ليقول - في ثقة صاحب الولاية والسلطة الدينية على ماتكنه القلوب والضماير من معتقدات !! - يمضى ليقول : «أنا أعتقد أن اعتناق ميشيل عفلق الإسلام كان اعتناقاً رمزياً فقط ، كى يضعف من هذه الحجة . . » (٧) !!

فالبعض يتجاهل الحدث ، ودلالاته . . والبعض يشكك في «تدين» الرجل . . ويتحدث عن «الإسلام الرمزي» ، الموظف لنفى تهمة التأثيرات المسيحية في حزب البعث ومشروعه الفكرى . . مع أن هذا «المنطق» لو كان له نصيب من «المنطق» ، لاختار ميشيل عفلق أن يعلن هذا «الإسلام الرمزي» منذ بداية حياته الفكرية ونضاله الحزبى . . وإلا فما قيمة إضعاف الحجة ، ورد التهمة ، بعد نصف قرن من قيامها وعمومها ورسوخها؟ . . بل وبعد وفاة المتهم؟ . . !

ولا أخفى على القارئ ، أن هذا المستوى من مستويات «الدلالات العلمانية» ، التى بلغت هذا المبلغ لحجب أى انتصار للإسلام ، وللتغطية على

(٧) انظر هذا الحديث في نشرة [المتدى] - التى يصدرها «متدى الفكر العربى» - بعمان - العدد ٥٠ نوفمبر سنة ١٩٨٩ م .

المعنى الفكرى والسياسى والنضالى والحضارى الذى يرتبه إسلام مفكر فى وزن ميشيل عفلق على عموم التيار القوى العربى ، وسائر رموز الفكر العلمانى فى بلادنا . وذلك هو الأمر المستقبلى والأكثر جوهرية وخطراً فى هذه القضية . . . لا أخفى على القارئ أن هذا المستوى من مستويات التعامل مع هذا الحدث . . . هو الذى استنفرنى ، فحفظنى على أن أعكف على فكر الرجل ومسيرة نضاله ، لأكتشف عن حقيقة موقفه من الإسلام . . . الإسلام الدين . . . والثورة . . . والحضارة . . . والمشروع الفكرى . . . ولأعرض على مختلف الفرقاء . . . قوميين وإسلاميين . . . الدلالة المستقبلية لمسيرة ميشيل عفلق مع الإسلام . . .

● ولقد يكون مفيداً أن أشير فى هذا المقام إلى أن موقعى الفكرى من كتابات ميشيل عفلق ومشروعه الفكرى ومسيرته النضالية ، قد مثل «العامل المساعد» على أن «أكتشف» فى فكره ما لا يستطيع أن يكتشفه فيه تلاميذه ومريدوه الأقربون . . . أو خصومه المناوئون !! .

لقد كنت . . . منذ منتصف عقد الخمسينات . . . على مقربة من فكر البعث ، أعرف ملامحه العامة ، وقسماته الرئيسية ، وتوجهاته المحورية . . . لكننى لم أقرأ هذا الفكر ولم أستوعب أدبياته قراءة المتبع الملتزم ، الذى تحول «الألفة» . . . فضلاً عن «الالتزام» . . . بينه وبين «اكتشاف» الملامح والدلالات التى لا «يكتشفها» أهل «الألفة» و«الالتزام» . . .

كذلك ، لم يكن فكر هذا المشروع غريباً عني ، حتى تستغرق على خفاياه وإشاراته ومراميهِ . . . ولا أنا بالرافض له والمعادى لوجوده فى الساحة العربية ، حتى يدفعنى الرفض والعداء إلى غمط مبدعيه والمناضلين فى سبيله المقام الذى يستحقون . . .

ولقد أعاننى هذا «الموقع الملائم» على أن أكتشف فى فكر ميشيل عفلق ،

ربما ما لم يكتشفه الكثيرون . . وهذه حقيقة من حقائق معاناة البحث والدراسة ، سبق لى وتجربتها واستيقنت من ثمراتها ، عندما كتبت الكتب والفصول التى كتبها عن الإمام الشهيد حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ، ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] ، والعلامة المجاهد أبو الأعلى المودودى [١٣٢١ - ١٣٩٩ هـ ، ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م] ، والشهيد سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ ، ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م] ، والشيخ محمد الغزالى . . وهى دراسات شهد المنصفون من تلاميذهم ومريديهم أنها قد اكتشفت فى فكرهم ما كان غائبا عن كثير من هؤلاء المريدين ! . .

ولقد زاد من اطمئناني إلى هذه الحقيقة ، وإلى ثمراتها . . ما وجدته من إشارات إليها فى حديث ميشيل عفلق عن علاقته بالإسلام . . وكيف أن موقع « العارف » الذى « لم يألفه » ، قد أعانته على أن يكتشف فى هذا الدين ما لم يكتشفه الذين ورثوه دون بحث وكد ومعاناة ! ! . .

يقول الرجل عن هذا « الواقع الذاتى » ، و« الظرف الخاص » الذى أعانته على « اكتشاف » الإسلام :

« . . قراءة جديدة للإسلام ، كشفت لنا عن حقائق أساسية فى روح شعبنا ونفسيته ، وأضاءت لنا طريق العمل الشورى . . وثمة واقع ذاتى ، جاء فى الوقت نفسه تعبيرا عن واقع موضوعى . الواقع الذاتى : هو أننى شخصا ، فى بداية تكوين الحزب اكتشفت الإسلام . أقول : اكتشفت ، ولا أعنى أننى لم أكن أعرف الإسلام . . فقد كانت هناك ألفة منذ الصغر . . اكتشفت الإسلام كثورة . . كتجربة ثورية هائلة ، وقرأته قراءة جديدة من هذا المنظار . فى أنه : عقيدة ، ونضال فى سبيلها . . وقضية هى قضية أمة ، وقضية إنسانية . . بل إنه قضية أمة بتصور إنسانى أوسع . . ونضال على أروع ما يكون بأعلى مراحل

وبها فيه من تنظيم دقيق وثقيف ، إلا أنه ، أيضا ، دين . فهو تجربة ثورية ،
السماء فيها متداخلة مع الأرض . . .

إن المسلم لا يكتشف الإسلام . . وكذلك البعيد عن الإسلام . الذى
يكتشف ، ينبغى أن يجمع بين الاستعداد النفسى وبين الجِدَّة . . أى ذلك
الذى لم تضعف العادة والألفة حساسية عينيه وأذنيه . . فالمسلم الذى نشأ فى
بيت مسلم من طفولته ، واعتاد دوما سماع الكلام عن الإسلام ، يتكون عنده
نوع من الضعف فى رهاقة الحس والذهن ، فلا يرى الجديد فى هذا الكلام ، ولا
يدرك المعنى العميق والهزة الروحية ، ، كما يحصل حين يهزك الكلام الذى
تسمعه لأول مرة . . » (٨) .

فموقعى من فكر البعث وأدبيات المشروع الذى صاغه ميشيل عفلق ، قد
أعان على أن أكتشف من حقائق موقفه إزاء الإسلام - ماسيراه القارئ - مما لم
يكتشفه آخرون . . كما أعانه هو « الاستعداد النفسى » و« الجِدَّة » على أن يرى فى
الإسلام ما لم يره فيه كثيرون ممن ألفوه ألفة الورثة الذين غابت عنهم رهاقة
الحس والذهن ، فلم يدركوا المعنى العميق ومصدر الهزة الروحية فيها ورثوه ! ! .

- ٥ -

وهنا ، لابد لنا من وقفة تأمل وتفسير واستخلاص لحقائق « تاريخ » ميشيل
عفلق مع « التدين بالإسلام » . .

فالرجل ، فى هذا النص الذى أوردناه له يحدثنا عن أن قراءته الجديدة

(٨) ميشيل عفلق . حديث مع مجلة [آفاق عربية] : ص ٥ - عدد إبريل ، سنة ١٩٧٦ م .

للإسلام ، واكتشافه لهذا الإسلام ، قد حدثا في مطلع حياته الفكرية والسياسية - دون تحديد دقيق لهذا التاريخ - . ثم إنه يحدثنا ، في عشرات النصوص ، التي ستمثل بها صفحات هذا الكتاب عن حقيقة ، لايفتا الرجل يسلط عليها كل الأضواء . . حقيقة أن الذي جعله ورفاقه الأوائل يختارون صيغة «البعث» و«التجديد» لتراث الأمة وهويتها ، وليس صيغة « الليبرالية الغربية» أو «الماركسية الغربية» ، أن السبب الأول والأوحد في هذا الاختيار ، المبكر ، هو اكتشافه للإسلام . . فكان الاختيار لطريق «البعث» و«التجديد» ، هو الذي ميّز مشروعه الفكري عن تلك المشروعات التي اختارها عرب آخرون . .

وفوق ذلك ، وأهم ، أن الرجل « يشير» ، دون أن « يعلن» ، إلى أن اكتشافه للإسلام ، وامتلاكه له ، وتبنيه لصيغته منذ ذلك التاريخ المبكر لم يقف فقط عند حدود «الإسلام الثورية» ، و«الإسلام الحضارة» ، و«الإسلام التراث» ، و«الإسلام كهوية للأمة» و«كرسالة إنسانية خالدة» لها . . وإنما كان الاكتشاف والاختيار « للإسلام : الدين السماوي . . والوحي الإلهي» . . وأن ما اكتسبه الرجل من هذا الاكتشاف لم يقف ، فقط ، عند «المعنى العميق» ، وإنما كانت هناك ، أيضا ، «الهزة الروحية» ! — لقد اكتشف الإسلام الشامل . . وصدق به . . وإن كان قد استدعى منه لمشروعه الفكري «الجوانب الحضارية» — على النحو الذي ستحدث عنه ، فيما بعد ، بالتفصيل . .

فهل في هذه « الإشارات» مايفصح عن أن تاريخ « تدين » الرجل بالدين الإسلامي قد كان منذ فجر حياته الفكرية والسياسية ؟! . .

لنستعن - قبل أن نحكم الحكم المظمن - بمدد جديد من نصوص الرجل ، ذات الدلالة في هذا الموضوع الهام . . يقول الرجل : «إن طريق البعث

كان نتيجة اكتشاف الإسلام^(٩) . . لقد كانت اللحظة التاريخية في حياة الثورة العربية المعاصرة هي سلامة الاختيار . . وقد كان الموقف من التراث القومي ، أى من الإسلام ، وعلاقته الوثيقة بمرحلة الانبعاث القومى المعاصرة ، معبرا عن أحد الاختيارات الكبرى لفكر البعث . . ولأن هذه النقطة الأساسية لم تعط حتى الآن الاهتمام الذى تستحقه . . [يقول هذا الكلام في ٧ من إبريل سنة ١٩٧٧ م] - بل بقيت مجهولة من الكثيرين ، كان لابد ، حرصا على المستقبل وسلامة الاتجاه ، من الإشارة الصريحة إلى ذلك . والتتمة على الأجيال البعثية الصاعدة^(١٠) !! » .

فهو يشير إلى مركزية لحظة الاختيار للإسلام ، ودور هذا الاختيار في تميز صيغة المشروع الفكرى ، وينبه على أن هذه الحقيقة ظلت - [حتى تاريخ هذا التنبيه : سنة ١٩٧٧ م] - مجهولة ، لم تعط الاهتمام الذى تستحقه . . ويحث الأجيال البعثية الصاعدة على جلاء معالم « هذه النقطة الأساسية » ومتطلبات هذا الاختيار !!

ثم يعاود ، مرة ثانية ، الإشارة - في سنة ١٩٨٢ م - إلى لحظة البدء والاختيار هذه ، فيقول : « . . بالنسبة إلى بذور فكرة البعث ، التى كانت أرض سورية العربية موطنها الأول . . كانت بداية لقاءين حاسمين فى أثرهما العميق : لقاء مع الفكر العلمى العقلانى التحررى الحديث ، ولقاء مع الإسلام العربى ورسوله الكريم ، لقاء الحب والإعجاب والانتفاء الحميم !! »^(١١) .

(٩) المرجع السابق : ص ٧ .

(١٠) خطاب ٧ من إبريل سنة ١٩٧٧ م [فى سبيل البعث - الكتابات السياسية الكاملة] : ج ٣ ، ص ١٢١ . طبعة بغداد ، سنة ١٩٨٧ م .

(١١) المصدر السابق ج ٣ ، ص ٢٠١ خطاب ٧ ، من إبريل سنة ١٩٨٢ م .

وننبه هنا إلى دلالات المصطلحات . . فاللقاء مع الإسلام ، منذ لحظة البدء والاختيار، لم يكن لقاء «الإعجاب» ، فقط ، وإنما كان لقاء «الحب» و«الانتماء الحميم» !! . . ومن قبل ، قال : إنه قد اكتشف فيه ، واكتسب منه «المعنى العميق» و«الهزة الروحية» كليهما !! . .

بل إننا واجدون للرجل عبارة - في خطابه : « ذكرى الرسول العربى » - ٥ من إبريل سنة ١٩٤٣ م - يتحدث فيها عن قصته مع « الإيمان » . . وعن « اكتسابه له بالألم والمشقة » ، وليس « بالميراث والتقليد » . . . ولقد وقفت أمام هذه العبارة - وتاريخها سنة ١٩٤٣ م - حائرا متسائلا . . أى «إيمان» ذلك الذى كان مفقودا عنده ، ثم اكتسبه بالألم والمشقة ، ولم يرثه بالتقليد ؟ . . أكان ملحدا ، ثم تدين وآمن بالمسيحية ، فى ذلك التاريخ المبكر من حياته الفكرية والعملية ؟ . . أم إن تدينه بالإسلام يرجع إلى تلك المرحلة المبكرة . . وفيها كان الحب والانتماء الحميم والهزة الروحية للإسلام ورسوله الكريم ؟ . . يقول ميشيل عفلق ، فى هذا النص ذى الدلالة الكبرى . .

« . . . لا يفهمنا إلا المؤمنون ، المؤمنون بالله . قد لا تُرى نصلى مع المصلين ، أو نصوم مع الصائمين ، ولكننا نؤمن بالله ، لأننا فى حاجة ملحة وفقر إليه عصيب ، فعبثنا ثقیل ، وطريقنا وعر ، وغايتنا بعيدة . ونحن وصلنا إلى هذا الإيمان ، ولم نبدأ به ، وكسيناه بالمشقة والألم ، ولم نرثه إرثا ولا استلمناه تقليدا ، فهو لذلك ثمين عندنا ، لأنه ملكنا وثمره أتعابنا . . . » (١٢) .

إن الكلمات الأخيرة من هذا النص تحتاج إلى أن توضع أسفلها عشرات الخطوط !! .

(١٢) [فى سبيل البعث] : ص ١٣٤ . طبعة دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٤ م خطاب ذكرى الرسول العربى .

لقد ولد الرجل مسيحيا ، من طائفة الروم الأرثوذكس ، فبدأ بإيمان موروث ، كان فيه مقلداً . . . لكنه يتحدث هنا - في سنة ١٩٤٣ م - عن اكتسابه لإيمان بالله لم يبدأ به ، ولم يرثه ، ولم يكن فيه مقلداً ، وإنما هو اكتسبه بالمشقة والألم . . . ولذلك فهو ثمين عنده ، لأنه ملكه ، وثمره أتعابه . . .

ولذلك ، فلقد وقفت ، حيال هذا النص متسائلا :

هل تدنّ ميشيل عفلق بالإسلام ، دينا ، منذ ذلك التاريخ ؟ .

إن كل النصوص ، التي قدمنا طرفا منها ، وعشرات غيرها ، مما ستعرضه صفحات هذا الكتاب ، تؤكد أن مرحلة اكتشافه للإسلام : الثورة . . . والحضارة . . . والرسالة . . . كانت هي مرحلة إيمانه به ، وحببه له ، وانتهائه الحميم إليه ، وإلى رسوله الكريم . . .

ومع شهادة هذه النصوص ، فلقد آثرت الاستئناس بشهادة شاهد حي ، هو واحد من أبرز مفكرى حزب البعث ، بعد ميشيل عفلق ، وواحد من المقربين إليه ، ورفاق مسيرته النضالية . . . عرضت علامات الاستفهام هذه على الأستاذ الدكتور إلياس فرح . . . وسألته تحديدا عن مغزى إشارة ميشيل عفلق - في خطابه « ذكرى الرسول العربى » - سنة ١٩٤٣ م - إلى « الإيمان » ، الذى وصل إليه ، واكتسبه بالمشقة والألم ، ولم يبدأ به ، ولم يرثه إرثا ولا تسلمه تقليدا . . . والذى هو ، لذلك ، « ملكه ، وثمره أتعابه » . . .

سألته عن مغزى هذه الإشارة . . .

● هل هو الإيمان بالمسيحية ، بعد مرحلة شك أو إلحاد ؟ .

● أم هو الإيمان بالإسلام ، كسدين ، والتدين به كعقيدة ، منذ ذلك التاريخ ؟ . . .

ولقد أكد لي الأستاذ الدكتور إلياس فرح - وكان بادی السعادة ، مقبلا على الحديث ، متعاطفا مع موضوعه !! - أكد لي أن الإيمان ، الذي أشار إليه الأستاذ ميشيل ، في هذا النص ، إنما هو الإيمان بالإسلام ، كدين ، والتدين به ، منذ ذلك التاريخ . . . وأكد لي أن حديث الأستاذ ميشيل عن اكتشافه للإسلام - الذي أكد عليه في حديثه إلى مجلة [آفاق عربية] - عدد إبريل سنة ١٩٧٦ م - هو حديث عن المرحلة التي تدين فيها بالإسلام (١٣) . . .

تلك هي الحقيقة التي كانت مفاجأة لي ، عندما أمسكت ببدايات خيوطها من خلال النصوص القاطعة ، والتي تكررت وتناثرت في كتابات ميشيل عفلق . . . والتي أكدها لي ، وطمأنني إلى صدقها زميل دربه ، ورفيق نضاله ، وأحد حواريه المقربين إليه الأستاذ الدكتور إلياس فرح . . . وهي الحقيقة التي ستذهل الكثيرين ! . . .



ومع ذلك . . . فإننا نقول : إن هذه الحقيقة ليست أهم ما في هذا الموضوع ! . . .

فليس قدين ميشيل عفلق بالإسلام ، هو الأمر الذي نكتب عنه هذا الكتاب . . . فكثيرون ولدوا مسلمين أو اعتنقوا الإسلام ، وعملوا بالسياسة أو اشتغلوا بالفكر ، دون أن تكون هناك حاجة إلى أن تكتب عنهم الكتب وتقدم

(١٣) دار هذا الحديث بيني وبين الأستاذ إلياس فرح ، بمنزل السفير العراقي لدى مصر الأستاذ نبيل نجم التكريتي بالقاهرة ، مساء يوم الأحد ١٨ - ٣ - ١٩٩٠ م . . . وكان اللقاء احتفالا باختتام أعمال الندوة التي عقدت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة - عن فكر ميشال عفلق .

عنهم الدراسات . . وإنا القضية التي نعقد لها لواء هذه الصفحات : هي مكانة الإسلام في المشروع الفكري والحضارى لميشيل عفلق ، الذى هو المشروع الفكرى والحضارى لواحد من أبرز وأهم فصائل التيار القومى العربى المعاصر . . وليس مشروعا خاصا لمفكر من المفكرين أو كاتب من الكتاب . .

ويزيد من أهمية الدراسة لهذه القضية ، أن الكلمة الأخيرة فيها لا تلوح لنا بالاطمئنان إلى اعتناق الرجل لدين الإسلام ، والتأكد من تاريخ هذا الاهتمام إلى الإسلام . . ذلك أن مكانة الإسلام في مشروعه الفكرى والحضارى قد أصابها التطور . . والوضوح . . والنضج عبر أكثر من نصف قرن ، هو عمر العطاء الفكرى والنضال العملى الذى أقام فيه الرجل بناء هذا المشروع . . فتشعُّ الخط البيانى لهذا الوضوح . . والتطور . . والنضج لمكانة الإسلام في هذا المشروع النهضوى ، هو الانجاز الأهم الذى نبتغيه من وراء الجهد المبذول في هذا الكتاب . .

إن اكتشاف عفلق للإسلام - كما يقول - هو الذى ميّز مشروعه الفكرى . . فجعله « بعثا » وإحياء وتجديدا لهُوية الأمة وتراثها ورسالتها . . ولم يجعله « القومية المجردة » من الدين والتراث . . ولا ليبرالية الغرب . . ولا ماركسيته . . لكن حجسم « مرجعية الإسلام » في هذا المشروع الحضارى البعثى بالنسبة إلى حجسم المؤثرات والمرجعيات الأخرى . . ودرجة الوضوح لهذه « المرجعية الإسلامية » والموازنات في أدبيات هذا المشروع الفكرى بين « الإسلام » وبين « القومية » من حيث العلاقة بينهما ، وأيهما الأصل ؟ وأيهما الفرع ؟ . ومعنى « الرسالة الخالدة » لهذه الأمة الواحدة . . ودرجة الوضوح لهذا المعنى في أدبيات هذا المشروع . . وعلاقة الدين بالدولة . . والموقف من « العلمانية » . . وكذلك دور الإسلام في تميز الأمة ومشروعها الحضارى عن الأمم الأخرى ، ومشروعاتها

الحضارية - وخاصة في المواجهة مع الحضارة الغربية . . . كل هذه ، وغيرها ، مما
ماثلها ، قضايا أساسية ومحورية ، تمثل لبسات في ذلك البناء الذي يطمح
لإقامته هذا الكتاب . . بناء : مكانة الإسلام في المشروع الحضارى البعثى ، كما
نشأ وتطور في فكر القائد المؤسس والفيلسوف المنظر ميشيل عفلق . .

فهى ، إذن ، مهمة أكبر وأعقد وأهم من إثبات تاريخ اعتناق ميشيل
عفلق للإسلام . .

- ٦ -

بل لعل من الضروري ، أن نوضح ونؤكد ، عند هذا المقام من التقديم بين
يدى هذا الكتاب ، أنّ « مرجعية الإسلام » في المشروع الفكرى لميشيل عفلق ،
وحجمه بالنسبة للمرجعيات الأخرى ، إذا كان قد بدأ محدودا وغامضا ، وظل
لسنوات طويلة شبه محاصر في ظلال مرجعية « القومية » ، التى اتخذت الأصل
والأساس في كثير من أدبيات هذا المشروع . . وإلى الحد الذى تبنى فيه حزب
البعث « العلمانية » تبنيًا رسميًا ، في الفكر والممارسات . . وإذا كانت مراحل
الغموض هذه ، وفترات الازورار عن إعلان الإسلام كمرجع رئيس في هذا
المشروع ، والاكتفاء دائما بالحديث عن « الإسلام : « لتراث » أو « الحديث فقط
عن التراث » . . أو بالحديث عن « الإسلام : الثورة » وليس « الإسلام :
الدين » . . . إذا كان ذلك قد مثل موقف ميشيل عفلق ذاته من هذا الأمر ،
لحظة طويلة من حياته الفكرية والعملية . . وذلك فضلا عن موقف حزبه
الذى وقف وراءه ، وبعيدا عنه ، ولمسافات طويلة في هذا الموضوع ! . . إذا كان
ذلك هو واقع القضية في العقود الثلاثة الأولى من عمر هذا المشروع . . فإن
صعود الخط البيانى لوضوح موقف هذا المشروع من مرجعية الإسلام في

مكوناته ومصادره ، منذ عقد السبعينات ، وخاصة منذ منتصفه - وهي مرحلة استقرار ميشيل عفلق بالعراق - إن هذه القضية تتطلب منا أن نعرض للعوامل التي أدت إلى هذا التطور الهام في هذا الموضوع . . . وإلى موقف عفلق من مبدأ تطور فكره ووضوحه حيال مرجعية الإسلام في مشروعه الفكري والسياسي والحضاري . . .

● إن الأمر الذي تؤكد عليه كتابات ميشيل عفلق - ومنها النصوص التي سبقت إشارتنا إلى بعض منها - أن اكتشافه للإسلام ، وإيمانه به هما اللذان حدّدا توجّهه الفكري والسياسي والحضاري منذ فجر حياته النضالية . . .

● والأمر الذي تؤكد عليه كتاباته ، أيضا ، أن هذه القضية - قضية دور الإسلام في تحديد هذا الاختيار الفكري ، المتميز عن الاختيارات التي وفدت من الغرب ، ليبرالية . . . وماركسية - قد ظلت غامضة في كتابات عفلق ، ومنزوية ، لم تسلط عليها الأضواء ، ولم تعط حقها من الإبراز والإيضاح والتفصيل . . .

● والأمر الذي يؤكد عليه الرجل ، كذلك ، أن « الحقبة العراقية » ، في حياته الفكرية ، هي التي شهدت اهتمامه باستكمال هذا النقص في وضوح الموقف من مكانة الإسلام ودوره وحجمه في هذا المشروع . . .

١ - ففي سنة ١٩٥٨ م . . . يعترف ميشيل عفلق بأن الأمة ، بسبب من ارتباطها بتاريخها ، ونزوعها إلى « القسم الأصيلة المطلقة » - [وهو هنا لا يسميها باسمها الحقيقي . . . وهو: الإسلام] - يعترف بأن الأمة قد فاجأته وفاجأت غيره من المثقفين بأنها أكثر أصالة وتقدما من هؤلاء المثقفين . . . الأمر الذي دعاه إلى تطوير نظريته إلى المرجعية التي حفظت للأمة هذا التواصل الحضاري المستعصى على البلى والانقطاع . . .

يقول ميشيل عفلق - في حديث إلى الشاعر العراقي بدر شاكر السياب - :
« . . كنت أعتقد أن جماهير الشعب العربي لاتعى من عروبته سوى كلمة
« نحن عرب » . . وكنت أعتقد أن المهمة التي تنتظرنا هي أشبه ماتكون بالمهمة
التي كانت تنتظر أجدادنا العرب ، إبان الفتح العربي الإسلامي : إعادة
جماهير الشعب العربي - وخاصة في العراق الذي كان الفرس يحكمونه ،
وسورية التي كان الروم يحكمونها - إلى حظيرة الأمة العربية . . ثم تبدد الوهم ،
وظهر أن الشعب مازال أغنى وأعمق من قاداته ، ومازال يضاجئ القادة
باستمرار ، فهو نزاع إلى القيم الأصيلة المطلقة ، وهذا هو مايربطه بتاريخه »
(١٤) . . لقد تبدد الوهم . . وفاجأه أن مايربط الشعب بتاريخه هو « النزوع إلى
القيم الأصيلة المطلقة » . . وهي : القيم الدينية ، فالمطلق ، في مصطلحاته -
كما ستوضح نصوصه - هو الدين . .

٢ - وفي ذات الحديث - إلى بدر شاكر السياب - يتطرق كلام ميشيل عفلق
إلى مشروعه الفكري ، والبناء النظري الذي قدمه لحزب البعث . . فيعترف
بوجود « ثغرات في أفكار » هذا المشروع . . ويعلل وجودها بغلبة ضرورات
« الحركة » على التفرغ « لتنظيم الفكرة وتنسيقها وتوسيعها . . » . فيقول :

« . . كان الفكر ومايزال يحتل مركزا كبيرا عندي ، ولكن عملي القومي
خلال السنوات الخمس عشرة وقبلها ، لم يكن عملا فكريا ، وإنما : خلق
حركة ، للفكر فيها مكان أساسي ، ولكن الحركة هي الأول والهدف ، وهذا
مايفسر وجود ثغرات في تلك الأفكار . كان العمل أهم من تكوين فلسفة ،
وكان يلح علينا فنلبيه ، على حساب تنظيم الفكرة وتنسيقها وتوسيعها » (١٥) .

(١٤) [في سبيل البعث] : ج ٥ ، ص ٣٤ طبعة بغداد ، سنة ١٩٨٨ م - وتاريخ الحديث ٩
من أغسطس سنة ١٩٥٨ م . .

(١٥) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٣١ .

٣ - وفي سنة ١٩٦٣ م . . يعترف عقلق « بعفوية الفكر البعثى » - رغم أصالته - وبحاجته إلى « التوسيع والتفصيل والصياغة العلمية » . . فيقول :

« إن الفكر البعثى أصيل ، ولكنه بحاجة إلى توسيع وإلى تفصيل وإلى صياغة علمية تنقله من هذا الشكل العفوى الذى ظهر فيه ، وأسباب ظهوره بهذا الشكل معروفة . فنشأة الحزب الطبيعية الصادقة ، جعلته مختلفا عن الأحزاب التى تنشأ بعد مؤتمرات ونتيجة مقررات وتبادل آراء ، أو تنشأ بعد كتابات تكتب فى الغرف و وراء المكاتب . إن كل شىء كُتب أو قيل فى هذا الحزب ، كُتب وقيل أثناء النضال . . » (١٦) .

. . إذن ، هو يعترف بحاجة مشروعه الفكرى ، المتميز بالأصالة ، إلى سد مافيه من ثغرات . . وإلى توسيع مافيه من نقص وضيق . . وإلى تفصيل مافيه من إجمال . . وإلى صياغته الصياغة العلمية التى « تنقله من هذا الشكل العفوى الذى ظهر فيه » . . يعترف بذلك فى حقبة عقدي الخمسينيات والستينيات . .

٣ - وفي منتصف عقد الستينيات ، حدث تطور هام فى الموقع النضالى لميشيل عقلق . . فالأزمة التى حدثت فى الحزب ، بين القيادة القطرية السورية وبين القيادة القومية ، انتهت فى سنة ١٩٦٦ م . بخروجه من سورية ، وعزله عن قيادة الحزب فى سورية . .

(١٦) المصدر السابق : ج - ٤ ، ص ٣٧٥ - « البعث تعبير عن أفكار الجيل العربى الجديد » . . ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٦٣ م . . [بل ويعترف ميشيل عقلق فى ذات التاريخ - أكتوبر سنة ١٩٦٣ م - بتقصير الحزب وعدم تسويقه فى تجسيد النزعة الروحية التى نزع إليها عند التأسيس ، فيقول : « ثورة البعث أرادت منذ البدء أن تأتى بعنصر روحى . إلى أى حد توقفت ؟ ! هذا شىء آخر . . وأقول : إن هناك تقصيرا ، وكلنا مسئولون ، ولكن ، هل هذا يكفى لكى نياس من ذلك الطموح الذى غذى نضالنا منذ البدء ؟ هل يجوز لنا أن نتخلى عن ذلك المطمح الأول ؟ . . » - ذات المصدر - ج - ٤ ، ص ٣٨١ - « لقد نفذ حزبنا إلى ضمير الشعب » - .

وبعد سنوات من القلق . . . وعندما عاد البعث إلى حكم العراق - ١٧ - ٣٠ يوليو سنة ١٩٦٨م - . . . بدأت «الحقبة العراقية» في حياة ميشيل عفلق . . . وفي هذه الحقبة ، تطورت ووضحت وبرزت أفكاره عن مرجعية الإسلام ومكسائته المحورية في مشروعه الفكرى والحضارى . . . وكان وراء هذا المنحنى في تطور فكره حيال هذه القضية ، عوامل وملابسات كثيرة ، في مقدمتها :

(أ) تصاعد المد الإسلامى ، على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام ، بعد تراجع بريق المشروع القومى العربى ، منذ هزيمة ٥ من يونيو سنة ١٩٦٧م . . . والتى آذنت بغروب شمس أبرز تطبيقات المشروع القومى ، في صورته «الناصرية» . . . فمنذ ذلك التاريخ ، أخذ الخيار الإسلامى يجتذب ، ليس فقط الجماهير ، وقطاعات من « النخب » غير المسيّسة ، وإنما أيضا قطاعات من «النخب العلمانية المسيّسة» ، قومية كانت أو ماركسية . . . كما أخذ هذا الخيار الإسلامى يُحدث تأثيراته في المشروعات والخيارات الحضارية الأخرى . . . وأقربها - بالطبع - إليه هو المشروع والخيار القومى . . . وخاصة إذا كان للإسلام دور في تكوينه . . . كما هو حاله عند ميشيل عفلق . . .

ويزيد من أهمية هذه الحقيقة ، ما شهدته وواقعنا الفكرى ، من تراجع نفس من المفكرين العلمانيين عن تبنى بعض الرؤى والأفكار والمواقف الإسلامية ، التى تبناها لدوافع وطنية وقومية واعتبارات ثقافية ، تراجعهم عنها عندما تعاظم المد الإسلامى ، فحفظوا من الإسلام عندما رأوا جدية تياره ، وحقيقة مشروعه . . . فلم يعد حديث الإسلام « شقشقة مثقفين » ، وإنما غدا مشروعا حضاريا بديلا للتغريب الذى منه ينطلقون ، ولمرجعيته في فكرهم الولاء والانتماء . . .

ولم يكن ميشيل عفلق كهؤلاء . . . بل لقد صاحب تعاظم المد الإسلامى وضوح رؤيته وتطور نظرته إلى الإسلام ! .

(ب) وعامل آخر، صاحب الوضوح والتطور في فكر ميشيل عفلق إزاء دور الإسلام ومكساته في مشروعه الحضاري . . وهو تراجع النموذج والخيار الاشتراكي الغربي . . ودخول النظرية والتطبيق الماركسي في مرحلة الأزمة . . وهو الأمر الذي أدركه ميشيل منذ بداية حقبة السبعينيات ! . .

لقد كان الرجل ، منذ بداية مسيرته الفكرية والنضالية ، رافضا للبرالية الغرب . . وواقفا موقف السدارس المستفيد المنتقى من شمولية الغرب (الماركسية) . . وهاهي ذي الشمولية تؤذن صفحتها بالانطواء . . الأمر الذي مثل دافعا من دوافع زيادة حجم الاستقلال الفكري عند ميشال عفلق . . وليس لهذا الاستقلال الفكري ، في الواقع العربي ، إلا معنى حقيقي واحد ، وهو زيادة الاهتمام بالإسلام ، باعتباره السياق الحقيقي والمنبع الحقيقي لهذا الاستقلال ! . .

لقد كتب الرجل - في مايو سنة ١٩٧٠ م - عن نزوع الأسس الفكرية التقليدية للشيوعية ، بشكل ينذر بأن الشيء الذي سُمّي شيوعية منذ نصف قرن سيصبح - بعد ٢٠ أو ٣٠ سنة - شيئا من التاريخ !! . . والعالم يشهد تطورات هي أقرب إلى أن تكون ثورات فكرية . هذا التصدع في المعتقدات ، التي كانت تظهر قبل عشرين سنة أو أقل بأنها معتقدات أبدية وعلمية ، ولايتطرق إليها الشك ، لقد أصبحت اليوم تعاني من التصدع والتفكك ! . . « (١٧) » . . لقد ضاعت الفرصة على هذه الثورات الشيوعية . . ونحن مطالبون بأن نعتبر بهذا التوقف أو التجمد الذي أصابها . . وبالإصرار على استلهاص الأصالة في تاريخنا وفي روح أمتنا ، ولكي لانصل يوما إلى طريق مسدود ! « (١٨) » .

(١٧) [في سبيل البحث] : ج ٥ ، ص ٤٦ ، ٤٧ - « حزب الثورة العربية » - مايو سنة ١٩٧٠ م .

(١٨) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٥٩ ، ٦٠ - « الحزب تسوده روح الأسرة الواحدة » - ١٥ - ٩ - ١٩٧٧ م .

ففى الوقت الذى « اعتبر » ميشيل عفلق بجمود وتراجع منابع الاشتراكية الغربية . . كانت دعوته لمزيد من استلهاام الأصالة وروح الأمة - الإسلام - كى لا يصل مشروعه الحضارى إلى الطريق المسدود . . فكان مزيد انفتاحه على الإسلام . . !

(ج) ولقد تميز « المناخ العراقى » ، الذى ارتبط به ميشيل عفلق - منذ زيارته للعراق سنة ١٩٦٩ م ، واستقراره فيه منذ منتصف عقد السبعينيات - تميز عن « المناخ السورى » ، على النحو الذى ساعد على دفع خط بيان وضوحه الفكرى إزاء قضية مرجعية الإسلام ودوره المحورى فى مشروعه الفكرى . . إلى الأمام .

ففى « المناخ السورى - اللبناى » - الذى كان مسرحا لفكره وحركته حتى سنة ١٩٧٥ م - كانت هناك الانقسامات الطائفية ، والطوائف غير المسلمة ، التى ترفض إسلامية المشروع الحضارى . . وتستريب حتى فى مجرد اعتماد الإسلام كمجرد تراث ! . . وكانت هذه الطوائف - فى غالبيتها - تتبنى العلمانية ، التى تفصل الدين عن الدولة والفكر والثقافة والتربية والتعليم والسياسة والاجتماع والاقتصاد . .

أما فى « المناخ العراقى » ، فإن الانقسامات الأساسية هى - فى حقيقتها - تمايز فى إطار الإسلام . . فالعرب والأكراد : مسلمون سُنة . . والسُنة والشيعة : مسلمون عرب . . ومن ثم ، فإن تبنى إسلامية المشروع الحضارى ، أو إبراز مرجعية الإسلام فيه ، ليس بالأمر المستغرب ، ولا بالذى يواجه بالرفض - فى هذا المناخ - على النحو الحادث فى طائفية وانقسامات المناخ « السورى - اللبناى » . .

بل ، لقد تميزت علاقة حزب البعث العراقى بالإسلام - فى هذا المناخ

العراقي - عن علاقة نظيره - حزب البعث السوري - بالإسلام . . فعلى حين نجد السُّنة - وهى الكتلة الإسلامية الرئيسة فى سورية - هواها مع جماعة الإخوان المسلمين . . فإن البعث السوري - وخاصة منذ سنة ١٩٦٦م - قد غلب عليه التمثيل والتعبير عن مصالح طائفة « النصيرية » ، التى يتراوح التقسيم الإسلامى لها ما بين : اعتبارها من غلاة الشيعة . . وبين التشكيك فى إسلامها من الأساس !! . . فالهوية الإسلامية للبعث السوري عليها - بنظر الكثيرين ، على الأقل - علامات استفهام . . .

أما البعث العراقى ، فإنه ، بنظر الكثيرين ، هو المعبر - بالدرجة الأولى ، وفى الأساس - عن سُنَّة العراق . . وبصرف النظر عن موقفه النظرى من الدين والتدين ، ورفع راية العلمانية ، إلا أنه - واقعيا ، وفى مواجهة غير السُّنة من المسلمين ، وغير المسلمين من العرب - هو المعبر عن السُّنة فى العراق . . وهذا مناخ فكرى . . وظرف موضوعى متميز إسلاميا عن المناخ الفكرى والظرف الموضوعى فى سورية ولبنان . . وهو تميز لأبد وأن يكون - مع تصاعد مد الصحو الإسلامية - دافعا لميشيل عفلق كى يعود للنظر من جديد فى مكانة الإسلام فى مشروعه الفكرى ، الذى يقدمه فى هذا المناخ الجديد إلى أمته التى تدخل - فى موضوع الخيارات الحضارية - مرحلة جديدة تتميز بتصاعد جاذبية الخيار الحضارى الإسلامى . .

(د) وفى هذا الطور الجديد ، من حيث التوجه الإسلامى للأمة فى الخيار الحضارى . . والمناخ العراقى المتميز إسلاميا ، على النحو المواتى والمساعد على بروز مكانة الإسلام فى مشروع ميشيل عفلق . . بدأ الرجل مرحلة متميزة فى مهامه واهتماماته . . فلقد قرر اعتزال المهام والمسئوليات السياسية والحركية ، والتفرغ للعمل الفكرى . . الأمر الذى أتاح له - وهو الزاهد بطبعه - الخلاص

من كل تأثيرات المناورات الحزبية وتوازنات المصالح على الرؤية الفكرية الخالصة لذات الفكر والضمير المفكر . . هنا التفت الرجل إلى مشروعه الفكرى ، وعاد إلى المنطلقات الإسلامية التى حددت خياره وميزته منذ فجر حياته ، محاولا استكمال النقص فيها ، وإزالة الغموض عنها ، وتجلية الوجه الحقيقى لها ، وتطوير نظرتة ونظرة أتباعه إليها . . وإن لنا على هذه الحقيقة لشواهد عديدة . .

ففى يوليو سنة ١٩٧٠م . . يتحدث ميشيل عفلق عن قراره التفرغ للعمل الفكرى - بعد تجربته مع أزمة الحزب فى سورية سنة ١٩٦٦م ، فيقول : « . . وخرجت من تلك التجربة بدرس نهائى ، وبقناعة نهائية . إنه بالنسبة لى على الأقل ، ليس من مصلحة الحزب أن أضع نفسى فى الواجهة ، وأمكن أعداء الحزب وأعداء الأمة من أن يصيبوا الحزب من خلالى ، وصممت أن يقتصر دورى على الناحية الفكرية . وهذا أطبقه وأمارسه منذ ذلك الحين حتى الآن . وتعرفون ، بأنسى فى المؤتمر القومى العاشر الأخير (١٩) ، بعد أن تعذر إقناع الرفاق أعضاء المؤتمر، والرفاق العراقيين بخاصة بأن يعفونى من مسئولية الأمانة العامة ، حتى من المسئولية الاسمية ، وافقتُ على قبول الصفة دون ممارسة المسئوليات ، ووافق المؤتمر على طلبى بأن أنقطع للجنة شكلها المؤتمر باسم اللجنة الفكرية . . » (٢٠) .

فمن ذلك التاريخ ، « انقطع » ميشيل عفلق للعمل الفكرى ، ولمسئولية اللجنة الفكرية . .

(١٩) [آفاق عربية] عدد إبريل سنة ١٩٧٦م .

(٢٠) [فى سبيل البعث] ج ٢ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ طبعة بغداد سنة ١٩٨٦م - المؤامرة التاريخية على حزب البعث - كتبت فى يوليو سنة ١٩٧٠م - .

ولعل الحديث الذى أدلى به ميشيل عفلق إلى مجلة [آفاق عربية] - إبريل سنة ١٩٧٦ م - أن يكون أول المعالم الفكرية التى شهدت بروز هذا التطور والوضوح والتركيز فى كتاباته على مرجعية الإسلام فى مشروعه الفكرى والحضارى . . ففيه تحدث عن دور الإسلام فى تحديد وتميز اختياره الفكرى والسياسى . . وتحدث عن « الصورة التى انطبعت أثناء القراءة الجديدة للإسلام ، والتى أعطت أشياء أساسية ، بعضها واضح ، وبعضها واقع بين الوضوح والإبهام . . » (٢١) . . فأخذ ، منذ ذلك التاريخ يحاول إزالة الإبهام عن جوانب الصورة التى أثمرتها القراءة الجديدة للإسلام ! . .

وفى خطاب ٧ من إبريل سنة ١٩٧٧ م ، أشار إلى أن مكانة الإسلام ودوره فى تميز هذا المشروع الفكرى ، « لم تُعطَ حتى الآن الاهتمام الذى تستحقه ، بل بقيت مجهولة من الكثيرين . . ولابد ، حرصا على المستقبل وسلامة الاتجاه ، من الإشارة الصريحة إلى ذلك . والتتمة على الأجيال البعثية الصاعدة ! . . » . . فهو يعلن عن تصديه لاستكمال النقص ، وإيضاح المجهول « حرصا على المستقبل وسلامة الاتجاه » . . ويعلق الآمال على الأجيال البعثية الصاعدة ، كى تعطى الإسلام مرجعته الطبيعية فى هذا المشروع ! كما يقول - فى ذات الخطاب - : « لذلك لم يكن غريبا أن يعود الحزب بين الحين والآخر ليؤكد على منطلقاته الأساسية التى لم تعط الاهتمام الذى تستحقه ، ولم يستخرج منها كل العبر الكامنة فيها ، كالموقف من التراث والإسلام ! » (٢٢) .

وعندما برزت السمات الإسلامية فى أديباته ، سئل فى ٢٧ - ٤ - ١٩٨٠ م

(٢١) [آفاق عربية] ص ٦ - عدد إبريل سنة ١٩٧٦ م .

(٢٢) [فى سبيل البعث] ج ٣ ، ص ١٢١ ، - « البعث وتحديات المستقبل » - ٧ إبريل سنة ١٩٧٧ م .

.. هل هناك تغير واختلاف في فكره؟ .. فكانت إجابته : « إنها روح واحدة .. [في كتاباتي] - عبرت عن نفسها في مناسبات مختلفة . قناعات فكرية لم تختلف . لكن الظروف السياسية وظروف المجتمع ، وصعوبة العمل الثوري في مجتمعنا ، هذه الأمور أخرت ظهور هذه الأفكار ، وإعطاءها الاهتمام المطلوب .. » .

فهو، ينكر أن يكون هناك « انقلاب » في توجهه الفكري ، لكنه يعترف بأن الظروف السياسية والاجتماعية وملازمات العمل الثوري ، قد أخرت ظهور السمات الإسلامية في فكره ، وحالت بينها وبين أن تأخذ الاهتمام المطلوب .. ثم يشير إلى دور « المناخ العراقي » في إبراز هذه القسمة الإسلامية ، فيقول : « .. والآن ، نشعر بأن في تجربة حزبنا في العراق ، للمرة الأولى ، تأخذ أفكار الحزب مداها .. » (٢٣) .

ونحن عندما نلقى نظرة فاحصة على كتابات ميشيل عفلق في المرحلتين السورية والعراقية ، نجد الدليل المادى المجدد لصدق هذا التحليل لدوافع هذا التطور والوضوح في فكر الرجل إزاء مرجعية الإسلام ومكانته في مشروعه الفكري ..

فالجزم الرابع من أعماله الفكرية الكاملة .. والمخصص لكتاباته في القطر السوري ، يندر فيه الحديث عن الإسلام ، ويقل فيه الحديث عن التراث .. بينما تُكوّن كتاباته في العراق عن التراث والإسلام جزءا كاملا .. هو الجزء الثالث - وأكثر هذا الجزء محاضرات ألقاها في «مدرسة الإعداد الحزبي» .. أي أن التركيز على الإسلام والتراث الإسلامي ، لم يكن كلاما للمناسبات العامة ، وإنما

(٢٣) المصدر السابق . ج٣ ، ص ٩٠ - حوار حول الدين والتراث - ٢٧ - ٤ - ١٩٨٠ م .

كان مادة فكرية لإعداد القيادات الحزبية . . . ومواد هذا الجزء ، سابقة في تاريخها على قيام الثورة الإيرانية . . فلم تكن «مزايدة إسلامية» على الشعارات الإسلامية التي رفعتها هذه الثورة على الشاطئ الآخر للخليج . . فهو، إذن، موقف فكري أصيل ، فيه تصاعد وتفصيل وتوضيح وتعميق وتطوير لموقف جنيني قديم . .



تلك مقدمات ضرورية ، كان لابد من الصعود عبر حقائقها وأفكارها إلى حيث نمسك بالأطراف الأولى لخيوط هذا الموضوع . . موضوع مكانة الإسلام ودوره في فكر ميشيل عفلق ومشروعه الحضاري . .

-٧-

على أن هناك سؤالاً مهماً ، لابد من طرحه والإجابة عنه ، عند هذا المقام من هذا التقسيم بين يسدى هذا الكتاب . . ولابد ، أيضاً ، من التنبيه على ضرورة استحضار القارئ لإجابة هذا السؤال في كل موطن من مواطن هذه الدراسة يرد فيه حديث ميشيل عفلق عن الإسلام . . فهذه الإجابة ، هي بمثابة المعيار والميزان الذي يوزن به مراد الرجل عندما يذكر مصطلح الإسلام . . فكى لا نظلم الإسلام ، ونحن نتحدث عن مكانته في المشروع الحضاري لميشيل عفلق وكى لا نظلم ميشيل عفلق فننسب إلى فكره أبعاداً إسلامية لم يقصد إليها ، ولم يتطلع إلى آفاقها ، ولم يستدعها أو يتبنها في مشروعه الفكري . . كان لابد من طرح هذا السؤال . . واستحضار إجابته ، من قبل القارئ ، على امتداد فصول وصفحات هذا الكتاب . .

أما السؤال ، فهو :

أى إسلام كان ميشيل عفلق يعنى عندما يكون حديثه عن مكانة الإسلام في المشروع القومي ومرجعيته في المشروع الحضارى؟ .

وبعبارة أخرى :

هل كان ميشيل عفلق ، في حديثه عن مكانة الإسلام ومرجعيته في مشروعه الحضارى ، يتبنى ويستدعى كامل الإسلام؟ . أم أبعادا بعينها ، وقسمات بذاتها ، وميادين خاصة من الإسلام ، دون غيرها ، من الإسلام؟ . ومن ثم ، فإن موقفه - وكذلك مشروعه متميزان عن مواقف أخرى ، ومشروعات أخرى ، لمفكرين آخرين ، ومشروعات حضارية تبنت واستدعت كامل الإسلام لكامل ميادين النهضة والمشروع الحضارى؟ .

وبالطبع . . فنحن نعلم أن الإسلام ، باعتباره الدين الإلهى ، هو وضع الله ووحيه إلى نبيه ورسوله محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام . . وهو ، في كماله وشموله ، نسق إلهى متكامل . . فيه العقيدة - التى هى محوره وجوره - والشرعية التى هى منهاج الإنسان وطريقه إلى الاعتقاد بالعقيدة والتدين بها . . وفى هذه الشريعة ، تندرج العبادات والمعاملات والأخلاق والقيم . .

ونعلم أن هذا الوضع الإلهى والوحى الربانى - العقيدة والشريعة - عندما تفاعلت مع الواقع الإسلامى والتصورات الإسلامية قد صبغت إبداعات البشر المسلمين في علوم الحياة وفنونها بالصبغة الإسلامية المتميزة . . فكانت «بصمة» الدين هى التى ميزت حضارة المسلمين عن غيرها من الحضارات . . ومن ثم ، عرف «الدين - الوحى» طريقه إلى التأثير في «الحضارة» - ثقافة ومدنية - التى أبدعها المسلمون . . فكان الإسلام ، في بنائه الشامل وآفاقه الفسيحة ، شاملا للعقيدة . . والشريعة . . والحضارة . . أى منهاجا كاملا لكامل الحياة ،

الدنيوية منها والأخروية . . وإطارا جامعاً وحاكماً لكل شئون العمران ، عمران النفس والمجتمع على حد سواء . .

ولأن هذا هو شمول الإسلام ، كان « الإيمان » فيه إطاراً جامعاً ، وليس ، فقط ، اعتقاداً بالآلوهية والغيب والعبادات . . كان الإيمان فيه إطاراً جامعاً لشئون الدين والدنيا . . وأمور الدنيا والآخرة . . وقواعد عمران الفرد والمجتمع . . وسياسة الدولة والعلاقات الدولية . . وسائر هموم حياة الإنسان والحيوان والجماد والنبات . . إلخ . . إلخ . . فهذا « الإيمان » الإسلامى — كما يعلمنا رسول الله ﷺ : « بضع وسبعون شعبة . . أفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » (٢٤) .

والإسلام ، الذى يظن البعض أنه هو الأركان الخمسة التى تحدث عنها حديث رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » (٢٥) .

هذا الإسلام ليس فقط هذه الخمس ، لأنها هى الأسس والأركان والقواعد التى قام عليها بناء الإسلام ، وليس لمعاقل أن يختزل البناء الشامخ فيما قام عليه من قواعد وأسس وأركان . . .

فالعقيدة والشرعة — « الدين — السوحى » — فى النموذج الإسلامى — ومنذ الحقبة المدنية فى دعوة الرسول ﷺ ، قد صنعتنا : دولة . . وحضارة وعمرانا فغدا الإسلام : ديناً ودنيا . . وفى الحضارة الإسلامية — التى هى : دنيا قد

(٢٤) رواه البخارى ومسلم والنسائى وأبو داود .

(٢٥) رواه البخارى ومسلم والنسائى والإمام أحمد .

اصطبغت بصبغة الدين الإلهى - . . فى هذه الحضارة : سياسة . . واجتماع . .
واقتصاد . . وفلسفة . . وقانون . . وقيم . . وآداب وفنون . . إلخ . . إلخ . .
إلخ . .

والتمييز - فى الإسلام - بين العقيدة . . والشرعية . . والحضارة . . ليس . .
فقط ، سبيلا من سبل تسهيل البحث والدرس ، وقاعدة من قواعد تصنيف
العلوم والفنون . . وإنما هو ، أيضا ، تمييز لما هو ، فى الأساس ، وحي إلهى -
فعلومه علوم شرعية - عما هو ، فى الأساس ، إبداع بشرى ، كالحضارة ؛ فعلومها
علوم مدنية بشرية ، سرت فيها روح الدين ، واصطبغت بصبغة الوحي ،
وحكمتها معايير العقيدة والشرعية . .

وإذا كان « الفهم البشرى » له مدخل كبير فى « علوم الشريعة » . . فإن
الشرعية هى الصبغة والمعيار لإسلامية علوم الحضارة فى أمة الإسلام وتجربتها
التاريخية . .

فالصلات ، من ثم ، قائمة بين « أقسام » الإسلام - العقيدة . .
والشرعية . . والحضارة - مع قيام التمايز والتمييز بين هذه « الأقسام » . . كسبيل
للدرس والبحث . . وباعتبار الأصل المرجعى لكل « قسم » ، وغلبة المعايير
الحاكمة فيه - وحيًا هى ؟ أم من إبداع الإنسان المسلم المتأثر بوحي الله ؟ . .
ذلك هو تكامل الإسلام ، كما نؤمن به . . وتنصوره . .

ومن الناس ، من يرى أن نهضة أمة الإسلام لا تتحقق إلا بارتكاز النهضة
على كل شعب الإسلام وأقسامه ، دون استثناء . . فهم يستدعون للمشروع
النهضوى كامل الإسلام : العقيدة . . والشرعية . . والحضارة . . يصوغون

الإنسان وفاقا لمعاييرها ، ويحكمون المجتمعات بقيمها وقوانينها . . وهؤلاء هم «الإسلاميون» ، الملتزمون بكامل الإسلام منهاجا شاملا لكامل النهضة والحضارة الإسلامية . .

ومن الناس ، من يؤمن بالإسلام — دينا — فيه : العقيدة والشرعة ، اللتان صنعتا الحضارة — لكنهم لا يستدعون منه — في مشروعاتهم الحضارى ، ودعوتهم للنهضة ، ونضالهم في سبيل البعث — لا يستدعون ولا يتبنون غير « الإسلام : الحضارة » — وذلك دون كفر منهم بالعقيدة ، أو جحد للشرعة . . ولكن بدعوى أن «العقيدة» خصيصة تخص العابد المطيع وحده — فهي « شأن خاص » — . . . بينما « الحضارة » هي إطار جامع للعابد والعاصي ، على حد سواء . . ولأبناء الأمة العربية جميعا ، مسلمين وغير مسلمين ، متدينين وغير متدينين . .

« فالإسلام : الحضارة » — بنظر هذا الفريق من دعاة النهضة وأصحاب المشروعات الحضارية وبخاصة قسائه التى تشمل : التراث الروحى . . والثقافة المتميزة بالرؤية الإسلامية . . والتاريخ المجسد لعبقرية الأمة . . والمثل . . والثورة — التى مثلت حركة الأمة وتجربتها فى التغيير . والرسالة — التى مثلت نزوع الأمة للتجديد وتحقيق الذات فى مواجهة التحديات — يرى هؤلاء — مع إيمانهم بكامل الإسلام — أن المرجعية المطلوبة للمشروع النهضوى ، من الإسلام ، هي مرجعية « الإسلام : الحضارى » . . وليست مرجعية « كامل الإسلام » ! . .

ومن هذا الفريق كان ميشيل عفلق . . صاحب المشروع القومى ، الذى نعقد صفحات هذا الكتاب لتتعرف على مكانة ومرجعية الإسلام فيه . .

إن قارئ هذا الكتاب — وكذلك قارئ كتابات ميشيل عفلق — فى ضوء الوعى الذى تزوده به هذه الحقيقة التى أثمرتها هذه الدراسة — إن هذا القارئ

سيجد في نصوص ميشيل علق التي تتحدث عن الإسلام ومكانته ومرجعياته في المشروع القومي - مشروع البعث العربي - سيجد في هذه النصوص تحديدا واضحا بأن المدعو من الإسلام ليكون غذاء للمشروع النهضوي وطاقة للبعث والنهضة هو : الإسلام : الثورة . . الإسلام : التجربة المفصحة عن عبقرية الأمة . . الإسلام : التراث الروحي المكون لقومية الأمة . . الإسلام : الحضارى المميز للأمة وقوميتها ونهضتها عن غيرها من الأمم والقوميات والنهضات . . الإسلام : المتمثل في حركة الأمة العربية ، بالدرجة الأولى ، وعلى وجه الخصوص والتحديد! . .

ذلك هو الإسلام الذى يعنيه ويعتنى به . . ويدعوه ويستدعيه ميشيل علق كى يحتل المكانة المتميزة والمرموقة ، وكى تكون له - مع علوم الواقع المعاصر - المرجعية في مشروع البعث لنهضة الأمة العربية . . وتلك هى الآفاق والمضامين التى يريد لها الرجل عندما يرد فى حديثه ذكر الإسلام . . لقد تطور فكره إزاء هذه القضية - وضوحا فى الرؤية لها . . وزيادة فى الاهتمام بها . . وتنمية لحجم الحديث عنها ولحجمها فى مرجعية مشروعه الحضارى - ولكن دون خروج عن هذا النطاق الذى يستدعيه من الإسلام! . .

فالإسلام : الإلهى . . ذو الجوانب الغيبية . . يؤمن به ميشيل علق . . لكنه لا يستدعيه مرجعا فى مشروعه الحضارى .

والإسلام : الشريعة والقانون . . لا يؤمن ميشيل علق بضرورته إطارا حاكما للدولة القومية التى يدعو إليها . . وإنما هو يتبنى « علمانية الدولة » ، فيحررها من « قانون الإسلام » . . على حين قد رفض « علمانية القومية » التى تحررها من « تراث الإسلام »! . .

والروح والروحانية عنده ليس لها البعد الغيبى - الذى لها فى « الإسلام :

العقيدة» ، وإنما هى « الإرادة» . . إرادة الأمة - التى أثمرها « الدين» فى الحضارة الإسلامية» . . .

فالرجل - مع اعترافه وإيمانه بالإسلام : الدين السامى - والغيب من عقائده - إلا أنه لا يتبنى فى مشروعه الفكرى والحضارى هذا الجانب الغيبى . . إنه يدعو إليه ويحبذه ويراه ضروريا ، كشأن إيمانى فردى ، يحمى الإنسان من ضياع الإلحاد ، الذى يرفضه ، لكنه يرى فيه شأنا فرديا وضرورة إنسانية ، يتساوى فى تقديمها للإنسان المتدين دين الإسلام مع غيره من الديانات الأخرى أما ما يستدعيه عقل للمشروع الحضارى ، ويتبناه مرجعا فى النهضة القومية والبعث العربى ، ويراه «خصوصية إسلامية» ، يتميز فيها ويمتاز بها الإسلام على غيره من الديانات ، فهو « الإسلام : الحضارى» كما جسده الأمة العربية عندما آمنت بدين السماء . . الإسلام كتجربة بشرية أرضية متفاعلة ومؤمنة بدين الله ووحى السماء . . .

تلك هى حدود وأفاق مصطلح «الإسلام» فى المشروع الحضارى لميشيل عفلق . . كما ستشهد عليها نصوصه ، فى صفحات هذا الكتاب .

فالرجل ليس نموذجا « للمفكر الإسلامى» . . الذى يتبنى كامل الإسلام ، ويلتزم بمرجعياته فى مشروعه الفكرى والحضارى . . وإنما هو - إذا نحن شئنا دقة التوصيف - نموذج «للمفكر القومى» الذى يتبنى الإسلام الحضارى ، ويستدعى المشروع الحضارى الإسلامى مرجعا للنهضة القومية العربية التى أراد . .

لقد تقدم على درب « الإسلام الحضارى» . . لكنه - وحتى انتقاله إلى بارئه - لم يتبن - فى مشروعه الحضارى - كامل الإسلام . . فظل متميزا عن « المفكرين الإسلاميين» . . وظل مشروعه متميزا عن «مشروعات النهضة الإسلامية» . .

لكن التميز هنا ليس تميز «التناقض والعداء» بقدر ما هو تميز في المسافة التي قطعها كل مفكر على ذات الدرب والآفاق التي استدعاها كل مشروع من آفاق الإسلام . . إنه تميز في «الكم» وفي «المسافة» التي قطعها المفكر ومشروعه على طريق الإسلام ! . .

* * *

وإذا كانت المسيرة الفكرية لميشيل عفلق قد شهدت تطور وضوح رؤيته لمكانة الإسلام الحضارى ونمو حجمه في مرجعية مشروعه لبعث الأمة العربية ، وخاصة منذ حقبة السبعينيات . . فإننا لانرجس بالغيب ولانبالغ إذا قلنا إن منطق هذا «التطور» في رؤية الرجل لمكانة الإسلام ودوره في مشروعه الحضارى حاكم بأن الطريق أمام هذا التطور - لدى التيار القومى - مايزال مفتوحا . . فيه العديد من الخطوات . . وأمامه العديد من الإمكانيات والثمرات ! ! .

ذلك ، أن تبني «الإسلام : الحضارة» له «منطق» يقول لنا : إن أى حضارة من الحضارات - ومنها حضارتنا الإسلامية - تتجاوز في سماتها وقسماتها : الفلسفة . . والسياسة . . والاجتماع . . والاقتصاد . . والقانون . . والأخلاق . . والجماليات . . إلخ . . إلخ . .

فإذا كانت الحضارة إسلامية ، فإن مرجعية الإسلام فيها ولها تقتضى إسلامية هذه السمات والقسمات . . إسلامية قانونها وسياساتها واجتماعها واقتصادها وأخلاقها وفلسفتها وجمالياتها . . وجميع مسافيتها من سمات وقسمات . . الأمر الذى يدعو الواقفين من الإسلام عند «الإسلام : الحضارة» - كى يتسقوا مع أنفسهم و«منطقهم» - إلى التقدم لتبنى كل الإسلام . . فلن يكون المشروع الحضارى إسلاميا إلا إذا انطلقت فلسفته من التبنى الكامل لكامل الإسلام . .

وإلا . . فأى منطق فى أن نرفض « علمانية الغرب » ، التى تجرد « القومية العربية » من « التراث الروحى للإسلام » - وهو ما صنعه ميشيل عفلق - . . وفى ذات الوقت نقبل « علمانية الغرب » التى تجرد « الدولة العربية » من « قانون الشريعة الإسلامية » ؟ . .

* * *

تلك هى آفاق مصطلح « الإسلام » فى فكر ميشيل عفلق . . وهى آفاق تنتظر - من مفكرى التيار القومى العربى - من يواصل السير على طريقه ، فيفتح ويفسح أمامها سبل التطور والوضوح ، التى لاتعرف الحدود ، طالما استمرت فى التجدد والنمو حيوية العقل الإنسانى الساعى إلى الاقتراب أكثر فأكثر من المطلق والكمال المتمثلين فى الوحي الإلهى . . دين الإسلام . .

وكما سبقت إشارتنا . . فلقد كان من الضرورى إيضاح آفاق مصطلح « الإسلام » فى فكر الرجل . . ليستحضرها القارئ عندما يطالع نصوصه فيما سبلى من صفحات هذا الكتاب .

الإيمان الديني.. والنزعة الروحية

في فكر الأستاذ ميشيل عفلق ، على امتداد مسيرته ، ومنذ فجر حياته الفكرية والعملية حتى خطابه الأخير - إبريل سنة ١٩٨٩ م - قصة واضحة وثابتة ومستمرة . . هي قصة الإيمان الديني . . والنزعة إلى تأكيد أهمية الروح ، والسلوك الروحي ، بالنسبة لضوابط السياسة وسلوك المناضلين السياسيين . . وربط كل ذلك بمنبعه الغني . . الإسلام ، وتراثه . . والتأكيد على أهمية هذا الإيمان ، وهذه الروحانية في مشروع البعث والإحياء المنشود للأمة العربية . .

تلك واحدة من القسمات الثابتة في فكره ، التي ما فتئ يرددها ويؤكد عليها في العديد من المناسبات . . حتى ليستلفت تكراره لها وتأكيده عليها أنظار دارسيه ، إذا هم تتبعوا خيطها على امتداد نصف قرن من الزمان ! . .

ففي المرحلة التي سبقت تأسيس حزب البعث . . كون ميشيل عفلق سنة ١٩٤١ م - إبان الثورة العراقية ، التي قادها رشيد عالي الكيلاني [١٣١٠ - ١٣٨٤ هـ ، ١٨٩٣ - ١٩٦٥ م] - ثورة مايو سنة ١٩٤١ م - كون - في سورية - تنظيمًا سماه : « نصره العراق » . . وفي أدبيات هذا التنظيم ، نجد أن هدف «تنظيم الحياة الروحية» لتكون طاقة تحريك الجماهير الشعب كى تنصر ثورة العراق . . نجد هذا الهدف منصوبًا عليه في أدبيات هذا التنظيم . . فهو يدعو أئمة المساجد . . ويدعو المدرسين إلى أن يجعلوا خطبهم تدور حول نصره

العراق ، وعلاقتها بالقضية العربية ، «ليوجهوا» - «بتنظيم الحياة الروحية» - قلوب المسلمين وأرواحهم نحو هذه الغاية . .» (١) ! .

وفي خطابه الشهير : « ذكرى الرسول العربى » - ٥ من إبريل سنة ١٩٤٣ م .. يؤكد ، لا على إيمانه الدينى فقط ، وإنما على أن هذا الإيمان هو مفتاح فهمه وفهم الطبيعة المتميزة لمشروعه ، فيقول : « . . لا يفهمنا إلا المؤمنون ، المؤمنون بالله . . . إننا نؤمن بالله ، لأننا فى حاجة ملحة وفقر إليه عسيب . فعبثنا ثقيل ، وطريقنا وعمر ، وغايتنا بعيدة . ونحن وصلنا إلى هذا الإيمان ولم نبدأ به ، وكسبناه بالمشقة والألم ، ولم نرثه إرثاً ، ولا استلمناه تقليداً ، فهو لذلك ثمين عندنا ، لأنه ملكنا وثمره أتعابنا . .» (٢) . . ولقد أقمنا الدليل ، من قبل ، على أن حديثه هذا ، إنما كان يعنى الإيمان بالإسلام ، كدين ، والتدين به منذ ذلك التاريخ . .

والأمر الذى يعطى هذه القضية - قضية التدين . . والروحانية - أهميتها الحقيقية ، وأفاقها الواقعية ، فى المشروع الفكرى لميشيل عفلق ، لاتنبع فقط من تجاوزها للموقف الفردى ، إلى حيث غدت دعوة يلح على إبراز محوريتها وأهميتها ، دائماً وأبداً - على النحو الذى سنشير إلى طرف منه . . وإنا - زيادة على ذلك - من وعى الرجل بضرورة الدين والتدين ، والروحانية والنزعة الأخلاقية ، لإنقاذ المشروع الحضارى ، الذى بشر به وناضل فى سبيله ، من خطر المادية والإلحاد ، اللذين كانا يمثلان خطراً حقيقياً على قطاع مؤثر من الحركة الفكرية والسياسية العربية فى الحقبة التى بدأ فيها ميشيل عفلق مسيرة الفكر والنضال . .

(١) [فى سبيل البعث]؛ جـ ٥ ، ص ١٩ ، ٢٠ . .

(٢) [فى سبيل البعث]؛ : ص ١٣٤ - طبعة دار الطليعة - بيروت ، سنة ١٩٧٤ م .

كانت النزعة المادية والموجة الإلحادية - ومصدرهما الفكر الغربى ، وبخاصة شق الماركسى - خطرين يهددان إيمان فكرنا ، وتدين سياستنا ، وروحانية وأخلاقية مشروعا النهضوى . . وفى مواجهة هذا الخطر كتب ميشيل عفلق - سنة ١٩٤٦ م - منبها ومحذرا ، فقال :

« . . نحن مهتدون بأن تحمل المادة محل الروح ، وأن يحتل الإلحاد مكان الإيمان ، والانفصالات والتطرف محل الأخلاق ، إذا لم يع الشبَاب مسئولية الخطيرة ، وهى فى أن يعطى هذه المفاهيم الروحية والقيم السامية معناها الحقيقى ، حتى تعود الروح فتسيطر مرة ثانية على الواقع وتفهمه وتستجيب لضروراته . فإذا أرجع الشبَاب إلى هذه القيم الروحية معانيها الأصيلة الحقيقية أنقذ أمته من أخطار العقلية المادية التى تهددنا فى أخلاقنا وحيويتنا وحرية فكرنا وأفرادنا ، كما تهددنا فى قضيتنا القومية . . » (٣) .

فهو ينبه على خطر « العقلية المادية » ، و« النزعة الإلحادية » على روحانيتنا . . وأخلاقنا . وحيويتنا . . وحریتنا . . على المستوى الفردى ، وعلى مستوى القضية القومية معا . ويدعو إلى إعطاء المفاهيم الروحية معانيها الحقيقية ، لصد هذا الخطر ، ولإعادة الروح إلى موقع السيطرة على الواقع ، مرة ثانية ، كما كان الحال إبان نهضة الأمة برسالة الإسلام . .

وهذا الملصق المهم من ملامح فكر ميشيل عفلق ، حول علاقة « الروح » بـ « الواقع » ، وضرورة « إعادة الروح إلى موقع السيطرة على الواقع » ، شديد الأهمية فى تحديد موقع الرجل فى هذا الميدان الفلسفى . . ميدان علاقة « الروح » بـ « الواقع » . . وبشعبير آخر : علاقة « الفكر » بـ « المادة » . . وهى قضية ثار حولها ،

(٣) المصدر السابق : ص ٣١٢ - « معالم الاشتراكية العربية » - .

في حياتنا الفكرية والثقافية ، جدل كبير وجاد ، بسبب الطرح المادى الماركسى ، المعادى للروحانية ، أو الذى يختزلها على النحو الذى يقطع صلاتها بالدين ، ويحولها إلى لون من ألوان الإفراز للنشاط المادى والاقتصادى للمجتمع والإنسان ! .

ولم يكن ميشيل عفلق بالمنكر لدور العوامل المادية والاقتصادية . . وإنما كان واعيا بأولوية وأهمية الدين والتدين والفكر والروحانية والرسالة على عوامل المادة والاقتصاد . . فعنده أن « العوامل الاقتصادية وإن لم تكن كل شيء في حياة البشر فهى شيء كبير وخطير ، وإن لم تكن المؤثر الأول فإن لها على كل حال تأثيرا متبادلا ، وفي بعض الأحيان حاسما مع العوامل الأخرى » (٤) . . ولو كان العامل الاقتصادى هو المحرك الأساسى الوحيد ، لما كان هناك حزب البعث ، لأن حزب البعث منذ اليوم الأول لتأسيسه - وكتاباتة تشهد كما يشهد نضاله - نظرت إلى العوامل الأخرى لتطور المجتمعات ، مع أنه يعتقد أن العامل الاقتصادى هام جدا وأساسى ، ولكنه ليس العامل الوحيد . . » (٥) .

فليست هناك أولية ، ولا واحدة للعوامل الاقتصادية ، كما تزعم النزعة المادية الإلحادية . . وعلى العكس من المنهج المادى الماركسى ، الذى كان يرى الفكر - بألوانه المختلفة - انعكسا للواقع . . أكد ميشيل عفلق أولية « الرسالة » في مشروعه الفكرى والحضارى . . فكتب يقول :

« إن الثورة هى من أجل القضاء على التخلف والاستغلال . . من أجل القضاء على الاستعمار . . ومن أجل سعادة الناس . . إلخ . . ولكن ، كل هذا يأتى بالدرجة الثانية بعد الرسالة . . لأنك إذا لم تضع الرسالة في الدرجة

(٤) المصدر السابق : ص ١٦٣ - « العرب بين ماضيهم ومستقبلهم » - سنة ١٩٥٠ م .

(٥) [في سبيل البعث] : ج ٤ ، ص ٢٨٢ - « لقد نفذ حزبنا إلى ضمير الشعب » - أكتوبر سنة ١٩٦٣ م . . .

الأولى لاتحرر من الاستعمار ، ولاتخلص من الصهيونية . فهذه الأشياء هي
الميزة لحركتنا ، لأن التفكير الماركسي ، وشبه الماركسي ، والعلمي ، وشبه
العلمي لا يوصل إلى هذه الحقائق . . وأحيانا يوصل إلى الاستهزاء بها والتنكر لها
ومجافاتها . . وبالتالي إلى التعثر والفشل . . » (٦) !

ونحن إذا تتبعنا « الخط البياني » لفكر الرجل ، إزاء هذه القضية . . قضية
ضرورة الدين والتدين والإيمان الديني . . وضرورة الروحانية للمشروع النهضوي
فإن باستطاعتنا أن نجد الخط متصلا ، على امتداد عمره الفكري ، واضحة
فيه :

● الدعوة إلى تدين يجعل الدين مجددا لحياة الأمة وواقعها . . ومن ثم فهو
تدين متميز عن « التدين الرائج » ، الذي يُسَخَّر الدين لتكريس الواقع
البائس ، أو يقف به عند « شكل التدين » الخالي من المضمون ! . .

● والدعوة إلى « الروحانية - الواقعية » ، الجامعة بين المثالية - بل ولون من
الصوفية - وبين مقتضيات التفكير العلمي . . الروحانية التي تهتم ببعد
« الإرادة » و« الأخلاق » أكثر من الاهتمام « بالبعد الغيبي » . . وذلك لاستدعاء
ميشيل عفلق « الإسلام : الحضاري » أكثر من استدعائه « الإسلام : الدين
الحال » ! .

ففي سنة ١٩٤٦م يتحدث عن معنى أن « دعوتنا الروحية دعوة واقعية »
فيقول : « يجب ألا يُفهم من الدعوة إلى الروح أننا ندعو إلى المحافظة على
الأوضاع الفاسدة ، أو أننا نتوهم أن الإصلاح الاجتماعي يمكن أن يتم بسهولة
وذلك بمجرد توفر الرغبة وحسن النية ، وأن يظن أننا ننشد التفكير الواقعي

(٦) من حديثه إلى مجلة [آفاق عربية] : ص ٩ . بغداد إبريل ، سنة ١٩٧٦م .

ونهمل ضرورات العلم ومقتضيات التفكير العلمى . إننا بعيدون عن مثل هذه الأوهام ، لأننا نؤمن بأن واجبنا هو أن نكون واقعيين في تفكيرنا كما لو كنا ماديين ، لأن العودة بالمجتمع إلى الوضع السوى المنشود لا تكون بالوهم ، والسحر ، والغموض ، وإنما بمشاهدة الواقع والتحقق من أمراضه ومداواتها مداواة حقيقية . . » (٧) .

وفي سنة ١٩٥٠ م ، يتحدث عن مكانة الدين والروحانية في مشروع البعث . . وعن تميز هذه النظرة للتدين عن « التدين الرائج » يومئذ . . فيقول - تحت عنوان : « الدين في البعث العربى » :

« لقد ظهر البعث العربى في حياة العرب الحديثة ، وفي وسط الجمود والجحود والنفعية والانحلال حركة إيمان عميق ، تستقطب النفوس النقية السليمة . . فنشوء البعث العربى إنما هو دليل ساطع على الإيمان ، وتوكيد للقيم الروحية التى ينبع منها الدين . . وقد دعا البعث العربى إلى مفهوم جديد للحياة القومية ، والحياة بصورة عامة ، قوامه : الإيمان بالقيم الروحية الإنسانية ، وبقيمة الروح العربية الأصيلة ، ومظهره : الانفصال الحاسم عن مفاسد الواقع ومكافحتها في طريق صاعدة شاقة تسير فيها الأمة ببطء وجهد نحو الاتصال بروحها من خلال هذا الصراع الدامى بينها وبين واقعها . لذلك ، لم يبق في مفهوم البعث العربى مجال لأى تدين لا يحمل آثار هذا الإيمان المثالى . والبعث العربى ، الذى هو حركة روحية إيجابية ، لا يمكن أن يفترق عن الدين أو يصطدم معه ، ولكنه يفترق عن الجمود والنفعية والنفاق . . فصفة الإيمان ، المميزة للبعث العربى ، هى التى فرضت عليه الاصطدام بجميع الحركات التى

(٧) [في سبيل البعث] - طبعة دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٤م - ص ٣١١ - « معالم الاشتراكية العربية » . .

تنكر الإيمان ، أو تستر بإيمان سطحي زائف . . كما أنه لم يكن بد من التعرض للتدين الرائج ، الذى تتمثل فيه أيضا هذه الشوائب . . ذلك الذى فقد كل صلة بالروح والخوافز التى كانت المصدر للتدين بالماضى ، والتى جعلت منه حركة إحياء وتجديد وبناء ، فالإيمان إلى حالة من الجمود والمحافظة والجهل فسحت أرحب المجال للرياء والاستغلال ! . . (٨) .

وفى سنة ١٩٥٦م يكتب عن الدين ، كضرورة خالدة فى الحياة الإنسانية ، ألا وأبدا . . وعن ضرورة الصدام مع التدين الرائج ، لإخراج الدين من الحال التى وظفته لمقاصد منافية لمقاصده وغاياته . . فىقول :

«إن الدين تعبير صادق عن إنسانية الإنسان . . وهو - كما يظهر لنا من استعراض تاريخ البشر، منذ أقدم العصور إلى اليوم - شىء أساسى فى حياة البشر . . إنه يمكن أن يتطور ويتبدل فى أشكاله ، وأن يتقدم أو يتأخر، ولكنه لا يمكن أن يزول . . ولكن ، يجب أن نفرق بين الدين فى حقيقته ومرماه ، وبين الدين كما يتجسد أو يظهر فى مفاهيم وتقاليد وعادات ومصالح ، فى ظرف ومكان معينين . . فليس قدرا على الدين أن يبقى متحجرا دوما . الدين قادر على أن يعود إلى حقيقته إذا وجد أفرادا مؤمنين متجردين يعيدون إلى الدين صفاءه الأول . الدين شىء أساسى ، وسيرجع إلى جوهره متغلبا على النقمة . . ونحن رغم معرفتنا الطريقة الرجعية التى استخدم الدين بها ليكون داعما للظلم والتأخر والعبودية ، نشق ، رغم ذلك ، بأن الإنسان يستطيع أن يثور على هذه الكيفية فى استخدام الدين ، وعلى هذا النوع من التدين الكاذب والمشوه ، وأن يعطى فى نفس الوقت للدين الحقيقى الصادق حقه . . كثيرا

(٨) [فى سبيل البعث] : ج ١ ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ - « العرب بين ماضيهم ومستقبلهم » - وانظر كذلك : ص ١٦١ .

ما قبل لنا ، خلال السنوات التي مر بها الحزب في نضاله ، من جماعات رجعية ، متأخرة في عقليتها ، استغلالية في سلوكها ، تمثل المصالح والعقلية والأوضاع التي يتوجب علينا القضاء عليها ، كثيرا ما قبل لنا : مادامت نظرتكم إيجابية ومادمت تعرفون قيمة الدين ، فما الفرق بيننا وبينكم ؟ . . .

الفرق كبير جدا ، هو الفرق بين النقيضين . نحن نعتبر أن الرجعية الدينية تؤلف مع الرجعية الاجتماعية معسكرا واحدا يدافع عن مصالح واحدة ، وأنها أكبر خطر يهدد الدين . . . ولذلك . . . فالمناضل البعثي يجب أن تتوفر فيه شروط صعبة جدا ، وتكاد تكون متناقضة . فهو حرب على كل تدجيل باسم الدين والتستر وراءه لمنع التطور والتحرر ، والإبقاء على الأوضاع الفاسدة والتأخر الاجتماعي ، ولكنه في الوقت نفسه يعرف حقيقة الدين وحقيقة النفس الإنسانية ، التي هي إيجابية ، قائمة على الإيمان ، لا تطبق الإنكار والحدود . . . إذن ، على المناضل البعثي ، عندما يحارب الرجعية ويصمد أمام هجماتها وافتراءاتها وتهيجاتها وإثارتها ، أن يتذكر دوما أنه مؤمن بالقيم الإيجابية والقيم الروحية ، وأنه إنما يحارب تزيف القيم من قبل الرجعية ، ولا يحارب القيم نفسها . وأنه عندما يساير جمهور الشعب ، ويتصرف تصرفا حكيما معه ، دون أن يجرح عواطفه ، لكي ينقله تدريجيا إلى مستوى الوعي السلازم ، عليه أن يتذكر أنه رجل ثائر متحرر لا يقبل لنفسه ولا لأمة مستوى رجعي رخيصا من الاعتقاد ، ولا صورة مشوهة للعقيدة الروحية ، وأن مساهمته للشعب ليست إلا وسيلة مؤقتة لكي يهيئه لأن يفهم الأمور الصعبة . . .» (٩) !!

(٩) [في سبيل البعث] : طبعة دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٤م - ص ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢١٢-٢١٧ - «نظرتنا إلى الدين» و«قضية الدين في البعث العربي» - .

ثم يعرض ميشيل عفلق لتجربة الغرب مع الدين الفاسد، الذى وظف الدين لتكريس الفساد والظلم والجمود . . وكيف أدى ذلك إلى الإلحاد الغربى . يعرض لهذه التجربة الغربية، من موقع الناقد الرافض للفعل ولرد الفعل فيها . .

« . . فالدين المسيحى، فى أوروبا، حتى اليوم، بأكثرية ممثليه الرسميين، هو إلى جانب الفساد والظلم، يحميها ويعطيها مبررات البقاء، لذلك فقد نفوذه، وطغت موجة الإلحاد فى الغرب، ليس عبثا، بل لهذا التناقض، لأن الدين، بممثليه، وقع فى التناقض، لأن الدين وجد ليشجع على المحبة والإخاء، ليحمى الضعيف، ولكن أصبح بممثليه سياجا لكل المساوئ . .

والفهم السطحى . هو أن نستنتج بسرعة، بأنه مادام مظهر الدين فى هذا الوقت، ومادام يمثلو الدين الرسميون هم فى صف الواقع الفاسد، وليسوا فى صف الثورة على الفساد، فإذن الدين من أساسه فاسد، ولا وجوب له، ولا خير فيه، لذلك يجب التخلص من الدين، لأنه سلاح بيد الظالمين والمفسدين . هذه هى النظرة السطحية والاستنتاج الخاطئ جدا، وهذه هى النظرة التى توقفت عندها الشيوعية . نحن لا نرضى عن الإلحاد . . ونعتبره موقفا زائفا فى الحياة، موقفا باطلا وضارا وكاذبا، إذ إن الحياة معناها الإيمان، والملحد كاذب ! . إنه يقول شيئا ويعتقد شيئا آخر . . إنه مؤمن بشىء . . مؤمن ببعض القيم . . ولكننا ننظر إلى الإلحاد كظاهرة مرضية يجب أن تعرف أسبابها لتداوى . . وعندما تستيقظ الشعوب، وتسترد حقوقها وكرامتها لا يمكن أن تقنع بالإلحاد، وعندها نخطو الخطوة الجديدة . . وتعود إلى دين واضح سليم منطبق تمام الانطباق على مراميه الأولى . . » (١٠) .

(١٠) المصدر السابق : ص ٢٠٥ ، ٢٠٨ - « نظرنا إلى الدين » .

فحتى في الغرب ، لا بد من العودة إلى حقيقة الدين . . كي نزول مبررات
الإلحاد . .

وفي سنة ١٩٦٤ م . . وإبان بدايات الأزمة التي تعرض لها ميشيل عفلق في
العمل الحزبي الداخلى . . أشار إلى أثر الإيمان الدينى - إيمانه هو - في مواجهة
الصعاب ، وفي التغلب على النواقص ونقاط الضعف الذاتية ، فكتب يقول :

« إن لدى نواقص كثيرة ، ومواطن ضعف ، ولولا إيماني بالله . . إني أومن
به ، وذكرت ذلك في كتاباتي !! - الإيمان بالله . . بالأمة العربية . . بالشباب
العربي . . الذى أعطاني الثقة ، وأكثر مما أستحق . . تغلبت ، ولم أياس ،
بل تابعت الطريق . . » (١١) .

وفي سنة ١٩٧٦ م ، يتحدث - في مدرسة الإعداد الحزبي ، بالعراق - عن
مميزات حركة البعث ومشروعه الفكرى . . وعن الخصوصية التى لم تجعل هذه
الحركة جزءا من الحركة الشيوعية العربية ، فيؤكد على أن الموقف الإيجابى من
الدين ، مطلق الدين ، والإيمان بمكانة الإسلام الأساسية في تكوين القومية
العربية ، هما جماع الخصوصية التى ميزت طريق البعث عن طريق
الشيوعيين . . يؤكد على ذلك فيقول :

«إن حركتنا تعتر، في جملة ما تعتر به من مميزات تجلت فيها خصوصية الثورة
العربية، بل خصوصية الأمة العربية، تعتر حركتنا بموقفها الإيجابى من
الدين . وقد أعلنت ذلك بكل ثقة وقناعة يوم كانت الحركة الشيوعية والنظرية
الماركسية ، قبل ثلاثين عاما أو أكثر ، عند بداية الحزب ، تخلق نوعا من
الإرهاب الفكرى على الأجيال العربية . وكلكم تعرفون بأن الشيوعية والماركسية

(١١) [في سبيل البعث] : ج ٤ ص ٤٢٠ - « البعث : اشتراكية علمية زائد روح » - ٢ فبراير
سنة ١٩٦٤ م . .

أخذت تتراجع عن شعاراتها وادعاءاتها فيما يخص الأديان وأهمية الدين ودوره في المجتمع . ولعلكم تعرفون ما تم ، في هذا المجال ، في أوروبا ، وموقف الأحزاب الشيوعية في بلدان أوروبا الغربية - المعروفة بأنها القسم الراقى من العالم - هذا من ناحية . وبأن نظرتنا كانت نظرة عميقة إلى النفس الإنسانية ، إلى التاريخ البشرى ، ونظرة أصيلة ، إلى تاريخنا نحن ، وإلى تكوين أمتنا . فحركتنا قامت بشيئين ، في هذا المجال : أعطت الدين ، بصورة عامة كدين ، دوره المشروع في حياة البشر وتاريخهم وتطورهم . وأعطت الإسلام ، الدين العربى ، الدين الإنسانى ، أعطته المكانة الأساسية في تكوين قوميتنا ، ليس فقط بالنسبة إلى الماضى ، وإنما بالنسبة إلى كل وقت ، فمادامت الأمة العربية على هذه البسيطة فالإسلام هو التراث الروحى ، وهو المحرك لها ، هو ملهمها ، هو مرجعها الروحى ، وهو الحركة الثورية المثلى في نظر البعث . . (١٢) .

هنا ، وفي هذا النص البالغ الأهمية - والذي تحدث به ميشيل عفلق إلى إطارات حزبية في مدرسة الإعداد الحزبى - وليس إلى أجهزة الإعلام والدعاية - هنا يتجلى مكان الدين الإسلامى في مشروع الرجل النهضوى . . فإذا هو مكان « الأساس في تكوين القومية » ، لا من الناحية التاريخية فيما مضى من قرون ، فقط ، وإنما « بالنسبة إلى كل وقت » . . فالإسلام « هو التراث الروحى للأمة . . وهو المحرك لها ، وهو ملهمها ، وهو مرجعها الروحى . . وهو حركتها الثورية المثلى ! . . » دائما وأبدا « مادامت هذه الأمة على هذه البسيطة » . فالإسلام ، والتدين به ، واستلهامه هو المركز والمحور في أى مشروع للنهضة والثورة والتجديد ! . .

(١٢) المصدر السابق : ج ٣ ص ٢٩ ، ٣٠ - « أصالة الأمة قوة نضالية متجددة » - ٩ - ١ - ١٩٧٦ م .

وعندما يفتش ميشيل عقلق في تراث تجربته الفكرية والحزبية عن شيء
ثمين صالح لترشيد واقع هذه التجربة في حقبة السبعينيات . . . نراه يلقي
الضوء على «الروحانية - الصوفية» التي تميزت بها تجربة البدايات ! . . . يستلفت
إليها الأنظار ، وكأن لسان حاله يقول : إن الحال قد غاير الآمال ! . . . يقول :

«إننا إذا بحثنا عن شيء في ماضى حزبنا يساعدنا على متابعة النضال ،
وينفعنا في حاضرنا ، لوجدنا في ماضى الحزب روحا نضالية أكاد أصفها بأنها
في بعض الأحيان كانت صوفية ، نظرة إلى النضال ، وإلى الأهداف المقدسة ،
فيها كل الإيمان وكل التواضع وكل الزهد ، وفيها الذوبان في القضية ، ذوبان
الأنانية ، ونحن بحاجة إلى أن نتذكر هذه الروح ، وأن نبعثها باستمرار وأن
نحييها . . . فعندما يكون الطموح بعثا حضاريا للأمة العربية في هذا العصر ،
تعطى فيه أمتنا مساهمة جديدة متميزة للحضارة العالمية ، عندها لاغنى عن
الرجوع أيضا إلى تلك الروح الأولى التي ألهمت الأجيال البعثية الأولى الروح
الصوفية ، وفي الوقت نفسه الروح الواقعية العلمية - ولا أحد يستطيع أن ينكر
علينا واقعيتنا وعلميتنا - نعود إلى تلك الروح نحييها ونجددها ، لأننا بدونها
لا نستطيع أن نفى بشروط هذا الطموح الكبير . . . » (١٣).

ثم يعود الرجل ، في مناسبات عدة ، ليؤكد على ذات المعنى : أهمية
الروحانية للنضال ، إذا كان الهدف من ورائه بعث أمة لها تراث روحى هو
الإسلام . . . ففى حديثه إلى مسئولى المنظمات الحزبية ، خارج الوطن العربى ،
يقول لهم : « . . . أحسن ما أستطيع تقديمه لكم ، هو تذكيركم بهذه الروح التى

(١٣) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ٥٦ ، ٥٨ - « وحدة التجربة النضالية للحزب فى الزمان
والمكان » - ١٥ - ٣ - سنة ١٩٧٦ م .

ولد منها البعث ، أن أذكركم بقوة الروح بصورة عامة ، ليس فقط بالنسبة إلى البعث ، ولكن في كل الحالات ، وفي كل الأزمان ، وعند كل الأقوام ، والروح هى الأقوى دوماً . قوة الروح ، قوة الإيمان ، قوة التصميم ، هذا هو المنشأ . الروح تخلق المادة ، لا العكس . والمادة تابعة من الروح وتابعة لها !!! » (١٤) .

هنا ، مرة أخرى ، يؤكد الرجل تميز موقفه الفكرى واختلاف خياره الفلسفى عن الموقف والخيار ، المادى . . فهو متدين . . وتدينه يجعله ذا نزعة روحية . . والروح عنده ، هى التى تخلق المادة ، على عكس ما يحسب الماديون ! . .

بل لقد رأى ، ككل المؤمنين ، الذين يؤمنون أن إنسانية الإنسان إنما تتحقق بقيام التوازن فى ذاته ومحيطه بين المادة والروح . . فبسط الحديث حول هذه الفكرة ، فقال : إن الإنسان بصورة عامة ، فى كل مكان وزمان ، هو مادة وروح ، لا يكفيه ولا يغنيه أن يأكل ويشبع . ولكن إنسانية الإنسان الحقة إنما تبدأ بعد الشبع ، بعد الأكل ، عندما يحقق مساوئيه وقدراته ، عندما ينظر إلى مهماته الاجتماعية والقومية التى تعطى معنى لحياته ، إنسانية الإنسان تبدأ عندما ينصرف إلى العمل والخلق والإبداع والنضال وإلى كل شىء يتجاوز شخصه ويتجاوز أنانيته الضيقة ، لأنه عندئذ يشعر بملاء إنسانيته ، وبأنه ليس خلية عمياء فى جسم أو آلة ، وإنما هو فرد حر وجد لغاية سامية فى هذه الحياة ، وأنه مطالب بأن يعطى لحياته معنى سامياً . . » (١٥) .

(١٤) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ - « الموقف المسئول أمام التاريخ » - ٣ - ٨ -

١٩٨٠ م - وج ٣ ، ص ١٢١ - « البعث وتحديات المستقبل » - ٧ - ٤ - ١٩٨٠ م .

(١٥) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ٧٥ - « بناء المناضل » - ١١ - ٥ - ١٩٧٧ م .

إنها «روحانية - واقعية» - كما يسميها - . . «روحانية - اجتماعية» . .
تتحقق بعد إشباع الإنسان لاحتياجاته ، لابتجاهل هذه الاحتياجات . .
وتزدهر عندما يتجاوز الإنسان ذاته ، لابقهر هذه الذات . . إنها «روحانية -
المناضل» في سبيل بعث الأمة ، لا روحانية الذى يدير ظهره لحياة النضال ! . .
ولذلك ، احتاج ميشيل عفلق إلى إيضاح المعنى المتميز الذى يعنيه عندما
يتحدث عن «الروح» . . فميز مراده عن المعنى الشائع والرائج لهذا المصطلح ،
وقال :

«ليس لهذه الكلمة في استعمالنا وفي قصدنا أى معنى غيبى أو ما وراءى .
هى تعبير عن نزوع الإنسان ونزوع الجماعة - سواء أكانت حركة نضالية أم أمة
بكاملها - إلى تحقيق المثل وإلى الانسجام في الحياة مع المثل الأخلاقية الرفيعة .
هذا هو المقصود . .» (١٦) .

فعند الرجل . . «يجب أن تتحد الصلاة مع العقل النير مع الساعد المفتول
لتؤدى كلها إلى العمل القوى المبدع . .» (١٧) ! . . إنها روحانية - كما أشرنا -
تهتم باستدعاء «مُثل» الإسلام الحضارى ، أكثر من اهتمامها بالجانب الغيبى -
الدينى الخالص - من الروحانيات . . تلك هى حدود الرجل ، والآفاق التى
رآها ضرورة للمشروع الحضارى من الروحانيات .



ولذلك . . كان علينا أن ننبه - عند هذا المقام من الحديث عن مقام التدين
والروحانية في المشروع الفكرى لميشيل عفلق - أن ننبه على حقيقتين هامتين :

(١٦) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ٢٩ - «أصالة الأمة قوة نضالية متجددة» - ١٩ - ١ -
١٩٧٦ م -

(١٧) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٣٢٤ - «مزاياء التجربة الثورية في العراق» - ٦ - ٤ -
١٩٨٦ م .

الحقيقة الأولى : أن تدين الرجل ، وتدين مشروعه الفكرى . . إنما ينفى
عنهما المادية . . لكنه لا يثبت لهما التماثل والتطابق مع نهج السدعاة والمصلحين
الإسلاميين والمشروعات النهضوية الإسلامية ، التى انطلقت من الالتزام
بالإسلام الكامل : عقيدة وشريعة وحضارة ومنهاجا متكاملًا فى الحياة . .
ففارق ... حضارى ونضالى - وليس عقديا - بين «المسلم» المتدين بالإسلام ،
وبين «الإسلامى» ، الملتزم بكامل الإسلام فى شموله ، والمجاهد فى سبيل نهضة
ملتزمة بكامل الإسلام . .

ولقد كان عفلق واعيا بهذا الفارق بين مشروعه وحزبه وبين المشروعات
والجماعات الإسلامية ، والتى كان يطلق عليها « الفكر والحركات الدينية » أو
« النظريات والأيدولوجيات الدينية » . . وكان واعيا ، كذلك ، بما بينه هو
وحزبه وبين هذه الدعوات والحركات من أسباب المنافسة . . بل والصراع . .

فهو يكتب - فى سنة ١٩٥٠ م - يقول : « . . هناك عرب آخرون يعترفون
بالصفة العربية لهم ، ولكنهم يعملون ويفكرون بوحى أفكار دينية أو طائفية .
وهم كذلك يتعامسون عن هذا التناقض وهذا الاختلاف البين بين الفكرة
العربية ، التى هى قومية فى أساسها وجوهرها ، وبين الفكر والحركات الدينية
والطائفية . . (١٨) .

وفى مناسبة أخرى . . وتاريخ آخر - سنة ١٩٧٦ م - يكرر ذات المعنى ،
فيقول : «أما النظريات والأيدولوجيات الدينية ، فرأينا ، أو رأى الحزب فيها
بأنها لا تؤدى الغرض القومى ، ولا توصل إلى نتيجة إيجابية . تصورنا تصور كلى
للحياة القومية . الحياة القومية ، فى نظرنا ، تشمل كل شىء والعقيدة الدينية

(١٨) المصدر السابق ؛ ج - ٤ ، ص ٥٣ - «البعثى هو العربى الجديد» سنة ١٩٥٠ م . .

داخلة في تكوينها دخولا عضويا . . فنحن فهمنا التراث كحركة ثورية ، وأعلى حركة ثورية يمكن أن توجد ، وهذا يعزز ثقتنا بأمتنا ، إذ منها ظهرت هذه الحركة ، وعلى أرضها نشأت ، ومن عبقريتها وعبقرية أبطالها وأخلافهم تكونت ، فهذا إذن داخل في تصورنا الثوري الأساسى . . » (١٩) .

هنا ، يتحدث ميشيل عفلق عن « التناقض والاختلاف البين بين الفكرة العربية ، التى هى قومية فى أساسها وجوهرها ، وبين الفكر والحركات الدينية » . .

وهنا ، نود أن نقول إن تطورا وتغيرا قد لحقا بفكر ميشيل عفلق فى قضية العلاقة بين « القومية العربية » وبين « الإسلام » . . وهذا التطور والتغير سيأتى الحديث عنها فى الفصل الأخير من هذا الكتاب .

لكن . . يبقى التنبيه والتأكيد على أن مشروع ميشيل عفلق ، حتى بعد تطور فكره عن علاقة « القومية » بـ « الإسلام » لم يكن مشروعا إسلاميا ، مماثلا للمشروعات التى تطرحها الدعوات الإسلامية لإنهاض الأمة بالإسلام . . وإن اقتربا مقاربا ملحوظا من طبيعة وحقيقة وجوهر هذه المشروعات . .

والحقيقة الثانية : هى أن ميشيل عفلق كثيرا ما كان يعبر عن إحساسه بقيام اختلاف كبير ، وربما تناقض أحيانا ، بين رؤيته هو لمكانة الإسلام فى مشروعه النهضوى ، وبين مكانة الإسلام فى واقع الممارسات الحزبية للحزب الذى يقوده . . . حتى لتبدو أفكاره عن دور الإسلام ومكانته فى المشروع البعثى غريبة فى نظر الكثيرين من البعثيين ! ! ! .

(١٩) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٣٠ - « أصالة الأمة قسوة نضالية متجددة » - ١٩-١ - ١٩٧٦م -

لكنه لم ييأس من دعوة الحزب وقياداته إلى الالتفات إلى هذه القضية ،
والاهتمام بإحلال الإسلام مكانه الطبيعي في الفكر والممارسات . . ففى سنة
١٩٦٣م ، يكتب فيقول :

«ثورة البحث أرادت منذ البدء أن تأتى بعنصر روحى ، إلى أى حد توفقت ؟
هذا شيء آخر ! . وأقول إن هناك تقصيرا ، وكلنا مسئولون ، ولكن هل هذا
يكفى لكى نياأس من ذلك الطموح الذى غذى نضالنا منذ البدء ؟ هل يجوز لنا
أن نتخلى عن ذلك المطمح الأول ؟ . . .» (٢٠) .

وفى سنة ١٩٦٤م ، ينبه على ذات الأمر ، فيقول : «رغم مرور عشرين سنة
على نضالنا ، مازلنا بحاجة ماسة حيوية إلى النظرة الأولى التى رافقت نشوء هذا
الحزب . . إلى نظرة الزهد ، والصبر ، والارتفاع فوق الأنانية ، وإلى الإيمان بكل
معانيه ، فالإيمان لايتعارض مع التفكير العلمى ، والنظرة العلمية إنما يعطيها
الإيمان الروح والغذاء ، ويعطيها الصبر والنفس الطويل ، ويقيها من اليأس
والتخاذل والنفعية والانتهازية . . الإيمان بالمثل . . الإيمان بالحقيقة . . الإيمان
برسالة الأمة العربية . . الإيمان بالله . . .» (٢١) .

وفى سنة ١٩٧٦م ، يعترف بأن ثمرات قراءته للإسلام « بعضها واضح ،
وبعضها واقع بين الوضوح والإبهام . . » (٢٢) .

(٢٠) المصدر السابق : ج ٤ ، ص ٣٨١ - « لقد نفذ حزبنا إلى ضمير الشعب » - أكتوبر
سنة ١٩٦٣م . -

(٢١) المصدر السابق : ج ٤ ، ص ٧١ - « نجاحنا يكمن فى صدقنا ومصارحتنا للشعب » -
٧ من إبريل سنة ١٩٦٤م . -

(٢٢) [آفاق عربية] : ص ٦ . عدد إبريل سنة ١٩٧٦م . -

وفي سنة ١٩٧٧ م ، يعترف بأن هذه القضية « لم تعط حتى الآن الاهتمام الذي تستحقه ، بل بقيت مجهولة من الكثيرين ، ولم يستخرج منها كل العبر الكامنة فيها ، كالموقف من التراث والإسلام . . » (٢٣) .

وفي سنة ١٩٨٠ م ، يعترف بأن « الظروف السياسية ، وظروف المجتمع ، وصعوبة العمل الثوري في مجتمعنا ، هذه الأمور أخرت ظهور هذه الأفكار ، وإعطاءها الاهتمام المطلوب ! . . » (٢٤) .

فإذا كان الإيمان الديني ، والتدين بالإسلام الدين . . وإذا كانت النزعة الروحية قد مثلت واحدة من السمات الثابتة في المشروع الفكري للأستاذ ميشيل عفلق . . فإن واحدة من السمات الثابتة في فكر الرجل كانت التنبيه ، دائما وكثيرا ، على أن هذه السمة لم تجد طريقها الفسيح ، ولماكانها اللائق ، ولم تتخذ حجمها الطبيعي في الممارسات العملية للحزب الذي تبنى هذا المشروع ! .

(٢٣) [في سبيل البحث] : جـ ٣ ، ص ١٢١ - « البحث وتحديات المستقبل » - ٧ من إبريل سنة ١٩٧٧ م .

(٢٤) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٩٠ - « حوار حول الدين والتراث » - ٢٧ - ٤ - ١٩٨٠ م .

التراث .. والتقدم : ماذا يعنينا في المشروع البحثي؟

في كتابات الأستاذ ميشيل عفلق ، تتردد كثيرا كلمة «التراث» . . تراث الأمة . . التراث القومي . . التراث العربي . . التراث الروحي . .

وعندما يُذكر « التراث » ، فإنه يُذكر باعتباره مرجعا من المراجع التي حددت للأمة العربية خصوصيتها بين الأمم الأخرى ، في خلود قوميتها ، وفي إنسانية هذه القومية ، وفي كونها أمة ذات رسالة خالدة ، تستجيب دائما وأبدا الاستجابة الإيجابية ، للتغلب على التحديات ، وتنهض بأداء رسالتها ، لا في محيطها وإنما إلى العالمين . .

وإذا نحن تتبعنا المواطن والمعاني التي جاء فيها حديث الرجل عن «التراث» ، فإننا نستطيع أن نبين عددا من الحقائق الفكرية . . منها :

(أ) فهم متميز لدور التراث في المشروع النهضوي العربي . . ومعنى متميز لعلاقة التراث بالحاضر والمستقبل . . ولكيفية تعامل الجيل الحاضر ، جيل الثورة والبعث ، مع التراث . .

(ب) فهم متميز لمعنى « التقدم » و« التقدمية » - في علاقتهما « بالتراث » و« الماضي » - . . يجعل لهذه المصطلحات مضامين ووظائف في محيط المشروع

الحضارى العربى مختلفة ومخالفة لمضامينها فى المشروع الحضارى الغربى . .

(ج) الإفصاح ، منذ حقبة السبعينيات - عندما وضحت مكانة الإسلام فى مشروعه الفكرى ، وأخذ يكثّر من الإعلان عنه - الإفصاح منذ هذه الحقبة - وبالتحديد منذ سنة ١٩٧٧م - عن أن مراده بـ « التراث » - الذى له هذه المرجعية فى مشروعه الحضارى - هو « الإسلام » ! . .

تلك بعض من الحقائق التى يلمسها المتأمل لكتابات ميشيل عفلق عن « التراث » . . أثّرنا الإشارة إليها قبل تفصيل الحديث فى هذا الموضوع .



منذ مرحلة مبكرة فى الحياة الفكرية لميشيل عفلق ، تحدث باستفاضة ، وتحديد ، عن مفهومه « للتقدم والتقدمية » ، فأعطى هذه المصطلحات ، التى أشاع الماركسيون استخدامها - أكثر من غيرهم - فى الحياة الفكرية والسياسية ، أعطاها معانى ومضامين جديدة ، مغايرة لمعانيها الماركسية ، بل ولمعانيها الغربية بوجه عام . .

فالتقدم والتقدمية والحداثة ، كانت تعنى - لدى الماركسيين وعموم المتغربين - النقيض لاستلهاام الماضى والتراث - الذى رأوه رجعية وتخلفا ! .

لكن ميشيل عفلق أخذ يلح فى كتاباته على معنى جديد للتقدم والتقدمية ، يعنى التجديد للماضى والإحياء للتراث ، وتجاوز آثار وأمراض حقبة التراجع والجمود والانحطاط فى مسيرتنا الحضارية ، لتحقيق التواصل الحضارى بين النهضة المنشودة وبين العصر الذى مثل نهضة وازدهار التراث . . فالتقدمية هى التجديد والإحياء للتراث ، لامن خلال « قراءته » و« تكراره » و« تقليده » ، وإنما من خلال « إحيائه » ، أى إحياء روحه فى مشروعتنا الحضارى المعاصر . . فنحن ،

بمعاناة الواقع الحاضر - « المعاصرة » - نكتشف هويتنا التراثية ، ونتقدم لاستعادة قيمنا الأصيلة ، التى تجعل « معاصرنا » - فى كل مناحى مشروع النهضة الحديث - متميزة عن « معاصرة » أية أمة أخرى لا تدين بالولاء والانتماء لهذا التراث الذى تمنحه أمتنا هذا الولاء وهذا الانتماء . . .

فليست « التقديمية » « الحداثة » انقطاعا عن التراث ، كما أرادها المتغربون ، يؤدى شئنا أو لم نشأ - إلى استبدال « الوافد الغربى » - بـ « الموروث العربى » . . . وإنما هى إحياء وتجديد للتراث ، وتقدم لامتلاكه ، من خلال معاناة قضايها ومشكلات الواقع الذى نعيش فيه . . .

يعرض ميشيل عفلق لهذه القضية ، ويقدم لها هذا الفهم ، عندما يكتب - فى سنة ١٩٥٠ م - تحت عنوان : « التقديمية : سبيل اتصالنا بماضينا » ، فيقول : « . . . النظرية التقديمية هى حب وإيمان ، وبناء وإبداع ، وجهد ومسئولية ، لتخالف ، بل تناقض كل مايرمى تحت ستار هذا اللفظ إلى التحلل والانحلال والهدم . . . والتقدمية ، بمعناها الصحيح ، ليست إلا استئنافا لسير الأمة فى تاريخها الحى الصاعد قبل أن يتأبها الجمود والانحطاط . وما التحرر الذى نطلبه إلا تحرر من أثقال القيود والرواسب التى تراكمت على صدر الأمة خلال تلك الفترة الطويلة ، التى توقفت فيها عن السير وعن الاتصال بمعين روحها الأصيل وعند ذلك ترجع الصلة الضائعة ، ويتبين لنا أن التقدم ، الذى كان فى ظاهره تحررا من القديم وابتعادا عنه ، لم يكن فى الواقع إلا سلوك الطريق الطبيعى الوحيد لعودتنا إلى ماضينا وذواتنا . . . وكل ذلك يظهر واضحا ومعقولا إذا نحن فهمنا من الماضى أنه كان قوة روحية فحسب ، وأن عودة اتصالنا بماضينا لايجوز أن تعنى إلا بلوغنا ذلك المستوى الروحى الذى هو وحده كفىل بأن يبنى لنا الحياة القومية المبدعة الراقية والمجتمع السليم

الأوضاع ، القويم الأخلاق ، وبأن يلهمنا استنباط الوسائل والأشكال الملائمة لعصرنا وشرائط مجتمعا . . » (١) .

فالتقدم والتقدمية ليست التحرر من القديم والابتعاد عنه . . ولا هي استبدال التحلل والانحلال والهدم بقيمنا الموروثة . . وإنما هي العودة إلى ماضينا وذواتنا ، لتحقيق الاتصال بمعين روحها الأصيل ، استثنافاً لسير الأمة ومسيرتها الحضارية ، قبل أن ينتابها الجمود والانحطاط . إنها الإحياء والتجديد والبعث . . وليست حادثة الانقطاع الحضارى . . الذى هو مقدمة للإحقاق الحضارى بالغرب - كما أرادها المتغربون ! . .

وهذا التراث الذى أساء المتغربون الظن به ، فحسبوه أكفان موتى ، وآثارا عفا عليها الدهر ، وانقطع صلاحها ، وغربت شمس صلاحياتها للحاضر والمستقبل ، بتعميم وإطلاق ، يراه ميشيل عفلق فى صورة مختلفة . . « فنحن نستند إلى تراث قومى أصيل ، تجلى فى نهضتنا الأولى فى القديم ، وبالرغم من كل ما طرأ عليه من جمود وتشويه ونسيان ، فلقد بقيت فيه عناصر حية تسرى فى حيساتنا سريان الماء تحت الأرض ، وتحيا فى تقاليدنا الشعبية وقيمنا الأخلاقية . . » (٢) !

وإذا كان البعض قد فهم « الثورة » و« الثورية » على أنها الانقلاب الشامل على الواقع والماضى ، على النحو الذى يقتلع الجذور . . كل الجذور ! . . فإن ميشيل عفلق يرفض هذا المفهوم للعمل الثورى . . ويقول : « إن العمل الثورى

(١) [فى سبيل البعث] : جـ ٣ ، ص ١٥ ، ١٦ - « التقدمية سبيل اتصالنا بـماضيها » - ١٥ - ٢ - ١٩٥٠ م .

(٢) المصدر السابق : جـ ٥ ، ص ٢٣ - « إنسانية نضال الأمة العربية » - يوليو ، سنة ١٩٥٨ م .

هو اختصار الزمن دون قلع الجذور. «^(٣). فهو إحياء، يختصر الزمن الضائع في الجمود والموات، وتجديد، لا يقتلع الجذور، المحققة لهوية الأمة ولتواصلها الحضارى.



ومن الأفكار الأصيلة والواضحة لدى ميشيل عفلق، في كل ماكتبه عن تراث هذه الأمة، فكرة: مستقبلية هذا التراث. . بمعنى: ديمومة فعله وتأثيره، في حاضر الأمة ومستقبلها المنشود، على النحو الذى كان فيه فاعلا ومؤثرا في عصر نهضتها الأولى إبان ظهور الإسلام. . فتراثنا العربى الإسلامى. . تراث هذا الشعب العربى المسلم له المرجعية في المشروع الحضارى المعاصر. . والمستقبل. . كما كانت له المرجعية في عصور الازدهار التى سبقت حقبة التراجع والجمود والانحطاط. . يلح الرجل على هذه الأفكار الجوهرية، التى تنقض وترفض مفهوم «تاريخية التراث»، تلك التى يبشر بها أنصار التغريب والحدائثة الغربية. . فيكتب قائلا:

« . . لأقلها ببساطة: نحن شعب عربى مسلم، تراثنا ليس للماضى فقط، وإنما نور وضوء على المستقبل، ومنه نستمد المثل والمبادئ الإنسانية والأخلاقية، منه نستمد الروح والنظرة إلى الإنسان بوجه عام. . »^(٤).

وفي مناسبة ثانية، يؤكد على هذه الفكرة، مع الإشارة إلى مذهبه في أن مستقبلية التراث تجعل من تعاملنا معه تقدما إليه، من خلال معاصرنا، وليس رجوعا إليه عن المعاصرة والمستقبلية. . فيقول:

(٣) المصدر السابق: جـ ٥، ص ٥٠ - «حزب الثورة العربية» - مايو، سنة ١٩٧٠ م - .
(٤) المصدر السابق: جـ ٥، ص ١٣٣ - «الجهة الوطنية والقومية التقدمية تتصل بأعمق مبادئ حزبنا الثورى» - ٢٣ - ١٠ - ١٩٧٤ م .

«إن التراث . . ليس ، في حركتنا الثورية، شيئاً من الماضي ، وليس شيئاً للتسجيل في الذاكرة ، وإنما حياة نابضة، هو الأصالة ، والقدرة على الإبداع ، القدرة المتجددة في أمتنا ، والتي تهتز في كل مرحلة ومنعطف تاريخي حاسم . . لتعود الأمة العربية إلى مكان القيادة في مسيرة البشرية . في تصورنا : لانرجع إلى التراث رجوعاً ، وإنما نبلغ حقيقة التراث ، حقيقة الأصالة بلوغاً ، ونقدم نحوه ومرتقى إليه ارتقاء يأتى بعد النضال وبعد الجهد الصادق وبعد التضحية نكتشف حقيقة تراثنا ونبلع مستواه . .»^(٥)!

وبسبب من هذا المنهج المتميز في التعامل مع التراث . . المنهج الذى يجعل التقدم إليه عملاً مستقبلياً ، حرص ميشيل عفلق على تمييز هذا المنهج عن تلك المناهج التى وقفت في التعامل مع التراث عند حدود « التكرار . . والتقليد » . فأصحاب هذه المناهج يرجعون ليعيشوا في الماضي ، حالمين - ربما بإعادة عصرهم أيضاً إلى هذا الماضي . . وليس هكذا المنهج الذى يركيه عفلق في التعامل مع التراث :

« . . إننا لم نلجأ إلى التراث كما كان يفعل التقليديون ، من أجل التكرار والتقليد ، تكرار القول ، والتقليد غير المثمر وغير المنتج . ونظرنا إلى التراث عبر نظرتنا إلى العصر ، وحضارته ، إلى العصر ومشاكله ، إلى العصر ومقومات قوته ، وعبر نظرتنا إلى واقعنا المتخلف ، فكانت نظرة جديدة ، أى أننا لم نطلب من التراث أن يكون بديلاً عن الجهد الذى يطلب منا أن نقدمه ، وإنما نحن عشنا الثورة المعاصرة بكل متطلباتها ، ومن خلالها وجدنا أن تراثنا يعطينا أصالة لايمكن لأى ثورة وأية نظرية فلسفية معاصرة أن تهينا إياها . هذا الفهم للتراث

(٥) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ١٨ - «البعث هو الصورة الحية للأمة» - ١٢ - ٢ -
١٩٧٥ م .

هو الذى جعل الحزب يستمد منه قوة روحية وأخلاقية لا تستند إليها بقية الحركات . هذه الميزة لحزبنا ، نحن أحوج مانكون إليها فى هذا الحاضر الذى نعيشه ، فى تطلعنا إلى المستقبل ، لأننا ، فى الواقع ، نحن وأمتنا ، مطالبون بأن نقدم إلى الإنسانية رسالة فى تجديد القيم ، فى تجديد الأخلاق . . هذا الجو الذى استلهمنا منذ بداية حزبنا ، من تراثنا العربى الروحى ، التراث الخالد المبدع باستمرار ، المتجدد فى كل عصر ، الملهم ، هذا الجو يجب أن نعيده . إنه دوماً موجود . . هو وراء صمود هذا الحزب . ولكن لنجعل وجوده واضحاً وبارزاً وملموساً ، ولنجعله الملهم والمقيم لأعمالنا ولنضالنا . . » (٦) .

فالتراث ليس بسديلاً عن الإبداع ، بل إن التقدم إليه هو ثمرة من ثمرات الإبداع العصرى ، كما أن التعامل معه ، بهذا المنهج ، هو حافز من حوافز الإبداع والخلق والإضافة التى تمثل استمراراً له وتواصلاً معه . . فالمطلوب هو : « التجدد ، لأن التجدد هو إرادة الحياة . . وإرادة البقاء والارتقاء ! . . » .

ونحن نلمح ، هنا ، كما فى مواطن كثيرة ، تنبيه ميشيل عفلق على ضرورة الاتساق بين « الموقف الفكرى » وبين « الواقع الحزبى » . . فيلح على ضرورة إعادة الجو المستلهم للتراث كى يكون واضحاً وبارزاً وملموساً وفاعلاً فى حياة الحزب ، وكى يكون الملهم ومعيار التقييم للأعمال والممارسات !! (٧) . . إنه ينبه الحزب على أن خصوصيته التى ميزته عن الحركات القومية والاشتراكية الأخرى قد جاءت من تجاوز « معاناة الواقع » و« العودة إلى التراث » فى

(٦) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٢٦ ، ٢٧ - « أصالة الأمة قوة نضالية متميزة » - ١٩ - ١ - ١٩٧٦ م .

(٧) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ١١٧ - « التراث عزز صمود الأمة وأعطى للشورة العربية مستواها العالمى » - ٧ - ٤ - ١٩٧٦ م . .

المنطلقات التي ميزت مشروعه النهضوى . . ومن ثم فإن غيبة جو القيم التراثية عن واقعته العملى سيفقده الخصوصية التي ميزته عن الحركات القومية والاشتراكية الأخرى . . . » . فلقد ولد الحزب فكرا وممارسة نضالية في آن معا . ولد من معاناة التخلّف في الواقع العربى ، ومفارقة هذا الواقع مع حضارة العصر ، ومن العودة إلى التراث ، فقرأناه قراءة جديدة لنتهدى إلى أصالتنا وروح شخصيتنا القومية ، وكان مدخلنا إلى قلوب الجماهير ، لأنها اطمأنت إلى أن الحزب هو من نتاج أرضها وجوها وتاريخها . . » (٨) .



ثم يطرق ميشيل عفلق ، في حديثه عن التراث ، باب فكرة جوهرية من أفكاره في هذا الميدان . . فكرة تميز مشروع البعث للأمة ، عن مشروعات الأمم الأخرى ، بسبب تميز تراثها عن موارث الأمم الأخرى . . فتراثنا «رسالة عظمى» ، وليس مجرد إبداع بشرى لأسلاف عظام . . وبدونه لاسبيل لتحريك هذه الأمة على درب النهضة والتقدم ، لأن تاريخ هذه الأمة مع التحديات شاهد على أنها لا تتحرك لما هو دون «الرسالة العظمى» !! . . «إن الأمة العربية لا يمكن أن تنشئ مستقبلا جديرا بها ، مستقبلا في مستوى عظمتها ، إذا لم ترجع إلى تراثها ، وإذا لم تكتشف ، عن طريق النضال والثورة ، الجديد والخالد في هذا التراث . تراثنا ليس شيئا ماضى وانقضى ، وليس شيئا للتاريخ وللمتحف . . تراثنا هو سجل عبقرية هذه الأمة . . والثورة العربية التي لا تستلهم هذا التراث . . مقضى عليها بالفشل . . شعبنا العربى لا يتحرك ولا يؤيد ولا يندفع في النضال والتضحية إلا وراء حركة فيها نفحة

(٨) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ١١٠ - «التراث عزز صمود الأمة وأعطى للثورة العربية مستواها العالمى» - ٧ - ٤ - ١٩٧٦ م . .

الرسالة ، وتكون ميزتها الأولى الأخلاقية . . ! إن هذه الأمة امتزجت شخصيتها . . وكل ذرة من ذرات كيائها النفسى بهذا التراث ، الذى هو رسالة عظمى ، فلم تعد تقبل ما هو دون هذا المستوى . فالثورة العربية إذا لم تستلهم التراث وتستلهم روح الرسالة ومستوى الرسالة فهى فاشلة ! . . » (٩) .

ومنذ تلك الحقبة - حقبة السبعينيات - لم يدغ ميشيل عفلق مجالاً للخلاف حول مراده الذى يعنيه من وراء مصطلح « التراث العربى » ، و« التراث القومى » ، و« التراث الروحى » . . فلقد أفصح عن أن مراده هو « التراث . . الذى هو رسالة عظمى » . . ثم بلغ قمة الحسم والوضوح ، عندما أعلن : أن « التراث القومى هو الإسلام » (١٠) . . وأن اكتشافه لخصوصية هذا التراث ، ولخصوصية العلاقة بين الأمة العربية وبينه قد مثلت فى حياته ، وحياة مشروعه الفكرى لحظة الاختيار التاريخية التى جعلت خياره واختياره هو طريق البعث والإحياء والتجديد ، وليس خيار واختيار أى من المشروعات « الوافدة » من الحضارة الغربية . . فيكتب - فى نص مهم فى وضوحه وحسمه ودلالته - على هذه القضية ، يقول :

« لقد كانت اللحظة التاريخية فى حياة الثورة العربية المعاصرة هى سلامة الاختيار . . ولم يكن الاختيار بسيطاً ، لأنه لم يكن بين نقيضين فحسب ، المحافظة والثورة ، اليمين واليسار ، التجزئة والوحدة ، الرجعية والاشتراكية . بل

(٩) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٤٦ ، ٤٧ - « نفهم التراث بالفكر الثورى والمعاناة النضالية » - ٢ - ٤ - ١٩٧٦ م . .

(١٠) يفضل البعض إخراج الكتاب والسنة من التراث ، وتخصيصه بالفكر البشرى الموروث . . ولا يرى البعض بأساً من إطلاق مصطلح التراث على الوحي استناداً إلى الآية القرآنية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا . . ﴾ - فاطر : ٣٢ - . وعلى أى ، فلم يكن ميشيل عفلق من أهل هذا العلم حتى تحاسب عبارته بمثل هذه المعايير !

كان الاختيار أيضا بين : ثورة وثورة ، يسار ويسار ، وحدة ووحدة ، اشتراكية واشتراكية . ولم يكن بين : روح ومادة ، بل بين : مادة مستقلة مهيمنة ومادة نابعة من الروح وتابعة لها . . . وكان على الحزب التاريخي أن يقول كلمة واحدة أمام كل اختيار محير، هي الكلمة التي تنبع من الأصالة ومن تجربة الأمة ، فتجعل الأفكار المجردة مبدعة حية وصانعة تاريخ .

وقد كان الموقف من التراث القومي ، أى من الإسلام ، وعلاقته الوثيقة بمرحلة الانبعاث القومي المعاصرة ، معبرا عن أحد الاختيارات الكبرى لفكر البعث الذي قام منذ البدء على تصور ثوري للتراث ، فحقق في نظريته الجديدة هذه ، كما حقق في مفهوم القومية ، وفي النظرة إلى الحرية سبقا على الحركات التي أتت قبله . .

إن هذه النظرة وهذا الموقف من التراث ، الذي أعلنه قبل أربع وثلاثين سنة^(١١) ، لم يكن موقفا تفسيريا للماضي ، بقدر ما كان موقفا ثوريا من الحاضر ورؤية للمستقبل .

ولقد حرصنا دوما ، منذ بداية الحزب ، وانطلاقا من حقائق نفسية معروفة ، على تجنب الثورة العربية ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، الأمراض الخطيرة التي أصابت ثورات غيرها ، فمسخت إنسانية المبادئ في بعضها ، وكسنت سببا في فشل وانحيار بعضها الآخر . فاستلهم التجربة الخالدة في حياة الأمة العربية ، إنما يعنى استلهم الإبداع والدوافع والقيم الإنسانية العميقة ، القيم الثورية التي لا تحمل الأمة العربية حقوقا وامتيازات بقدر ما تحمل ثورتها المعاصرة مسئولية كبرى ، وواجبات عالية ، نحو نفسها ونحو الإنسانية . إنه تأصيل لفكر

(١١) أى في سنة ١٩٤٣ م - والإشارة إلى خطاب علق في «ذكرى الرسول العربي» - .

الحزب ، وليس تراجعاً عن تقديمته ونهجه العلمى أو عن سياسته تجاه حلفائه
التقدميين فى الداخل والخارج . . . » (١٢) .

فالتراث القومى لهذه الأمة ، هو الإسلام . . . وخصوصيته ، وخصوصية
العلاقة بين هذه الأمة وبينه ، ومكانته فى تحريك جماهيرها على طريق النهضة .
هى التى ميزت مشروعها النهضوى عن المشروعات الأخرى لنهضات الأمة
الأخرى . . .

صنع الإسلام . . . كتراث قومى وروحى - ذلك للأمة العربية ، وأيضاً
للشعوب غير العربية التى تديننت بالإسلام . . . عندما حفظ لها هويتها ، التى
حاول الاستعمار مسخها ومحوها . . . وفى حديثه أثناء استقباله للزعيم الغينى
أحمد سيكوتورى [١٣٤٠ - ١٤٠٤ هـ . ١٩٢٢ - ١٩٨٤ م] - فى بغداد - قال
ميشيل عفلق :

« إن شعوبنا التى عانت واضطلعت بمهام التحرر وبناء المستقبل ، عبر
التجارب المؤلمة ، قد ارتبطت بالتراث الروحى للشعب . ومنذ لقائنا الأول - فى
العام الماضى - عبرت لكسم عن سرورى بأنكم وجدتم الطريق السليم والعادى
لفهم الإسلام ، الذى نعتبره من أقوى الروابط التى تجمعنا ، الإسلام كنور
إنسانية عظيمة قادرة على التجدد دوماً . وخير برهان على ذلك ، مانشده فى
المرحلة الحاضرة (١٣) . لقد ساهم الإسلام لقرون عدة فى الحفاظ على هوية
شعبنا وقيمته الروحانية ، وكذلك على هوية كثير من الشعوب الأخرى ، ويمكنها

(١٢) [فى سبيل البعث] : ج ٣ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ - « البعث وتحديات المستقبل » - ٧ -
- ١٩٧٧ م -

(١٣) الإشارة إلى دور الإسلام فى الثورة الإيرانية - ١٩٧٩ م - ولم تكن الحرب بين العراق
وإيران قد اندلعت بعد .

من الصمود ضد الغزوات الأجنبية . فهو الذى ساعد الجزائر على الصمود قرنا
وثلاث القرن فى وجه الاستعمار والدمار والمذابح الجماعية ومحاولات القضاء على
شخصية شعبنا . . « (١٤) .

وفى العديد من المناسبات ، نرى ميشيل عفلق يؤكد على أن الارتباط
بالإسلام ، باعتباره التراث الروحى للأمة ، هو السبيل لفعالية الحركة
السياسية ، والباب الذى تدخل منه إلى قلب الشعب . . وعلى أنه لاتناقض
بين هذه الأصالة وبين التقدمية والمستقبلية والمعاصرة . . فالجمع بين «الإيمان»
وبين «العقلانية» لاتناقض فيه . . بل إنه التآليف بين عناصر أمر واحد ، لا
أمرين مختلفين ! . . يقول :

« إن حركة البحث ولدت من نظرة فكرية ممتزجة بمعاناة وجدانية أرادت أن
تجمع شيئين أساسيين ، هما : الإيمان والعقلانية ، التجربة الروحية فى حياة
العرب ، أى الإسلام ، وروح العصر . هذان هما الإيمان والعقلانية . ووراء هذه
الإرادة قناعة بأننا لانجمع نقيضين ، ولا حتى شيئين مختلفين ، وإنما شيئا واحدا
يأخذ مظهرين حسب اختلاف الزمان . . » .

وعندما يسأله سائل - فى مدرسة الإعداد الحزبى ، عقب المحاضرة التى قال
فيها هذه العبارة - عن « نظرة الحزب إلى الإسلام ، كيف كانت منذ البداية » ؟
وكان السائل قد استشعر أن فى هذا الطرح لعلاقة الحزب بالإسلام جديدا
عن ذلك الذى اشتهر عن هذه العلاقة فيما سبق من عقود ! . .

(١٤) [فى سبيل البحث] : ج ٥ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ - « وحدة النضال بين القوى
التقدمية والثورية فى العالم الثالث » - ٢٨ - ٢ - ١٩٨٠م -

عندما يسأل السائل ميشيل عفلق هذا السؤال ، يكون جوابه : «نظرة الحزب إلى الإسلام ، هي هذه : إنه حتى في هذا العصر أكثر من أى شىء آخر . عصرى ، ومستقبلى أيضا ، لأنه خالد ، يعبر عن حقائق أساسية خالدة . لكن المهم هو الاتصال بهذه الحقائق لكي تؤثر وتكون فاعلة ومبدعة . فكان رأى الحزب ، نتيجة التفكير ونتيجة المعاناة معا ، أن هذا الاتصال لا يكون بالنقل الحرفى ، ولا بالتقليد ، وإنما بأن نكتشف هذه الحقائق من جديد ، من خلال ثقافة العصر ، ومن خلال الثورة والنضال . . » (١٥) .

وفى مناسبة أخرى ، يطرق ميشيل عفلق باب هذا الموضوع . . موضوع علاقة الحزب بالإسلام ، كتراث روحى للأمة ، فيتحدث إلى وفد سودانى عن أن «الوطنية السودانية هي العروبة ، والعروبة السودانية هي الإسلام» ! . . وعن أن هذا الخيار البعثى لم يكن صدفة ولا ترفا . . وإنما كان الاختيار للإسلام بسبب من أنه هو تراث الأمة ، الذى يمثل الإيمان به معيار القبول أو الرفض من قِبل الأمة للحركات السياسية المعاصرة . . لأنه ليس «تاريخ» الأمة فقط ، وإنما «حاضرها . . ومستقبلها» أيضا . . فهو - بالإحياء والتجديد - سبيل المعاصرة والحداثة أيضا . . ومن ثم طريق التواصل الحضارى لمسيرة هذه الأمة فى مواجهة تحديات الانقطاع . . سواء منها انقطاع التخلف والانحطاط الذاتى ، أو انقطاع التغريب الوافد فى ركاب الاستعمار . .

يتحدث ميشيل عفلق عن هذه المعانى ، إلى الوفد السودانى ، فيقول : «إننا ، كما نعرفون ، لم نرد أن تكون حركتنا مجرد حركة سياسية ، لأننا استلهمنا الشعب ، وفهمنا بأن فشل وتعثر الحركات والأحزاب السياسية فى أقطارنا

(١٥) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٨٨ - «حوار حول الدين والتراث» - ٢٧ - ٤ - ١٩٨٠ م .

العربية كان مرده - فى أكثره - إلى أن هذه الأحزاب لم تكن لتروى ظمأ جماهيرنا ، ظمأ شعبنا الأصيل . شعبنا ظامئ لنهضة حضارية ، شعبنا متهى ليقظة روح الرسالة العربية . هذا الشعب الذى لن ينسى تاريخه ، والذى عاش قبل قرون تلك الملاحم من البطولات ومن الإنجازات الحضارية والأخلاقية التى خلقت للعالم بأسره مناخا ساميا جديدا ، مناخا روحيا . هذا الشعب لايرضى العمل السياسى الاحترافى إن لم يجد له صلة بقيمه الروحية ، بترائه الخالد .

ولا ندعى أننا أوجدنا شيئا جديدا ، وإنما كل ما فعلناه أننا أصغينا لروح الشعب ، التقطنا الخيط العميق لضمير الشعب ، التطلع الصادق للجماهير أمتنا العربية ، لأنها تريد وتتوق إلى نهضة شاملة وإلى حياة كاملة يسودها الانسجام ويختفى فيها التناقض ، ولتحقق تقدما فى مجال على حساب قيمة أخرى عزيزة ، لاتدخل العصر وتمتلك أدوات الحداثة على حساب تراثها وقيمها الروحية وماضيها وتاريخها . . . أن يكون « الإنسان العربى المكتمل الشخصية ، المؤمن بدينه ، بترائه ، برسالة أمته ، وفى السوقت نفسه الإنسان العصرى المتحضر المسيطر على وسائل الرقى لكى يصمد فى التنافس مع الدول والأمم القوية ، ولكى يعطى ويعبر عن جوهر العروبة وقيمها الأخلاقية ، ليس بالشكل السلبى ، شكل الشكوى والضعف ، وإنما بالشكل الإيجابى ، من منطلق القوة والثقة بالنفس والقدرة على العطاء . . » (١٦) .

فتصور ميشيل عفلق لعلاقة مشروعه النهضوى بالتراث الإسلامى ، هو تصور المعاصرة التى تجدد الإسلام وتحياه . . التصور الذى يرى المشروع القومى مولودا معاصرا من رحم حركة التجديد الإسلامى التى شهدتها بلادنا فى القرن

(١٦) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ - « الوطنية السودانية هى العروبة ، والعروبة السودانية هى الإسلام » - ١٤ - ١ - ١٩٨٢ م .

التاسع عشر للميلاد . . «فنضال البعث لم يكن مجرد عمل سياسى ، أو فكرى أوصل إليه المنطق أو استقراء التاريخ أو استشعار الحاجة الظرفية ، ولم يكن تقريراً لحقيقة نظرية ، بل كان معبراً عن رؤية ، وعن علاقة حب ونضال ، وأمل وتفاؤل بأن يتجدد فعل الإسلام كروح ناثرة مجددة ومبدعة في الحياة العربية الحديثة . . . من خلال النضال الصادق ، ومواجهة تحديات الواقع العربى الممزق المتخلف ، وتحديات العصر . . فالفكر القومى الحديث نشأ فى ظروف الصدمة مع الغرب الاستعماري . . وخرج من حركة التجديد الإسلامى ، ومن تطور الوعى للهوية القومية . . لقد استلهم الإسلام كثورة روحية قومية وإنسانية وخلقية ، كما استوعب حاجات النهضة المعاصرة للأمة . . » (١٧) .

فالتقدمية . . التى يصنف البعث نفسه كواحد من حركاتها . لها فى مفهومه تميز خاص . . لأنها ، انطلاقاً من معاناة الواقع المعاصر ، تستلهم تراث الإسلام ، فتجده ، بنظرة مستقبلية ، وتوصل الحاضر والمستقبل بروحه ، محققة التواصل الحضارى لمسيرة الأمة ، ومسقطه ذلك الانقطاع الحضارى الذى أحدثه الجمود والانحطاط . . إنها — كما يقول ميشيل عفلق — «صيغة حياة نموذجية فى الوحدة العضوية بين العروبة والإسلام . . ولدت فى جو الحب للعروبة والقومية العربية وللإسلام كأئمن وأعلى ما فى العروبة والقومية العربية . . لقد كانت رؤية الحزب واضحة منذ البداية بأنه لا يمكن الاتصال بتاريخنا المجيد عن طريق العقل الرجعى المتخلف ، بل بئر الانقطاع الذى أوجدته عصور الانحطاط لإعادة الاتصال بالتاريخ العربى الحى عن طريق الثورة والنضال . كما كانت الرؤية أيضاً واضحة بأن التقدم الذى لا يستند إلى

(١٧) ميشيل عفلق [العمل المستقبلى . . نداء إلى الأمة] : ص ٨ ، ٩ — خطاب ٧ من إبريل سنة ١٩٨٨ م — طبعة بغداد سنة ١٩٨٨ م . .

التراث الروحي والحضاري للأمة ، لا يمكن أن يكون تقدما صادقا وناجعا ، لأنه يعجز عن ملامسة روح الشعب وكسب ثقته وتفجير طاقاته ، فكان على الحزب أن يشق لنفسه طريقه الخاص الذي استلهم ثورية التراث الحالد ، من خلال الاستيعاب العلمى الواقعى لروح العصر ومتطلبات ثورة الأمة ونهضتها الحديثة (١٨) . . إن القومية ، فى مفهوم البعث ، لاتنفصل عن التقدمية ، ولكنها التقدمية الأصيلة المعبرة عن تكامل الشخصية الحضارية . . وإذا كان حل مشكلات المجتمع العربى فى الحاضر والمستقبل ، يتطلب فهم هذه المشكلات بمنطق العصر ، فإن فهم البعث للإسلام ، بنأه ثورة روحية وحضارية كبرى ، يجعل من استلهم قيم الإسلام النضالية والإنسانية ، ومن جرأته فى الحق ، وصبره ، ونظرته التجديدية ، ورفضه الجمود على ما كان عليه الأباء ، ونظرته المتوازنة إلى الحياة ، إلى المادة والروح ، والطبيعة والإنسان ، والدنيا والآخرة . . يجعل من استلهم هذا التراث الغنى أمرا ممكنا ، بل وواجبا فى أى تغيير ثورى للمجتمع العربى ، يتطلع إلى بعث الأمة وتجديد شخصيتها الحضارية . . « (١٩) .

تلك هى رؤية ميشيل عفلق - فى مشروعه الفكرى - للتراث . .

إنه المكون لخصوصية الأمة عن غيرها من الأمم . .

وهو المميز لقوميتها عن غيرها من القوميات . .

وهو المميز لمشروع نهضتها الحضارية عن مشروعات إنهاض الأمم الأخرى . .

وإحياءه وتجديده لا يكونان بالتقليد والتكرار له . . وإنما بالتقدم إليه عبر

(١٨) [فى سبيل البعث] : جـ - ٣ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ - « البعث حركة نامية متطورة » - ٧ إبريل سنة ١٩٨٥ م . .

(١٩) المصدر السابق : جـ - ٥ ، ص ٧٥ - « العراق قدر بطولى » - ٧ - ٤ - ١٩٨٧ م . .

المعاصرة، التى هى معاناة الواقع المعاصر بمنطق العصر وأدواته . . الأمر الذى يحقق التواصل الحضارى لمسيرة الأمة . . ويجعل تقدميتها إحياء وتجديدا وليست انقطاعا عن الأصول ونسخا للهوية واقتلاعا للجذور . . هذا هو التراث . . الذى هو الإسلام . . وخاصة فى جوانبه الشورية . . والحضارية . . والقيمية . .

نعم . . هو تراث . . لكنه «حى فى هذا العصر أكثر من أى شىء آخر. عصرى، ومستقبلى أيضا، لأنه خالد، يعبر عن حقائق أساسية خالدة . . ومادامت الأمة العربية على هذه البسيطة، فالإسلام هو التراث الروحى، وهو المحرك لها، هو ملهمها، هو مرجعها الروحى، وهو الحركة الشورية المثلى . .» (٢٠).

تلك هى الرؤية . . وهذا هو الفكر . . وبها ولهما، تميزت صيغة البعث، وتميز مشروعه عن حركات التقليد للتراث . . وعن الحركات الشيوعية التى استبدلت تراث الماركسية بتراث الإسلام . . وعن الحركات الليبرالية، التى اتخذت من ليبرالية الغرب تراثا لها! . .

لكن . . إلى أى حد نجح البعث، فى الممارسة والتطبيق، كى يجسد هذه الرؤية وهذا الفكر اللذين صاغهما قائده ومؤسسه ميشيل عفلق!؟ .

إن ما ألمحنا إليه من شكوى الرجل، بالتلميح والتصريح، عندما كان يتطرق إلى هذه القضية، لا يدعونا إلى التسرع، فنحكم بفشل البعث فى هذا الميدان . . وإنما الذى نقوله: إن تجسيد هذه الرؤية وهذا الفكر مهمة ما زالت فى انتظار الفرسان الذين يحولونها إلى كيان حى فى ميدان الممارسة والتطبيق! . . لا فى إطار البعث وحده . . وإنما فى إطار التيار القومى العربى بوجه عام! . .

(٢٠) المصدر السابق: ج ٣، ص ٢٠ - «أصالة الأمة قوة نضالية متجددة» - ١٩ - ١ - ١٩٧٦م .

ماهية «الرسالة الخالدة»؟

تتردد كثيرا في كتابات البعث، ومنذ السنوات الأولى لتكوينه، تلك العبارة التي غدت شعارا له، تتصدر منشوراته وصحافته. . ويهتف بها جمهوره في التظاهرات. . عبارة: «أمة عربية واحدة. . ذات رسالة خالدة». .

وإذا كانت كتابات البعث، وكذلك الكثير من ممارساته، لم تلغ للغموض مجالا فيها يعنيه بوحدة الأمة العربية، التي جعلها همه الأكبر، حتى لقد هندس تنظيمه الحزبي - القطري والقومي - وفقا لفلسفتها. . فإن ماهية «الرسالة الخالدة» لهذه الأمة العربية الواحدة هي مما قد يتطرق إليها الغموض في هذه الكتابات - كتابات ميشيل عفلق - التي مثلت المشروع الفكري لهذا الحزب، وخاصة في الفترات الأولى من حياته الفكرية وعلى الأخص في وعي جماهير الحزب، وفي ممارساتها. . بعيدا عن حقيقة مايعنيه القائد المؤسس ميشيل عفلق بهذا الشعار. . شعار «الرسالة الخالدة» للأمة العربية الواحدة. .

* * *

أما نحن، وبعد الدراسة المتأملة للمكتابات الكاملة لميشيل عفلق، ومنها ماكتبه عن تراث الإسلام الثوري والروحي. . وعن مرجعية هذا التراث في المشروع النهضوي. . مشروع بعث الأمة. . وعن دور هذا التراث - الإسلام -

في تميز الأمة ، وتميز نهضتها القومية . . فإننا لا نحتاجنا أدنى شك في أن «الرسالة الخالدة» ، التي عنها ميشيل عفلق هي ذات الإسلام ، كثورة وحضارة ميزت الأمة العربية عن غيرها من الأمم ذات الرسالات «النسبية» ، والتي ليس لها «إطلاق» و«خلود» رسالة الإسلام! . .

ذلك هو فهمنا لماهية «الرسالة الخالدة» في فكر ميشيل عفلق . . على الرغم من الغموض الذي أحاط بهذه الماهية في أغلب هذه الكتابات . . وهو - الغموض - الذي لا يرتفع إلا بعد تكامل نظرة الرجل - بعد دراستها - في مرجعية الإسلام . .

في الممارسات البعثية ، وفي أذهان أغلبية أعضاء الحزب ، وفي الكثير من كتابات ميشيل عفلق ، لم تكن واضحة الخيوط التي تربط ماهية «الرسالة الخالدة» بالإسلام ، وخاصة بالجانب الإلهي في رسالة الإسلام . . ومع هذا الغموض ، وبالرغم منه ، فإننا نستطيع أن نقدم في مواجهته بعض المؤشرات التي تشهد لقيام العلاقة - في فكر ميشيل عفلق تحديداً - بين «الرسالة الخالدة» وبين «الإسلام» . . على النحو الذي يسمح لنا بأن نقول إنه قد عني ، على نحو ما ، أن «الرسالة الخالدة» للأمة العربية هي «رسالة الإسلام»! . .

● ففي سنة ١٩٤١م - وهو العام الأول لتكوين الحزب - تحت اسم «جمعية الإحياء العربي» - شهدت العراق قيام الثورة التي قادها رشيد عالي الكيلاني [١٣١٠ - ١٣٨٤هـ ، ١٨٩٣ - ١٩٦٥م] . فكانت هذه الثورة - كما يقول ميشيل عفلق - «أول مناسبة يطبق فيها الحزب فكره القومي الوحدوي ، فتجند أعضاؤه - ولم يكن قد تجاوز عددهم بضعة عشر! - لهذه الغاية ، ودعوا الشباب العربي في سورية للتجند في منظمة باسم «نصرة العراق» . . .» .

ولقد جاء في «الدعاء» الذي كان يردده أعضاء منظمة «نصرة العراق» أول

حديث في الأدبيات البعثية لـ «الرسالة» و«لماهيتها» ، على النحو الذى يقطع بعلاقة هذه الماهية بالإسلام ، كرسالة إلهية خالدة . . تقول كلمات الدعاء : «اللهم أنت الذى أردت أن يكون العرب أمة قوية هادية تحمل إلى العالم رسالتك ، نريد اليوم أن تعود إليهم وحدتهم وقوتهم ليؤدوا هذه الرسالة من جديد . اللهم هب لى قوة الإيمان ، وصفاء الفكر ، وصلابة الإرادة لأكون جنديا نافعا فعالا فى الجهاد الذى يقوم به العراق من أجل وحدة العرب . . »^(١) .

فالحديث هنا عن الرسالة الإلهية ، التى حملتها الأمة العربية ، تاريخيا ، إلى العالم . . وعن الإرادة المعاصرة : أن تتحد هذه الأمة الواحدة ، لتؤدى هذه الرسالة الإلهية من جديد . .

● وفى سنة ١٩٤٦ م ، كتب ميشيل عفلق واحدا من أدبياته الفكرية ، تحت ذات العنوان : [الرسالة العربية الخالدة] . . وفيها أشار إلى أن هذه الرسالة : «هى إيمان» . . ودافع عن هذا الفهم ، فى مواجهة المنطق المادى والمناهج الوضعية الغربية ، عندما أكد على سبق «الإيمان» للمعرفة الواضحة ! . . وتحدث عن معنى «خلود» هذه الرسالة . . فالأمة التى حملتها تاريخيا ، لها خصوصية الصلاح لأن تبقى دائما - رغم التخلّف الذى انقطع بها عن هذا الدور - تبقى صالحة ومدعوة لأداء هذه الرسالة دائما وأبدا فهذا هو مستواها ، المتميز بين الأمم ، والذى لا يصح لها التنازل عنه بحال من الأحوال . .

أشار ميشيل عفلق إلى هذه المعانى عندما قال : . . الرسالة العربية : إيمان قبل كل شىء ، ولا يعيبها هذا أو ينقص من قدرها . فالحقيقة العميقة الراهنة ،

(١) [فى سبيل البعث] : جـ ٣ ص ١١١ - «التراث عزز صمود الأمة وأعطى للشورة العربية مستواها العالمى» - ٧ - ٤ - سنة ١٩٧٦ م .

هى أن الإيمان يسبق المعرفة الواضحة . . أما الرسالة الخالدة ، فالقصد منها أن هذه الأمة لاتعترف بواقعها السيئ وموقفها المنفعل ، ولاتتنازل عن مرتبتها الأصلية بين الأمم ، بل تصر على أنها لاتزال هى هى فى جوهرها ، تلك الأمة التى بلغت فى أزمان متعددة مختلفة من التاريخ درجة تبليغ رسالتها ، فهى ، إذن ، بصلتها ببعضها ، وبماضيها ، لاتزال واحدة ، ولاتزال فيها الكفاءة لاسترجاع تلك المرتبة التى فقدتها مؤقتا . . «(٢) .

وفى عبارة أخرى - من كتابات ميشيل عفلق فى ذات العام . . عام ١٩٤٦ م يشير إلى علاقة رسالة هذه الأمة بالسما . . وتميزها بالخلود . . وكيف أن هذا التميز وتلك العلاقة هى التى طوعت الأرض لهذه الأمة فى الماضى . . وأنها هى سبيلها لتحقيق البعث الجديد ، الذى تواصل به مسيرة البعث القديم . . يقول : «طلب العرب السماء فملكوا الأرض ، فلما اقتصروا على طلب الأرض ، أضاعوها والسماء معا ! لا يسيطر العرب على حياتهم حتى يؤمنوا بالخلود ، ولا تعود إليهم ملكية أرضهم حتى يؤمنوا بالجنة من جديد . . «(٣) .

● وفى سنة ١٩٤٧ م . . عقد المؤتمر الأول لحزب البعث . . وصيغ دستور الحزب ، الذى أقره هذا المؤتمر . . وفى المبدأ الثالث من هذا الدستور، جاء النص على «رسالة الأمة» على هذا النحو : «الأمة العربية ذات رسالة خالدة ، تظهر بأشكال متجددة متكاملة ، فى مراحل التاريخ ، وترمى إلى تجديد القيم الإنسانية ، وحفز التقدم البشرى ، وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم . . «(٤) .

(٢) [فى سبيل البعث] - طبعة دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٤ م - ص ٩٧ ، ٩٨ - «الرسالة العربية الخالدة» سنة ١٩٤٦ م .

(٣) [آفاق عربية] : ص ٩ - عدد إبريل ، سنة ١٩٧٦ م .

(٤) [نضال البعث] : ج ٤ ، ص ٢٥ . طبعة دار الطليعة - بيروت ، سنة ١٩٧٦ م .

ولقد تميزت هذه الصيغة ، لهذه الرسالة ، في دستور الحزب ، بالعموم الذي يمكن من سيادة الغموض في ممارسات الحزب حول «ماهية» هذه الرسالة الخالدة . . وساعد على ذلك ، أن المشروع الفكري للحزب قد كان يتميز في تلك المرحلة بصياغات حول علاقة القومية - التي هي المهمة الكبرى للحزب - بالإسلام - الذي رآه الحزب تراث الأمة - كانت تتميز صياغات هذا المشروع - حول هذه القضية - التي هي جماع فكر الحزب وجوهر فلسفته - بالنزوع الذي يرى في القومية الإطار المفصح عن رسالة الأمة في عصرنا ، كما أفصح عنها الدين في عصر ظهور الإسلام . . فإذا كانت «الرسالة» نزوعا للتعبير عن الذات ، فإن ماهية هذا التعبير تختلف باختلاف العصور . . كانت ديننا قديما . . وهي اليوم القومية وحدها ! . .

ففى العام الذى سبق المؤتمر الأول للحزب - كتب ميشيل عفلق عن المحرك الأساسى للأمة في عصرنا ، فقال إنها القومية وليست الدين . . «فلكل أمة ، في مرحلة معينة من مراحل حياتها ، محرك أساسى . . هذا المحرك الأساسى ، كان في وقت ظهور الإسلام هو الدين . . أما اليوم فإن المحرك الأساسى للعرب هو القومية . . وحدها . . والإيمان القومى وحده . .» (٥) ! ! .

فالرسالة الخالدة : نزوع دائم وخالد إلى النهضة وتحقيق الذات ، يتخذ في كل مرحلة شكلا متميزا ، يناسب المرحلة . . كان - بالنسبة للأمة العربية ، عند ظهور الإسلام - هو دين الإسلام . . واليوم يتخذ صورة القومية العربية . . فكأن ماهية الرسالة الخالدة للأمة العربية الواحدة في عصرنا هي الماهية القومية . .

(٥) [في سبيل البعث] - طبعة دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٤م - ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ -
«معالم الاشتراكية العربية» - سنة ١٩٤٦م - . .

لكن . . بما أن قومية هذه الأمة متميزة ، لعلاقتها بتراثها — الذى هو الإسلام ، وخاصة فى أبعاده الثورية والحضارية والقيمة — كانت علاقة رسالتها ، حتى فى هذا العصر ، بالخلود وبالمطلق من الإسلام . .

على هذا النحو، كانت صياغة العبارات التى تحدثت عن «الرسالة الخالدة» فى دستور الحزب سنة ١٩٤٧ م . . وهى صياغة عامة . . سمحت بالفهم الذى ساد فى ممارسات الحزب ، حول ماهية الرسالة الخالدة ، وهو الفهم الذى تميز بالغموض والابهام حول علاقة ماهيتها بالإسلام كدين ! . .

«إنها نزوع واستعداد أكثر من كونها أهدافا معينة محدودة . .»^(٦) - كما يقول عفلق سنة ١٩٤٦ م . .

فالنزوع إلى البعث القومى ، المتميز — لعلاقة قوميتنا بتراثنا — هو جوهر الرسالة الخالدة . . إذ «الرسالة ليست إلا الانقلاب وثمراته . .»^(٧) ، كما يقول ميشيل عفلق سنة ١٩٥٣ م .

● وكما شهدت حقبة السبعينيات ذلك التطور والوضوح اللذين تحدثنا عنهما فى صياغات ميشيل عفلق حول المراد بـ «التراث» . . شهدت إشارات إلى ماهية «الرسالة الخالدة» تطورا نسبيا ، زاد من وضوح العلاقة بينها وبين «التراث» . . الذى هو «الإسلام» ! . .

ففى سنة ١٩٧٦ على وجه الخصوص كثرت هذه الإشارات :

« . . إن حزبنا ، منذ بدايته ، ومنذ التصور الأول استلهم تراثنا العربى ،

(٦) المصدر السابق : ص ١٠٠ - «الرسالة الخالدة» - سنة ١٩٤٦ م .

(٧) [فى سبيل البعث] ج ٢ ، ص ٢٣٣ - «ثورية الوحدة العربية» - فبراير، سنة ١٩٥٣ م .

تراثنا الروحي ، وهذا متجمل في جملة كتابات وشعارات في بداية الحزب ، متجمل بصورة خاصة في شعار الحزب الذي يقول : إن أمتنا أمة واحدة ، وبأن لها رسالة خالدة . . » (٨) .

هنا يربط « الرسالة الخالدة » بـ « التراث الروحي » للأمة . .

« . . . إن الحضارة العربية الجديدة ، ستكون مختلفة عن الحضارات التي عرفتھا الإنسانية . . وستكون لها قيم جديدة . . وهذا مانسميه : الرسالة العربية . أى أنها حصيلة الرسالة الخالدة في تاريخهم ، والمعاناة في عصرهم الراهن . . » .

فالرسالة : حصيلة للإسلام ، ومشكلات العصر . . ولذلك ، فهي متميزة في القيم تميز الإسلام في هذا الميدان على غيره من الأنساق الفكرية الأخرى . .

« . . . فقضيتنا ، إذن ، صعبة إلى حد أنه لاينجح فيها إلا المستوى الذي هو بين الأرض والسماء . . أو المستوى الذي تكون فيه الأرض والسماء ممتزجتين . . » (٩) .

فعلاقة الرسالة بالدين الإسلامي علاقة عضوية . . لأن مشروع النهضة ، المناسب لهذه الأمة ، لابد وأن يكون حصيلة امتزاج الإلهي بالبشري ، والنقاء السماوي بالأرض ، في الفكر والتطبيق . .

« . . . إن الثورة هي من أجل القضاء على التخلف والاستغلال . . من

(٨) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٢٥ - « أصالة الأمة قوة نضالية متجددة » - ١٩ - ١ - ١٩٧٦ م .

(٩) [آفاق عربية] : ص ٩ - عدد إبريل ، سنة ١٩٧٦ م .

أجل القضاء على الاستعمار . ومن أجل سعادة الناس . . إلخ . . إلخ . . ولكن كل هذا يأتي بالدرجة الثانية بعد الرسالة . . لأنك إذا لم تضع الرسالة في الدرجة الأولى لاتحرر من الاستعمار ، ولاتتخلص من الصهيونية . فهذه الأشياء هي الميزة لحركتنا ، لأن التفكير الماركسي ، وشبه الماركسي ، والعلمي ، وشبه العلمي ، لا يوصل إلى هذه الحقائق . . وأحيانا يوصل إلى الاستهزاء بها والتنكر لها ومجافاتها . . وبالتالي إلى التعثر والفشل . . « (١٠) !

فالمنهج الإسلامي ، المعاكس للمناهج الوضعية والمادية الغربية ، هو الذي يجعل للرسالة الخالدة هذه الماهية غير المادية ، والمتقدمة في الأولوية على الإنجازات والأهداف المادية . . فهي - كما سبق لميشيل عفلق أن قال - : «إيمان قبل كل شيء» !

ولأن الهدف هو « بعث حضارى » لأمة سبق لها أن « حملت إلى العالم رسالة الإسلام » ، كان لابد من مرجعية « قيمها وتراثها الروحي » باعتباره « سلاحها الأول في معركتها مع أعدائها . . » . . ذلك هو « مستوى الأمة العربية . . مستوى الأمم التي لها رسالات إنسانية . . » .

وحزب البعث - حسب تعبير ميشيل عفلق - « لم ينشأ ليضيف حزبا سياسيا إلى بقية الأحزاب العربية ، ولا حتى ليضيف حزبا اشتراكيا إلى بقية الأحزاب الاشتراكية العربية وغير العربية . وإنما استهوته نظرة كلية إلى الحياة وإلى التاريخ ، وإلى مصير الإنسانية ، لم يخترعها . . وإنما جاءت غيضا من فيض تراثنا العظيم . . » (١١) .

(١٠) المصدر السابق : ص ٩ - عدد إبريل ، سنة ١٩٧٦ م .

(١١) [في سبيل البعث] : ج ٣ ، ص ١١٦ ، ٥٨ - « التراث عزز صمود الأمة وأعطى للثورة العربية مستواها العالمى » - ٧ - ٤ - ١٩٧٦ م - «وحدة التجربة النضالية للحزب في الزمان والمكان» - ١٥ - ٣ - ١٩٧٦ م - .

« . . لقد بدأ - البحث - بالتفاعل مع روح العصر، ولكنه بدافع من صلته العميقة بالأمة، أو صله الموقف الشورى إلى رؤية الماضى الخالد ورسالة الأمة الخالدة في ضوء الحاضر، حاضر العصر، وحاضر العرب . . فاتخذ البحث هنا صورته: بأنه تجديد للقيم الروحية والأخلاقية التى عرفتھا أرض العروبة في عهدھا الذهبى» (١٢) .

إن مشروع النهضة المنشودة، فى مثل أمتنا العربية، لابد وأن يكون نابعا من المشروع الذى أنهضها نهضتها الأولى . . ورسالتها المعاصرة، لابد وأن تكون فى مستوى رسالتها الروحية الأولى وفيضا من ذلك النبع الأول . . وتلك هى ميزة النهضة العربية المنشودة على النهضة المعاصرة . . « . . إن الأمة العربية قادرة على أن تنهض، وقادرة على أن تكون ليس فى مستوى العصر وحضارته فحسب، بل فى مستوى رسالتها العظيمة التاريخية أيضا، فى مستوى الرسالة الروحية التى تفردت بها بين الأمم، والتى ستبقى إلى الأبد هى المدد والمعين الروحى الذى سيدفع أمتنا نحو التقدم والرفق والإنجازات الحضارية العظيمة . . . إن نهضتنا العربية الحديثة، هى من ذلك النبع، من ينبوع الرسالة الأولى . . » (١٣) |

على هذا النحو، وضحت، نسبيا، علاقة «الرسالة» - فى كتابات ميشيل عفلق - بالتراث الروحى للأمة، أى بالإسلام . . وإن كانت هذه القضية - قضية مساهمة الرسالة الخالدة للأمة العربية - قد ظلت موضع غموض فى ممارسات الحزب وأفكار العديد من قياداته . . فوقفت ماهيتها كثيرا عند مفهوم «النزوع الدائم للنهضة» دونما وضوح «للماهية الإسلامية» لهذا النزوع! . .

(١٢) المصدر السابق: ج ٣، ص ٩٦، ١٠٠ - «روح الأمة وروح العصر» ١٩ - ٤ - ١٩٨٠ م.

(١٣) المصدر السابق: ج ٥، ص ٣٥٨، ٤٠٣ - «القادسية وحالة الانبعث» ١٨ - ٥ -

١٩٨١ م - «من كلمات وأحاديث مع جرحى معارك القادسية» ٧ / ٤ / ١٩٨٢ م -

الإسلام.. في الصّراع الغربى-العربى

إن الموقف الواعى . . . والثابت . . . والعميق . . . والشامل الذى تجلّى فى فكر ميشيل عفلق إزاء موقف الحضارة الغربية من أمتنا وحضارتنا العربية الإسلامية ، ومن الصراع الحضارى والتاريخى بين الغرب والعرب . . . هو واحد من أكثر الصفحات وعياً وعمقا ودقة وإشراقا فى مشروعه الفكرى ، بل وفى الفكر القومى العربى المعاصر على الإطلاق ! . . .

لقد ولد ميشيل عفلق ونشأ واحداً من أبناء الأقلية المسيحية الأرثوذكسية ، التى وإن تميزت بالتوجه « العربى » ، إلا أنها كواحدة من الأقليات الدينية فى بلاد المشرق العربى قد تميزت بالتعرض لتأثيرات الحضارة الغربية أكثر من الأغلبية المسلمة ، وبخاصة أهل السنة . كما تميزت هذه الأقليات بتزايد الخيوط الفكرية ، والميول الثقافية ، والعواطف الحضارية ، التى ربطت قطاعات من النخب المثقفة فيها بتيارات الفكر الغربى ودوائره ومؤسساته ومدارسه التبشيرية منذ مطالع الزحف الاستعمارى الغربى الحديث على عالمنا العربى ، قبل قرنين من الزمان .

ولقد تعلم ميشيل عفلق - بدمشق - حتى البكالوريا - فى مدرسة اللبسيه . . . ثم كان تعليمه العالى فى باريس . . . ولم ينكر هو ولا المقربون إليه

بصمات الأدب والفلسفة والفكر الغربى عليه . . مسن نيتشة [١٨٤٤ - ١٩٠٠م] ، إلى أندريه جيد [١٨٦٩ - ١٩٥١م] ، إلى دوستويفسكى [١٨٢١ - ١٨٨١م] ، إلى تولستوى [١٨٢٨ - ١٩١٠م] ، إلى كارل ماركس [١٨١٧ - ١٨٨٣م] . . إلخ . . إلخ . .

ومع ذلك كله ، فلقد جاءت صفحة موقفه من الصراع الحضارى بيننا وبين الغرب ، وصراع وقتال الغرب - بكل أسلحة الصراع والقتال - فى سبيل غزونا الفكرى واستعمارنا الحضارى . . جاءت صفحة فكر عقلق ابن الأقلية المسيحية . . خريج اليسيه وباريس . . من أكثر الصفحات وعيا وعمقا واتساما بصمات العروبة والإسلام ! . .

لقد أدرك ميشيل عقلق - فى الإشارات التى حلل فيها علاقات الغرب بالأمة العربية - كيف كان الإسلام هو الحصن الذى جعل أمتنا عصبية على تطويع الغرب لها وعلى إلحاقها بمركزه الأوربى . . ومن ثم أدرك شراسة وخبث واستمرارية صراع الغرب - كحضارة متميزة عن حضارتنا الإسلامية - ضد تميزنا الحضارى عنه ، وضد الإسلام الذى حفظ لأمتنا هذا التميز عبر التاريخ . . أدرك طبيعة هذا الصراع الحضارى . . وجوهره . . وأشار إلى العديد من أساليبه . . وإلى أبرز ميادينه فيما قدم مشروعه الفكرى حول هذه القضية من صفحات . .

. . فهناك ميادين :

● الغزو الفكرى الغربى لعقلنا العربى المسلم . . الذى يستهدف إلحاقنا الفكرى والثقافى ، والقضاء على تميزنا الحضارى . .

● والتركيز الغربى على الأقليات المسيحية العربية ، محاولا جعلها مواطنى

أقدام لغزوه الفكرى وإلحاقه الحضارى . . وثغرات فى جدار المقاومة العربية الإسلامية هيمنة المشروع الغربى . .

● والتحالف « الحضارى - السياسى » ، اللاأخلاقى ، الذى عقده الغرب مع اليهودية والصهيونية ، لمواجهة العرب والإسلام . .

● والامتدادات السرطانية لمذاهب الغرب الاجتماعية فى عقول النخب القائدة لتيارات فكرية فى بلادنا . . ليبرالية كانت أو شمولية . . وبخاصة الامتداد الشيوعى ، الذى كان يجرى فريقا من مثقفينا ، بل ويأرس إرهابا فكريا على كثير من دوائر الفكر فى العقد الذى نشأ فيه حزب البعث . . عقد الأربعينيات من القرن الميلادى العشرين . .

● والعلمانية ، التى مثلت مذهب الغرب وحضارته فى علاقة الدين بالدولة . . والتى جاءت إلى بلادنا فى ركاب غزوته الاستعمارية الحديثة ، فتحمّس لتبنيها نفر من مثقفى الأقليات المسيحية - قبل غيرهم وأكثر من غيرهم - كأداة لعزل الإسلام وراثته عن الدولة . . أى لتجريد الدولة والقومية والأمة من هويتها الإسلامية ، وحتى يمتلئ الفراغ بالبديل الحضارى الغربى . . فتتحقق أهداف الغرب فى التبعية والإلحاق . .

أدرك ميشيل عفلق ميادين الغزو الفكرى . . وأدوات الصراع الثقافى . . وثغرات التسلل الحضارى . . ودور الإسلام ، باعتباره الحصن الجامع والمانع لهوية الأمة ووحدتها واستقلالها الحضارى - الذى هو جوهر الاستقلال - عن مشروع الغرب الاستعمارى . . مشروع الضم والإلحاق والاستغلال . . الذى تعرضت له أمتنا منذ مطالع لهذا العصر الاستعمارى الحديث . .

ولقد كان إدراكه لهذا الحقائق مبكرا . . وكان موقفه الواعى والعميق من

حقائق هذا الصراع الحضارى سمة ثابتة ومستمرة على امتداد نصف قرن . .
هو عمر المشروع الفكرى الذى قدمه إلى الأمة ، وإلى التيار القومى على وجه
الخصوص . .

* * *

العربُ والغرب

منذ وقت مبكر، فى عمر الحياة الفكرية لميشيل علق سنة ١٩٤٣ م - التفت
إلى تحليل طبيعة العلاقة بين الغرب والأمة العربية . . وأبصر الطبيعة الصراعية
التي فرضها الغرب على هذه العلاقة . . وأشار إلى الإسلام كهدف يناصره
الغرب العداء ، ويشن عليه الحرب ، بكل الوسائل ، ومختلف السبل ، وفى
جميع الميادين . . باعتباره أمنع حصون الأمة العربية ، الضامنة لها الاستقلال
الحضارى عن التبعية والإلحاق ، اللذين يريد الغرب من ورائهما تأييد وتأييد
النهب الاقتصادى والاستغلال الاجتماعى للعرب والمسلمين . .

ففى محاضراته فى «ذكرى الرسول العربى» - ٥ من إبريل سنة ١٩٤٣ م -
يقدم تحليلاً بالغ الدقة والعمق عما نسميه «التمايز الحضارى» بين حضارتنا
الإسلامية وبين الحضارة الغربية ، لا فى الشعارات وعناوين القضايا ، التى قد
تتفق فيها الحضارتان . . وإنما فى المضامين ، التى قد تتوحد فيها
المصطلحات . . ويتحدث عن محاولات الغرب تزييف «طبعة غربية»
للإسلام ، تفقده الخصوصية والتميز عن الحضارة الغربية ، وتقف فيها الفروق
عند «الكم» فقط . . «كم» ما عندنا - وهو قليل - «والكم» الذى لدى الغرب
وهو كثير - فى قضايا وميادين النهضة والمشروع الحضارى . . كالحرية . .
والعقلانية . . والعدالة . . وحقوق الإنسان . . إلخ . . إلخ . . وذلك ليوهنا
أن القضية المطروحة والمهمة المطلوبة هى قضية «اللاحاق» بحضارة الغرب . .

فما دامت الفروق هى فى « الكَم » وليست فى « النوع » ، فإن على « المُقَلِّين » أن
« يلحقوا » بالمُكثِرِينَ الأغنياء !!! .

يكشف ميشيل عفلق عن هذه الحقائق - التى ماتزال غائبة عن البعض ،
بل ومرفوضة من البعض حتى الآن ! فىقول - تحت عنوان : « العرب
والغرب » :

« . . . منذ قرن ونصف قرن عاد اتصال الغرب بالعرب بواسطة حملة
بونابرت على مصر . وقد رمز هذا الداهية إلى ذلك الاتصال بأن علق لوحات
كتبت فيها آيات القرآن إلى جانب حقوق الإنسان . . . ومنذ ذلك الحين ما برح
العرب (أو الرؤساء الدخلاء على العروبة) يدفعون نهضتهم الحديثة فى هذا
الاتجاه الأشوه . فهم يجهدون أنفسهم ويرهقون نصوص تاريخهم وقرآنهم
ليظهروا أن مبادئ حضارتهم وعقيدتهم لا تختلف عن مبادئ الحضارة الغربية ،
وأنهم كانوا أسبق من الغربيين إلى إعلانها وتطبيقها . وهذا لا يعنى إلا شيئا
واحدا : وهو أنهم يقفون أمام الغرب وقفة المتهم ، مقسرين له بصحة قيمه
وأفضليتها . . . »

إن الواقع الذى لا محيد عن الاعتراف به ، هو أن غزو الحضارة الغربية للعقل
العربى ، فى وقت جف فيه هذا العقل حتى أمسى قوالب فارغة ، يَسْرُ لتلك
الحضارة أن تملأ بمفاهيمها ومعانيها فراغ هذه القوالب ، ولم تمض فترة من الزمن
حتى انتبه العرب إلى أن ما يخاصمون الأوروبيين عليه ، هو نفس ما يقول به
هؤلاء ، وأنهم لا يفرقون عن الأوروبيين إلا بالكَم ، كما يفرق القليل عن الكثير ،
والمقصر عن السابق . ولن يتأخر الوقت الذى يعترفون فيه بالنهاية المنطقية لهذا
الاتجاه ، أى أن فى الحضارة الأوربية ما يغنى عن حضارتهم ! . فحيلة الاستعمار
الأوروبى ، لم تكن فى أنه قاد العقلية العربية إلى الاعتراف بالمبادئ والمفاهيم

الخالدة ، إذ إن هذه العقلية معترفة بها وقائمة عليها منذ نشأتها ولكن - [الحيلة الاستعمارية] - هي في اغتنامه فرصة جمود العقلية العربية ، وعجزها عن الإبداع ، ليضطررها إلى تبني المضمون الأوربي الخاص لهذه المفاهيم . فنحن لسنا نخالف الأوروبيين في مبدأ الحرية بل في أن الحرية تعنى الذى يفهمونه منها؟ . . . (١) .

ففى هذا النص - الذى أتمنى أن يُقرأ ، يتأمل ، لعدة مرات !! - حدد ميشيل عفلق خطر القضية وطبيعتها ، وميادين صراعها ، واتجاهات الخطأ والصواب لدى فرقائها . فالغرب يزيف طبيعة العلاقة بين حضارتنا وحضارته ، لتكون مشكلة « كَم » فيما لدينا ولديه من سمات التحضر وأدواته وسبله وهو قد انتهز فرصة الجمود والتخلف الذى نحن عليه ليرز رجحان كفته فى هذا « الكَم » الحضارى . . . وليدعونا إلى اختيار طريق اللحاق به ، وتبنى ما لديه من مفاهيم . . . فإذا كانت الشورى الإسلامية هي الديمقراطية الغربية . . . والعدالة الاجتماعية الإسلامية هي الاشتراكية الغربية أو الشيوعية . . . وتحرير المرأة المسلمة نموذجه هو نموذج التحرير الغربى لها . . . والدولة الإسلامية هي الدولة العلمانية بالمعنى الغربى . . . والدين الإسلامى هو - كالمسيحية الغربية - يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . . . والقومية العربية لها كل سمات النشأة والتكوين فى القوميات الغربية . . . ومفهوم الحرية الإسلامى هو نفس مفهومها الغربى . . . والعقلانية الإسلامية - وعلاقة العقل بالنقل - هي ذات العقلانية « اليونانية - الغربية » . . . إلى آخر مفاهيم وسمات المشروع الحضارى . . . فلم الحديث عن الأمة المتميزة والحضارة المتميزة؟ . . . ولم لا

(١) [فى سبيل البحث] : طبعة دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٤م - ص ١٢٩ ، ١٣٠ - « ذكرى الرسول العربى » - ٥ - ٤ - ١٩٤٣م .

يكون الطريق واحدا وهو «اللاحاق بالغرب»، وتبنى مشروعه الحضارى ،
والقبول بمركزية وواحدية حضارته ، كحضارة للبشرية جمعاء ١٩ . .

ذلك هو لب الخداع الغربى ، فى ميدان الصراع الحضارى . . وذلك هو
«الطُّعْم» الذى ابتلعه فريق من مثقفينا ، الذين تحولوا إلى « مبشرين ثقافيين » ،
هم أشبه مايكونون بالثغرات التى تمكّن للزحف الغربى سبل الضم
والإلحاق ! . . وذلك هو المستوى المتألق الذى بلغه ميشيل عفلق فى رؤية وتحليل
هذا الموضوع الخطير .

* * *

ولقد اتخذ ميشيل عفلق موقفا ثابتا من تحديد السبب الأساسى والجوهرى
الذى أثمر هذا العداء التاريخى من قبل الغرب وحضارته للأمة العربية
وحضارتها . . فهذا السبب ، عنده ، هو خوفه من منافسة الإسلام وحضارته
للحضارة الغربية . . وعداء الغرب للإسلام . .

ففى سنة ١٩٤٣ م ، يكتب : «إن أوروبا اليوم ، كما كانت فى الماضى ، تخاف
على نفسها من الإسلام . .» (٢) ١

وفى سنة ١٩٧٦ م ، يؤكد على ذات المعنى ، ويفصل القول فيه ، فيقول :
«إن الغرب يتابع حربا مزمنة ضد الأمة العربية منذ مئات السنين . . إن أمتنا لها
دور آخر ، ووزن آخر . . لها رسالة . موقعها الجغرافى المتوسط بين القارات . .
العداء لها كان قبل اكتشاف ثرواتها . . أى أن الاقتصاد فيها ليس هو الشيء
الأهم والباعث على هذه المنافسة وهذا العداء . إن المنافسة هى بسبب هذا
الدور الحضارى الذى جاء به الإسلام . . خذ الهند مثلا ، ليس هناك

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٠ - «ذكرى الرسول العربى» - من إبريل سنة ١٩٤٣ م . -

عداء لها ، أو للصين وفيتنام . . فبانتهاى الحرب فيها ، انتهى كل شىء . أما العداء للعرب ، فباطنه الخوف من إمكانات الدور الإنسانى الذى يمكن أن يثول إليهم ، والذى عليه برهان من الماضى ، وهو الحضارة العربية أيام العباسيين وفى الأندلس . . فعندما تكون لدى العرب هذه القابلية لخلق وتكوين حضارة كهذه ، فإن الغرب يفهم مامعنى ذلك ، ويفهم أن هذه الحضارة قابلة للتجدد . . !» (٣) .

وهذا العداء الغربى للإسلام ، هو الذى جعل الغرب يوجه جهودا كبيرة - ضمن غزوه الفكرى - لمحاولات إعاقة التجديد الإسلامى ، الذى يجدد هذه الحضارة ذات الإمكانات العالمية المنافسة لحضارته الغربية . . إنه عدو الإحياء العربى والبعث القومى والتجديد الإسلامى ، بينما لا يؤرقه ولا يقلقه التسدين الشكلى ، أو ذلك التفسير الإفرنجى للإسلام « . . ! » «إن أوروبا ، التى تخاف على نفسها من الإسلام . . نراها تصادق الشكل العتيق للإسلام وتعاضده . فالإسلام الأعمى ، الذى يقتصر على العبادة السطحية والمعانى العامة الباهتة ، آخذ فى التفرنج . ولسوف يحىء يوم يجد فيه القوميون أنفسهم المدافعين الوحيدين عن الإسلام ، ويضطرون لأن يبعثوا فيه معنى خاصا إذا أرادوا أن يبقى للأمة العربية سبب وجيه للبقاء . . !» (٤) .

وحتى يواجه الغرب جهود المسلمين للبعث القومى والتجديد الحضارى . . وحتى يشيع « طبعات الإسلام المتفرنج » ، الذى لا يقض له مضجعا . . فإنه يحرس الجمود الفكرى ، لتظل أوعية الفكر العربى فارغة من

(٣) [آفاق عربية] : ص ٦ ، ٨ - عدد إبريل ، سنة ١٩٧٦م -

(٤) [فى سبيل البعث] : - طبعة دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٤م - ص ١٣٠ ، ١٣١ -

« ذكرى الرسول العربى » - ٥ - ٤ - ١٩٤٣م - .

المضامين الجديدة الحية الفاعلة ، ومن ثم قابلة للامتلاء بالمضامين الغربية التي تشد العقل العربى والمسلم بخيوط التبعية الفكرية إلى المركز الحضارى الغربى . . الأمر الذى يمهد لتبعية أرضنا وخيراتنا وكل مالدينا لمراكز الغرب المتخصصة فى النهب والاستغلال . . هكذا حدد ميشيل عفلق دور الغزو الفكرى فى غزو الأرض ونهب الخيرات . . وحدد مكان التعليم القومى والفكر المستقل فى حرب التحرير ضد هيمنة الحضارة الغربية الغازية . . « إن الفلسفات والثقافات تأتى من الغرب ، وتغزو العقل العربى ، وتحتل ولاءه ، قبل أن تغتصب أرضه وسماؤه ! ولذلك ، فإننا نريد تعليمًا قوميا موحد البرامج ، يستمد أصوله من خصائص الأمة العربية ، ومن روح ماضيها ، وحاجات مستقبلها ، ويحفظ ولاء النشء للوطن العربى والقضية العربية . . ونريد ألا تبقى الثقافة غاية فى نفسها ، بل وسيلة لتقويم الأخلاق وتنشئة مناضلين فى سبيل البعث العربى ! . . » (٥) .

ولا يحسبن أحد أن دعوة ميشيل عفلق .. وأمثاله ... من أنصار التمايز الحضارى والخصوصية الحضارية والاستقلال الحضارى ، هى محض تعصب قومى ، منبعث عن الاحتكاك العنيف بين الاستعمار الغربى وبين أمتنا العربية . . لأن الرجل كان ينبه على حقيقة علمية موضوعية ، صادقت عليها التجربة التاريخية ، ألا وهى عدم ملائمة النظريات الغربية ، التى تمثل «خصوصية حضارية غربية» ، عدم ملائمتها لاحتياجاتنا العربية ، وفشل المحاولات التى بذلت لإنباتها ، قسرا ، فى تربتنا الحضارية . . كما كان ينبه على أنه أبعد ما يكون عن الدعوة للانغلاق الحضارى ، وللعزلة الحضارية ،

(٥) [فى سبيل البعث] : ج ٤ ، ص ١٧ - «البعث والمركة الانتخابية الأولى» - ٢٤ - ٧ - ١٩٤٣م .

ولاكتفاء حضارتنا بذاتها . . وإنما هو من دعاة الاتصال بالغرب ، والاستفادة من حضارته ، ولكن بعد «تكوين شخصيتنا القومية» ، لتكون لهذه الشخصية - أثناء التفاعل الحضارى - القدرة على التمييز بين مصادر القوة وبين عوامل المسخ والتشويه . . وفى هذه القضية وهذه المعانى كتب يقول :

«إن لسلامة العربية تاريخاً مستقلاً عن التاريخ الغربى الأوروبى ، وإن النظريات والأنظمة المنبعثة من حضارة الغرب وأوضاعه لاتلبى حاجات البيئة العربية ، ولا تلقى فيها تقبلاً . . ولكن العرب لاينكرون ضرورة اتصالهم بالعالم الحديث ، إلا أنهم لا يرون إمكان الإفادة من الاتصال الثقافى إلا إذا تكونت شخصيتهم القومية ، وبلغت حداً كافياً من النمو والوضوح والوعى لخصائصها يسمح لها بتمثل الأفكار الأجنبية ، وتحويلها إلى مايزيد فى نموها وتوضيح اتجاهها . .» (٦)

فاختلاف المسيرة الحضارية ، تاريخياً ، بين أمتنا وبين أمم الحضارة الغربية ، قد أفصح عن اختلاف الهوية الحضارية بيننا وبينهم ، الأمر الذى ميز قوميتنا عن القوميات الغربية . . ومفاهيم حضارتنا فى الحرية ، والعدالة ، والإنسان وحقوقه ، والدين والتدين . . إلخ . . إلخ . . عن نظيرتها فى الحضارة الغربية . . لقد اختلفت مسيرة التطور . . واختلفت مشكلاتها . . ومن ثم فلا بد وأن تختلف الحلول . . وكما يقول ميشيل عفلق : «فإن الشبه بيننا وبين الغرب ، فى الواقع ، ضعيف جداً ، أو غير موجودا . فالغرب لم يمر بما مررنا به من مأس وآلام ، ومن خضوع للاستعمار والتجزئة ، إلخ . . فالحركات القومية الغربية نشأت فى ظروف مختلفة مصحوبة بالطموح واكتشاف ثروات

(٦) [فى سبيل البحث] - طبعة دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٤ - ص ٣٠٠ ، ٣٠١ -
«موقفنا من النظرية الشيوعية» - سنة ١٩٤٤ م -

جديدة ، واكتشاف العلم الحديث بقوانينه ، فأصبحت منذ ولادتها بأمراض التوسع والسيطرة . ولكن حركتنا القومية نشأت كأعمق جواب إنساني على ظلم الإنسان للإنسان . . على المصير الإنساني بكامله . نشأت ثمرة ناضجة لكل هذه الآلام التي عاينناها بأنفسنا ، وكأننا عاينناها نيابة عن شعوب الأرض كلها ! فالاحتمال ضعيف بأن ننتهي إلى حيث انتهى الغرب . . . » (٧) .

ولذلك ، فإن التقليد لامبرر له ، فضلا عن أنه غير مجد ولا مفيد . . علاوة على أضراره القاتلة ، المتمثلة في ضمور ملكات الخلق والإبداع لدى المقلدين ، إلى الحد الذي يصيبهم بالضمور والذبول ، فيساقون إلى التبعية مكبلين بأغلال التقليد . . « فنحن لا نريد لنهضتنا القومية أن تكون مقلدة ، أن تنقل مجرد نقل من الحضارة الأجنبية ، وإن كنا بحاجة إلى التفاعل مع حضارة العالم ، لكن نريد أن يأتي ذلك بشكل طبيعي ، وأن يتفاعل مع مميزات شخصيتنا القومية ، وأن يكون الاقتباس من الخارج مساعدا على نبش واكتشاف وإظهار مزايا وخصائص الشخصية القومية وما فيها من قوة وإبداع . . » (٨) .

وهذا التقليد للنموذج الحضاري الغربي ، الذي رفضه وأكد على رفضه ميشيل عفلق ، يستوى عنده وفيه أن يكون تقليدا للنموذج الشيوعي ، أو النموذج الليبرالي في الحضارة الغربية . . فاشتراكية البعث عربية ، مناهضة ومناقضة للماركسية والشيوعية . . والحرية ، بنظر البعث ، ليست ليبرالية الغرب . . ذلك أن للتراث الروحي لأمتنا مقام الرّجيم التي تشكل ، هي والواقع العربي المعاصر ، سبل النهضة القومية والحضارية العربية المعاصرة . .

(٧) [في سبيل البعث] : ج ٥ ، ص ٢٦ - « إنسانية نضال الأمة العربية » - يوليو سنة ١٩٥٨ م .

(٨) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ١٩٠ - « القطر الصامد ينهض بمسئولية المصير القومي » - ٢١ - ٦ - ١٩٧٤ م .

بينما نهاذج الغرب - الشمولية والليبرالية - جميعا تتفق على اجتثاث تراثنا ونسخه إذا نحن قلدنا آيا منها . . « فالاتجاه الشيوعى ينكر كل ماض . . وهناك اتجاه آخر ينكر الماضى عامة فى مظاهره فقط ، وفى الواقع ينكر الماضى العربى ، وهذا الاتجاه هو الاتجاه المعجب بالغرب وحضارته ، والذي يدعو إلى إهمال الماضى وتناسيه وأخذ الحضارة الغربية بكليتها . . ونحن ننظر إلى الماضى لنفيد منه ، لالنفيدة ، لأنه بغنى عنا ! ولنعين الأسس التى يجب أن نبنى عليها مستقبلنا هذا منذ الحاضر ، فهذه الأسس يجب أن تكون مطلقة ثابتة ، فلا خير فى أساس يتبدل مع الزمن ، ويصلح لقسم من المواطنين ، أو لنوع من التفكير ، كما أنها يجب أن تكون أسس حية ، معجونة بدم الواقع ، منسوجة بنسيج التجارب . . » (٩) !

إن استعارة النموذج الغربى ناسخة لأصالتنا . . وخاصة « للمطلق والثابت » فى هذه الأصالة . . ثم إن هذه الاستعارة إنما تقدم لنا نموذجا غير صالح للازدهار والفعل فى واقعنا . . فالرسالة الشيوعية خاصة بطبقة من طبقات المجتمع . . والرسالة الليبرالية خاصة بطبقة أخرى من طبقاته . . بينما رسالة أمتنا موجهة لكل الأمة ، وهى المكلفة بحملها ، وبلاغها إلى العالمين ! . .

هكذا . . وعلى هذا النحو تألق وعى ميشيل عفلق ، فى مواجهة الهيمنة الحضارية الغربية ، عندما تحدث عن « الغزو الفكرى الغربى » للعقل العربى والمسلم . . وعن التمايز الحضارى لأمتنا وحضارتنا وعن علاقة ذلك بالإسلام . . وبالصراع الحضارى بين الغرب وبين أمة الإسلام ! . .

(٩) [فى سبيل البعث] - طبعة دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٤م - « الرسالة الخالدة » - ١٩٤٦م .

الغرب.. والأقليات المسيحية العربية

في الغزوة الغربية الصليبية على بلادنا.. وهي التى استمرت قرابة القرنين [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ ، ١٠٩٦ - ١٢٩١ م].. كان الغرب فى مرحلة انحطاطه الحضارى ، فجاءنا بالقوة المدمرة وبالنهب الاقتصادى . . ولم يكن لديه «فكر» يغرى العقل العربى والمسلم بتقليد الغزاة . . ولذلك ، فعندما زالت آخر قلاعها العسكرية من فوق سواحل الشام ، زالت كل آثار تلك الغزوة الصليبية ، دون أن تترك لها أثرا فى عقل عربى مسلما كان أو مسيحيا . .

لكن حال الغرب.. وأيضاً حالنا.. كان قد اختلف عندما بدأ غزوته الحديثة لبلادنا العربية . . وهي التى بدأت بحملة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] على مصر [١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م].. كان الغرب قد نهض فغادر عصوره الوسطى والمظلمة ، فتسلحت قوته الحربية الغازية بفكر عصر نهضته ، ومن ثم فلقد كان لدى هذه الغزوة.. على جبهة الفكر.. ماتغرى به ، وما تدعو إلى أن نقلدها فيه . . لقد جاء بونابرت ، لا بالمدفع وحده . . ولا بالنهب الاقتصادى فحسب . . وإنما جاء بالمطبعة . . والصحيفة . . والمنشورات . . وبالبعثة العلمية . . ومنذ اللحظة الأولى ، فى غزوته ، مد الحبال وفتح القنوات بينه وبين عقل وفكر البلاد التى جاء إليها غازيا . .

وهناك حقيقة لا أعتقد أن أحدا يمارى فيها . . وهي أن هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة.. التى بلغ عمرها الآن عمر الغزوة الصليبية.. قد نجحت ، على جبهة الفكر ، فيما فشل فيه الصليبيون ! . .

لقد نجحت حملة بونابرت فى استقطاب نفر من «أراذل القبط».. كما سهاهم الجبرتى [١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ ، ١٧٥٤ - ١٨٢٢ م] ، فحاربوا فى صفوفها بقيادة قائدهم «الجنرال» يعقوب [١٧٤٥ - ١٨٠١ م] ، الذى سماه الجبرتى «يعقوب اللعين» ! . .

صحيح أن هذه الفئة قد لعنها جمهور الأقباط . . ولعنتها الكنيسة القبطية . . كما لعنها الشعب بأجمعه . . وأن صفحتها قد طويت عندما خرجوا مع جنود الحملة المنهزمة [١٢١٦هـ - ١٨٠١م] . . لكن هذا الحدث قد ولد في الواقع السياسى والفكرى آثارا بقيت ونمت منذ ذلك التاريخ . .

لقد التقط البعض - وخاصة من أبناء الأقليات الدينية العربية - من الجنرال يعقوب مفهوما «للاستقلال» يروونه ، بالنسبة للوطن ، استقلالا عن المحيط العربى الإسلامى ، وبالنسبة للهوية استقلالا عن التراث . . وكان معنى هذا «الاستقلال» هو استبدال الغرب وحضارته بالمحيط العربى الإسلامى وهويته وتراثه . . فكان أن تخلق في واقعنا - وخاصة بين نفر من مثقفى الأقليات الدينية - اتجاه التقليد للغرب المنتصر، والاستعارة لنموذجه الحضارى ، كبديل للإسلام . . ومفهوم للوطن والوطنية مناهض للرابطة العربية والوحدة الإسلامية . . لقد تخلق تيار «التغريب» ، الذى أراد أنصاره إلحاق بلادنا بالغرب حضاريا . . وهؤلاء الأنصار، كان منهم المسلمون الذين انبهروا بالحضارة الغربية ، فظنوا - كاجتهاد خباطى - أن ذلك هو السبيل للقوة التى نواجه بها الاستعمار الغربى . . بينما كان الكثيرون من متغربى الأقليات الدينية غير المسلمة على وعى بأن النموذج الحضارى الغربى هو البديل للإسلام الذى يكرهون !! .

وإذا كان الجنرال يعقوب وفيلقه قد مثلا بداية هذه « الثغرة » التى فتحتها الغرب في جدار وحدتنا الوطنية والقومية ، إبان بدايات غزوته الحديثة لبلادنا . . فإن مدرسة «المقطم» و«المقتطف» قد كانت أبرز حلقات التبشير بالتغريب والإلحاق الحضارى لبلادنا بالغرب . . في حقبة تصاعد الزحف الاستعمارى على بلادنا، وبعد سقوط مصر في يد الإنجليز [١٢٩٩هـ ، سنة ١٨٨٢م] . .

فكانت نواة هذه المدرسة مسيحية مارونية . . ثم استقطبت العديد من المثقفين ، الذين كان أغلبهم من أبناء الأقليات غير المسلمة . . كانت النواة : يعقوب صروف [١٨٥٢ - ١٩٢٧م] ، وفارس نمر [١٨٥٦ - ١٩٥١م] ، وشاهين مكاريسوس [١٨٥٣ - ١٩١٠م] . . والتف حولهم : شبلى شميل [١٨٦٠ - ١٩١٧م] ، ونقولا حداد [١٨٧٨ - ١٩٥٤م] ، وجرجى زيدان [١٨٦١ - ١٩١٤م] ، وفرح أنطون [١٨٧٤ - ١٩٢٢م] ، وسلامة موسى [١٨٨٨ - ١٩٥٨م] . . إلخ . . إلخ . .

وإذا كان الغرب الاستعماري لم ينجح بمصر - لوحدة النسيج الوطنى للشعب - فى أن يستقطب الأقلية الدينية بكاملها ، أو بغالبيتها ، فظلت تأثيراته فى بنيتها أثرا من آثار التغريب الذى لم يسلم منه العقل الإسلامى . . إلا أنه قد نجح فى شىء من ذلك على أرض لبنان ، فتوجهت أقليات دينية ، يعقوب وأفئدة أغلبية التيار العام فيها إلى الغرب ، تحتمى بنموذجه الحضارى بديلا عن نموذج العروبة والإسلام . . ولقد كانت « المارونية السياسية » نموذجا لهذه « الثغرة » التى فتحتها الاستعمار فى هذا الجدار ! . .

وإذا كان تيار الإصلاح الإسلامى ، الذى تصدى للاستعمار وللتغريب ، قد وعى هذه الحقائق وعيا كاملا وناضجا . . فإن ميشيل عفلق قد كان أبرز قادة التيار القومى العربى وعيا بهذه الحقائق . . وأكثرهم جرأة فى الكشف عن أبعادها الاستعمارية ، ومخاطرها على القومية . . كما تألفت جسرأته فى الإصرار على أن العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام لا بد أن تجعل المكان الطبيعى للأقليات المسيحية العربية مع الأغلبية المسلمة ، أمة واحدة ، تناضل لإحياء وتجديد حضارتها الواحدة ، تلك التى اصططغت تاريخيا بصبغة الإسلام . . فالمتدينون بالإسلام ، هو لهم : دين ، وقومية ، وحضارة . . والمتدينون

بالمسيحية، الإسلام لهم: قومية، وحضارة، وثقافة . . فالجميع أمة واحدة، ذات حضارة واحدة، في مواجهة الاستلاب الغربى وغزو التغريب! . .

هكذا رأى ميشيل عفلق القضية . . وعلى هذا النحو عالج «الثغرة» التى فتحها الغرب فى جدار الوحدة القومية والحضارية، على جبهة الأقليات . . والأقليات المسيحية على وجه الخصوص . .

ولقد كان وعيه هذا سمة من السمات الثابتة فى فكره . . منذ بدأ مسيرته الفكرية، وحتى آخر الصفحات التى سطرها فى مشروعه الفكرى . .

* * *

فى سنة ١٩٤٣ م . . يتحدث ميشيل عفلق عن التأثيرات الغربية على انتهاء الأقليات المسيحية . . وينبه على مخاطر سلبيات هذه التأثيرات على هذا الانتماء القومى والحضارى . . فىقول :

«إن الفروق الطائفية أبعدت قسما هاما من العرب، عن روح بلادهم وتقاليدها، وجعلتهم شبه غرباء فى وطنهم، وأضعفت، بالنتيجة، مساهمتهم فى الحركة القومية . . ونحن نريد أن تستيقظ فى المسيحيين العرب قوميتهم يقظتها التامة، فىروا فى الإسلام ثقافة قومية لهم، يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها، لأنه متصل بطبعهم وتاريخهم، ولأنه الميدان الذى برهن العرب فيه على كفاءتهم فى تسامى الروح وخصب الفكر وقوة الأخلاق . . (١٠) . .»

ثم يتحدث - فى مناسبة أخرى - بنبرة السواثق، عن أن المستقبل سيشهد توجه أبناء الأقليات المسيحية العربية فى هذا الاتجاه . . فىقول :

(١٠) المصدر السابق : ج ٤ ، ص ١٧ - «البعث والمركة الانتخابية الأولى» - ٢٤ - ٧ - ١٩٤٣ م .

« . . وسوف يعرف المسيحيون العرب ، عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة ، ويسترجعون طبعهم الأصيل ، أن الإسلام هو لهم ثقافة قومية ، يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها ، فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أئمن شيء في عروبته . وإذا كان الواقع لايزال بعيدا عن هذه الأمنية ، فلإن على الجيل الجديد من المسيحيين العرب مهمة تحقيقها بجرأة وتجرد ، مضحين في سبيل ذلك بالكبرياء والمنافع ، إذ لا شيء يعدل العروبة وشرف الانتساب إليها ! . . » (١١) .

فالرجل غير حالم . . وإنما هو مدرك أن الطموح الذي يتطلع إليه « لايزال بعيدا » . . لكنه يدعو « الجيل الجديد من المسيحيين العرب » للتغلب على العقبات القائمة على هذا الطريق . .

ولقد نبه ميشيل عفلق على أن هذه العقبات هي من صنع الاستعمار . . وأن أغلبها هي تأثيرات فكرية زرعها في عقول القيادات والنُخب المثقفة المسيحية ، ومصالح رتبها الاستعمار لئلا من أبناء هذه الأقليات . . فالاستعمار « يغذيهم بأفكاره الخاطئة » ، والمدارس الأجنبية . . والمدارس التبشيرية قد أحدثت . . على امتداد قرن كامل . . تشوها ثقافيا ، بما نفشت من سموم في تلك الأوساط . . حتى خلقت تيارا انعزاليا ذا وعى وشعور منحرف ، يزعم أنه غير عربي ، ويسعى للتحالف مع الغرب ضد العروبة والإسلام ! ! . . »

ينبه ميشيل عفلق على هذه العقبات المؤقتة . . ويدعو إلى التصدي لها . . وهو يتحدث عن الأقليات المسيحية في لبنان . . والأقلية المارونية منها خاصة . . فيقول . . في سنة ١٩٥٥ م : « . . لا يجوز لنا أن نضحى بفكرتنا التي نؤمن بها

(١١) [في سبيل البعث] - طبعة دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٤ م - « ذكرى الرسول العربي » ٥ - ٤ - ١٩٤٣ م .

أمام عقبات مؤقتة . فلمجرد وجود مسيحيين في لبنان يغذيهم الاستعمار بأفكار خاطئة ، هل نساير لبنان ونقول له : إنه غير عربي ؟! . كلا ، لا يمكن أن نضحى بفكرتنا . وواجبنا أن نشرح للبنانيين الانعزاليين بأن العروبة التي نعمل لها تمنع الضغط الديني وسيطرة طائفة دينية على أخرى . إنهم يتهربون من العروبة - وهي مرادفة في نظرهم للإسلام - لأنها ، في نظرهم لا تسمح بتكوين مجتمع يحفظ حرية الفرد ويساير التطور الحديث في العالم . فاللبنانيون تذوقوا مظاهر الحضارة الغربية أكثر من أي قطر عربي آخر ، وتعلقوا بالحرية الفردية ، فهم يخشون ، بعد أن حصلوا على شيء من هذه الحرية ، إذا اندمجوا في الجسم العربي أن يفقدوا حريتهم . » (١٢) .

وفي مناسبة أخرى ، يعرض ميشيل عفلق لهذه « المخاوف » ، فينفى وجود أساس موضوعي لها . . ويرجعها جميعا إلى تأثيرات التغريب والفكر الذي زرعه الاستعمار . فيتحدث ، مشيرا إلى الصراع العنيف الذي بدأ في لبنان منذ سنة ١٩٧٥ م ، فيقول :

« إن ماجرى ويجرى في لبنان ليس حربا طائفية ، ولا هو صراع طبقي ، وإنما هو صراع بين الأمة وأعدائها . . صراع بين التقدم والتخلف . . صراع بين الوحدة والانفصال . . صراع بين النزوع والتوجه إلى الحضارة العربية العريقة الأصيلة وبين تبني الحضارة الزائفة المصطنعة القائمة على النقل والتقليد . . . لقد كان واضحا في كتابات الحزب منذ أوائل الأربعينات ، عندما انتقدنا تلك القومية المجردة ، التي كانت تتصل من التراث ، وكأنه عاهة ، فتفقد قوميتنا دمها ولحمها وروحها وعمقها ، وترك

(١٢) المصدر السابق : ص ١٧٣ ، ١٧٤ - « قوميتنا المتحررة أمام التفرقة الدينية والعنصرية » - ١٩٥٥ م .

الطوائف الأخرى أسيرة لعزالتها واغترابها وارتمائها للثقافات والولاءات الأجنبية المعادية ، بدلا من طرح المسألة على حقيقتها ووضوحها ، لمساعدة هذه الطوائف على تطوير نفسها ومراجعة مواقفها وعاداتها واكتشاف ذاتها وطريق مستقبلها . . « (١٣) .

فمرجعية التراث القومي - الإسلام - هي الرباط الجامع لأبناء الأمة العربية ، كقومية واحدة ذات حضارة إسلامية واحدة ، في مواجهة الآخر الحضارى . . وليست مبررا للتشرذم القومى ، كما يحسب ويتوهم دعاة تجريد قوميتنا من مرجعية هذا التراث . . فالإسلام وحضارته رباط جامع وموحد ، على عكس الوهم الزائف الذى صبه الاستعمار فى عقول الانعزالين المسيحيين ! . .

ويمضى ميشيل عفلق - فى مناسبة أخرى - فيقدم لنا صياغته الرائعة لعلاقة العروبة بالإسلام ، وكيف أن «العروبة تعنى الإسلام» ، ولذلك «فلا يوجد عربى غير مسلم» !! . . بل ويستشهد على فهمه هذا بكتابات نفر من عقلاء المارونيين ! . . يقول سنة ١٩٧٦ م .

«البعث وضع الإسلام ، كثورة أخلاقية وفكرية واجتماعية حاسمة فى تاريخ البشر ، وضعها فى صلب القومية العربية . وبهذا المعنى لا يوجد عربى غير مسلم . هذا إذا كان العربى صادق العروبة ، وإذا كان متجردا من الأهواء ومتجردا من المصالح الذاتية . العروبة تعنى الإسلام ، بهذا المعنى الرفيع الذى لاتعصب فيه ولا تميز ولا أى شىء سلبى . .» .

ثم يستطرد ، مستشهدا بكتابات مسيحية مارونية . . فيقول : « . . . ولا بأس أن أتوسع قليلا ، وأخذ من حوادث لبنان أمثلة حية ، أمثلة فى

(١٣) [فى سبيل البعث] : ج ٣ ، ص ١١٤ - « التراث عزز صمود الأمة وأعطى للثورة العربية مستواها العالمى » - ٧ - ٤ - ١٩٧٦ م .

غاية الأهمية . . قبل سنتين على الأقل أخذت تظهر أفكار في لبنان ، من الطوائف المسيحية ، من أفراد ومجموعات صغيرة تتمرد على المفهوم الطائفي الرائج ، ومن النظرة الضيقة ، وعلى التعصب . . الشيء الجديد هو أن بعض هذه الأفكار كان يقول ، ويصرح بجرأة بأن الموقف المسيحي من الإسلام كان خاطئاً من أساسه ، وأنه متأثر بالتبعية للغرب ، ومتأثر بالتربية الاستعمارية في المدارس الأجنبية ، وأن النظرة الجديدة إلى الإسلام يجب أن تكون أنه هو الدين الثوري الإنساني ، وأن العروبة والإسلام متلازمان . . بل إن بعضهم خطا خطوة أكثر جرأة ، وكتب - وهو رجل دين ماروني - مقالا طويلا وعلميا ومدعوما بالشواهد التاريخية يقول بأن نشأة المارونية لم تكن ضد الإسلام ، بل إن الموازنة هربوا إلى لبنان من اضطهاد الفرق المسيحية الأخرى لهم ، التي كانت تستعين بالدولة البيزنطية ، ولم يدخلوا في صدام أو خلاف مع العرب المسلمين . ثم يستعرض حقبا من التاريخ ، وينتهي إلى القول ، وإلى مصارحتهم بأنهم وجميع المسيحيين في هذا الشرق العربي ، إذا لم يقبلوا ، عن طوع وإرادة واقتناع ومحبة ، بأن يكونوا ، بمعنى من المعاني ، مسلمين ، فإنهم لا يكونون أمناء لفكرهم ووطنهم وعروبته . . » . .

ثم يعلق ميشيل عفلق على مقال رجل الدين الماروني هذا ، فيقول : « . . هذا ماقلناه قبل ثلاثة وثلاثين عاما - في عام ١٩٤٣ م - بأن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم سوف يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها ويحرصوا عليها حرصهم على أئمن شيء في عروبته . . » . .

ولا ينسى ميشيل عفلق أن ينبه على تقصير حزب البعث في العمل على هذه الجبهة . . جبهة إبراز الإسلام كرباط جامع بين العرب جميعا ، على اختلاف

الديانات . . فيقول : « لم يفعل الحزب شيئا كثيرا لنشر هذه الأفكار وللدعاية لها ولتوضيحها ولتوسيعها ، ولكن تطور الأحداث خلال ثلاثين عاما أوصل إلى هذه النتائج عند البعض ، وهي بدايات لاشك أنها ستكون لها تنمية . . » (١٤) .

وفي الوقت الذي أشاد فيه ميشيل عفلق بهذا التطور الفكري لدى بعض مثقفي المارونيين ومفكرهم . . كانت إدانته للفريق الانعزالي ، الصادر في دعاواه الانعزالية عن تأثيرات التغريب الاستعماري . . فتحدث عن دعاوى هذا الفريق ، فقال :

«صرنا نسمع بالعنصر الماروني ، وكأنها قومية ، أو عنصر متميز ، له تاريخ وله حضارة !! وهم شعب عربي مثل باقي العرب . وإنما هي قيادات نفعية ، وذات أطماع سياسية وطبقية ، استندت إلى تشويه ثقافي امتد ردحا من الزمن ، مدة قرن كامل ، والمدارس التبشيرية تنفث سُمومها في تلك الأوساط وتخلق وعيا منحرفا وشعورا منحرفا بأنهم ليسوا عربا ، وأنهم شيء آخر ، وبالتالي يمكن أن يتحالفوا مع أعداء العرب لكي يستقلوا ويتحرروا . هذه افتعالات ضد طبيعة الأشياء ، لن يكتب لها البقاء ، لن تدوم طويلا . . » (١٥) .

وإذا كان ميشيل عفلق قد دعا المسيحيين العرب ، في سنة ١٩٤٣ م ، إلى أن يفهموا الإسلام ويحبوه ويحرصوا عليه حرصهم على أئمن شيء في عروبتهم . . ثم استمرت هذه الدعوة في مشروعه الفكري ، بارزة وملحوظة ، فلقد كان خطابه سنة ١٩٨٦ م - في ذكرى تأسيس الحزب - مناسبة لتجديد هذه الدعوة ،

(١٤) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٣٣ - ٣٥ - «أصالة الأمة قوة نضالية متجددة» - ١٩ - ١ - ١٩٧٦ م - .

(١٥) المصدر السابق : جـ ٥ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ - «الثورة العربية في طريق النضج» - ١٠ - ٥ - ١٩٧٧ م - .

وللتعجب من الذين لا يستجيون لندائها! . . يقول الرجل ، فى هذا الخطاب التاريخى :

« . . ولئن كان عجبى شديدا للمسلم الذى لا يحب العرب ، فعجبى أشد للعربى الذى لا يحب الإسلام . . لقد كانت رؤيتنا القومية الحضارية لمستقبل الأمة - وذلك منذ بداية الحزب - أن يساعد الكشف عن خصوصية العلاقة بين العروبة والإسلام ، على أن تكتشف الطوائف العربية غير المسلمة ، أن الإسلام هو ثقافتها ، وحضارتها ، وأثمن شىء فى عروبته ، تباهى به حضارات الأمم الأخرى . ومن قبل بداية الحزب بسنين عديدة ، كان إدراكنا لخطر الاستعمار الثقافى الغربى على هذه الطوائف ، وأن إنقاذ هذه الطوائف من الغربة الحضارية ، لا يكون بغير تعميق الثقافة العربية الإسلامية وتعميمها كثقافة للأمة كلها . . » (١٦) .

هكذا . . وعلى هذا النحو ، تناول ميشيل عفلق قضية الأقليات المسيحية العربية . . وعالج « الثغرة » التى فتحها الاستعمار فى جدار الوحدة القومية والحضارية عن طريق الفكر الاستعمارى الذى شوه رؤية نفر من أبناء هذه الأقليات . . وقدم الرجل - من موقع الريادة لأبرز مشروعات الفكر القومى العربى - الرؤية القومية للمكان الطبيعى لهذه الأقليات فى مشروع النهضة العربية . .

إن الإسلام ليس ديناً فقط ، حتى يكون خاصاً بالمسلمين الذين يتدينون به كعقيدة دينية . . وإنما هو ، مع ذلك ، « قومية وحضارة وثقافة » . . ولذلك فهو بالنسبة لغير المسلمين ، من العرب ، قومية وحضارة وثقافة . . ومن ثم ،

(١٦) المصدر السابق : ج ٣ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ - « من أجل عمل عربى مستقبلى » - ٧ - ٤ - ١٩٨٦ م -

فهو رباط جامع للأمة ، يميز حضارتها ومشروعها النهضوى عن الحضارة الغربية وثقافة التغريب . .

الغرب .. واليهودية - الصهيونية

وإذا كان « النجاش » الذى أحرزته الغزوة الاستعمارية الغربية على جبهة الأقليات المسيحية العربية ، قد كان - وظل - محدودا ، وشاذا ، ومحاصرا بالمنطق الوطنى والقومى والحضارى ، الذى يؤكد على وحدة الأمة ، قوميا وحضاريا ، فى مواجهة الغرب وحضارته . . فإن هذه الغزوة الاستعمارية قد أصابت نجاحا أكبر عندما عقدت خيوط حلف غير مقدس بين حضارتها المسيحية وبين اليهودية - الصهيونية لإقامة قاعدة للحضارة الغربية ورأس جسر لاستعمارها فى قلب وطننا العربى ، على أرض فلسطين . .

ولقد كانت الريادة فى هذا الميدان أيضا لبونا برت !! .

ففى ٤ إبريل سنة ١٧٩٩ م . . ومن أبواب مدينة «عكا» - أثناء حصاره لها - أصدر بونا برت نداءه الشهير إلى يهود العالم ، يدعوهم فيه إلى التحالف مع فرنسا ، لإقامة إمبراطوريتها الشرقية ، مقابل مساعدتهم فى السيادة على الوطن الذى تزعم أساطيرهم الدينية أنه وعد الله لشعبهم المختارا ! . . فى هذا النداء ، خاطب بونا برت اليهود ، فقال :

« . . إن العناية الإلهية ، التى أرسلتنى على رأس هذا الجيش إلى هنا ، قد جعلت رائدى العدل ، وكفلتنى بالظفر ، وجعلت من (القدس) مقرى العام ، وهى التى ستجعله بعد قليل فى (دمشق) ، التى لا يضير جوارها بلد (داود) ! . .

يا ورثة فلسطين الشرعيين ، إن الأمة العظيمة - [فرنسا] - التى لا تتجر

بالرجال ، كما فعل أولئك الذين باعوا أجدادكم للشعوب - تناديكم الآن ، لا للعمل على إعادة احتلال وطنكم فحسب ، وليس بغية استرجاع ما فقد منكم ، بل لأجل ضمان ومؤازرة هذه الأمة ، لتحفظوها مصونة من جميع الطامعين بكم ، كيما تصبحوا أسيا د بلادكم الحقيقيين ! . .

انهضوا ، وبرهنوا على أن القوة الساحقة التى كانت لأولئك الذين اضطهدوكم لم تفعل شيئا بسبيل تشييط همة أبناء هؤلاء الأبطال الذين كانت محالفة إخوانهم تشرف (إسبارطه) و(روما) (١٧)!! » .

لقد استنهض بونا برت همة يهود العالم ، للتحالف مع المشروع الاستعماري الفرنسي ، مذكرا إياهم بأن ما يدعو إليه اليوم من تحالف . إنما يستهدف استعادة الشرق من جديد . . الشرق الذى اقتلعت فتوحات الإسلام منه آثار غزوة الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ ق . م] . . ثم اقتلعت منه دول الفروسية الإسلامية دويلات الصليبيين . . وهاهو ذا بونا برت يدعو إلى حلف « غربى - يهودى » يحقق لطليعة الغزوة الغربية الحديثة موطن قدم فى قلب وطن العروبة وعالم الإسلام .

ومنذ ذلك التاريخ ، وعلى امتداد القرنين الماضيين ، استمر وتدعم هذا التحالف « الغربى - اليهودى » ضد العرب والمسلمين - مع تغير فى القيادة الغربية لهذا التحالف - إنجلترا بعد فرنسا ، وأمريكا بعد إنجلترا - وقامت الدولة الصهيونية . . وبرزت فى الكتابات والممارسات الاستعمارية الشواهد التى تعطى هذا التحالف أبعاده الدينية والحضارية - وليس فقط السياسية والاقتصادية - حتى أصبح من الحقائق التى لا سبيل إلى التعمس عن إدراكها أن مواجهة

(١٧) انظر كتابنا : [إسرائيل . . هل هى سامية ؟] : ص ٣١ ، ٣٢ طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٧ م .

التحدى الصهيونى إنما هى مواجهة للمشروع الغربى الاستعمارى . . مواجهة للحضارة الغربية التى أدخلت اليهودية ، مع المسيحية ، ضمن البعد الدينى فى مكوناتها وأبعادها .

لقد صرح « جون فوستر دلاس » [١٨٨٨ - ١٩٦٩ م] عن البعد الدينى والحضارى للتحالف « الغربى - اليهودى » ، فقال : « إن مدنية الغرب قد قامت ، فى أساسها ، على العقيدة اليهودية فى الطبيعة الروحية للإنسانية . ولذلك يجب أن تدرك الدول الغربية أنه يتحتم عليها أن تعمل بعزم أكيد من أجل الدفاع عن هذه المدنية التى معقلها إسرائيل !! » (١٨) .

فإسرائيل - بنظر دلاس - هى معقل المدنية الغربية . . ومن ثم ، فإن الشراكة بين الغرب وبين الصهيونية ذات أبعاد دينية وحضارية ، فضلاً عن الاشتراك فى معاداة العرب وكراهية الاسلام . .

تلك هى الخلفية الحضارية والدينية للصراع « العربى - الغربى » على هذه الثغرة من الجبهة الممتدة لهذا الصراع التاريخى . . وهى خلفية قد وعاما ميشيل عفلق على نحو يستحق التقدير والاعجاب . .

* * *

ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن ميشيل عفلق قد تميز عن جبهة المفكرين القوميين العرب ، عندما أبصر البعد الدينى والطابع الدينى فى عداء الغرب للأمة العربية . . والطابع الدينى للغزوة الصهيونية فى قلب الوطن العربى . . فلسطين . . فكثيرون من المفكرين القوميين العرب - بسبب التوجه العلمانى -

(١٨) المرجع السابق : ص ٢١ .

قد غفلوا عن هذا البعد والطابع في هذا الصراع . . . وحسبوا أن من «التقدمية» ومن «التسامح» أن ينكر المرء الطابع الديني لهذا الصراع ! .

وإذا كنا قد سبق وأن أوردنا نصوصه في البعد الديني لعداء الغرب للأمة العربية . . . ودور عدااء الغرب للإسلام في صراع الغرب ضد أمتنا . . . فإن إشارات إلى نصوصه حول الطابع الديني للغزوة الصهيونية . . . والبعد الديني في التحالف الغربى - اليهودى - الصهيونى . . . ودخول اليهودية - مع المسيحية - ضمن مكونات الحضارة الغربية المعادية لحضارتنا ، بعد التحالف الغربى - اليهودى . . . إن إشارات إلى نصوص ميشيل عفلق حول هذا الأمر ، هى ضرورة لإبراز هذه السمة من سمات فكره ، الذى تميز - كما أشرنا - عن كثير من تصورات كثير من المفكرين العرب القوميين . . .

● فى سنة ١٩٤٦ م . . . كانت لمناهج التحليل الماركسى والمادى سطوة على دوائر الفكر والثقافة فى عالمنا العربى - وهى المناهج التى لاتبصر للصراعات السياسية أسبابا سوى الأسباب المادية والاقتصادية . . . ولكن ميشيل عفلق يتحدث عن الغزوة الصهيونية ، فىرى فى البعد الدينى عاملها الأول . . . كما يرى فى «الإيمان» سلاح المقاومة الأفضل لهذه الغزوة ! . . . ويذكر بوجه الشبه بين هذه الغزوة وبين الحروب الصليبية ! . . . «فالخطر الصهيونى ليس مجرد غزو اقتصادى يحركه المال والطمع المادى ، وإنما هو ، بالدرجة الأولى ، غزو دينى ، لايشبه فى التاريخ إلا الحروب الصليبية ! . . . ولايقوى على دفعه إلا يقظة الإيمان فى نفوس العرب ، وتجسيد هذا الإيمان بشكل عملى فعال . . .» (١٩) .

(١٩) [فى سبيل البعث] : ج ١ ، ص ٢٠٢ - « لاينتظرن العرب ظهور المعجزة . فلسطين لاتنقذها الحكومات بل العمل الشعبى » - ٦ - ٨ - ١٩٤٦ م .

● وفي سنة ١٩٧٦ م . . يشير إلى أن الحركة الصهيونية ، إنما هي ثمرة من الثمرات المرة للحضارة الغربية المريضة . . «الصهيونية ليست إلا نتاج هذا الغرب وحضارته المريضة ! . . » (٢٠) .

● وفي سنة ١٩٨٠ م . . يتحدث عن استمرارية عدااء الغرب للأمة العربية ، على امتداد مئات السنين . . وهو عدااء لم تشهد مناطق الصراع والتوتر في العالم له مثيلاً ، في عنفه واستمراريته . . ويشير إلى أن الغزوة الصهيونية الحالية ، إنما هي الصيغة الأخيرة لحروب الغرب الصليبية ضد أمتنا ! . .

«إن العدااء الذي وجه للأمة العربية في هذا العصر، وما يزال ، لم يوجه لأي شعب في العالم ، لأي بلد في العالم . لم يهدأ هذا العدااء منذ مئات السنين ، وأنتم تعرفون التاريخ ، وهو مستمر في هذا العصر . الحروب الصليبية لم تنته بعد ، وصيغتها الأخيرة هي الكيان الصهيوني ! . . » (٢١) .

● وفي سنة ١٩٨٥ م . . يلمس ميشيل عفلق أمراً خطيراً قلما التفت إليه الكثيرون . . ألا وهو ذلك التعديل الذي أدخله الغرب على مقومات ومكونات حضارته . . فهذه الحضارة « المسيحية - اليونانية - السلاطينية » . . ذات التاريخ الطويل والشهير في العدااء لليهودية . . بعد أن نجح حلفها مع الصهيونية في إقامة الدولة اليهودية في قلب الأمة العربية ، قد عمقت هذا التحالف فجعلته ذا طابع حضاري دائم ، وذلك بإدخالها اليهودية - مع المسيحية - كبعد ومقوم

(٢٠) المصدر السابق: ج ٣ ، ص ٢١ - «أصالة الأمة قوة نضالية متجددة» - ١٩ - ١ .
١٩٧٦ م .

(٢١) المصدر السابق: ج ٣ ، ص ٩٨ - «روح الأمة وروح العصر» - ٩ - ٤ - ١٩٨٠ م .

دينى فيها ، تعميقا وتقصيدا للبعد الدينى فى صراعها الحضارى ضد الأمة العربية وحضارتها الإسلامية . . .

يلمس ميشيل عفلق هذا الأمر - الذى يغفل عنه أو يتجاهله أغلب مفكرينا القوميين - فىقول :

« . . إنه عندما تحقق للاستعمار والصهيونية العالمية إقامة الكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين ، دخل الغرب فى علاقة جديدة مع اليهود واليهودية . فبعد ماضى أربعة قرون على النهضة الأوروبية ، كان الغرب خلالها يعتبر أن حضارته مستندة إلى صيغة من التفاعل بين المسيحية والحضارة اليونانية - اللاتينية القديمة ، ويدرس ذلك فى جامعاته ، إذا هو يجرى تعديلا جوهريا على هذه المسلمة ، أو يبدها ، بأن أصبح الأساس لحضارته هو التفاعل بين الديانتين : المسيحية واليهودية ! ! وهى عملية سياسية مفضوحة ، ليس لها من مبرر إلا القوة التى بلغتھا الصهيونية فى الغرب ، حتى استطاعت أن تفرض مثل هذا التعديل الأيديولوجى الأساسى ، وإلا أطماع الغرب فى استغلال البلاد العربية وثرواتها ، واعتبار الكيان الصهيونى جزءا متقدما من الحضارة الغربية مزروعا فى قلب البلاد العربية ، تجمعها بالغرب صلات ومصالح وأهداف مشتركة . وأصبحت اليهودية ، التى كانت إلى عهد غير بعيد موضوع تميز دينى وعنصرى واضطهاد فى بعض الأحيان فى الغرب ، أصبحت اليهودية جزءا عضويا فى جسم الغرب ، وحليفا ، ليس لمحاربة العرب والإسلام فحسب ، بل ولمحاربة الاتحاد السوفيتى (٢٢) .

لقد كشفت الأحداث الأخيرة - [أحداث العدوان الإسرائيلى على مقرر

(٢٢) كان ذلك بالطبع فكر ما قبل النام شقى الحضارة الغربية ، وتراجع النمط الشمولى لحساب النمط الليبرالى . . .

منظمة التحرير الفلسطينية ، بتونس] - عن ظاهرة ، هي ليست بالجديدة ، ولكن كثيرا ماتنسى ، أو لاتعطى الأهمية التى تستحقها فى الأوقات العادية . هذه الظاهرة هي أن الغرب مازال يشعر بأنه حضارة معادية للعرب والإسلام كحضارة أخرى ، وأن حضارة الغرب هي المتفوقة . . . وأنها رغم تفوقها ورغم سيطرتها لم تستطع أن تقضى على الصمود الراسخ فى جوهر الحضارة العربية الإسلامية ، رغم ما أصابها من نكسات . . . ! » (٢٣) .

● وفى سنة ١٩٨٦ م . . يؤكد ميشيل عفلق على هذا المعنى الخطير . . . وعلى هذه الحقيقة الجوهرية من حقائق صراعنا الحضارى مع الغرب . . . فيقول :

« إن الغرب الاستعماري ، الذى يخوض صراعا تاريخيا منذ قرون عديدة ضد الإسلام والأمة العربية ، بدافع التعصب الدينى والعنصرى وحسب الاستغلال والهيمنة ، أصبح اليوم أشد عداء للعرب ولالإسلام منذ وجد فى الصهيونية ضالته المنشودة ، ليعطل وحدة العرب ونهضتهم ، حتى تستمر سيطرته على البلاد العربية واستغلاله لثرواتها وموقعها . هذه الشراكة السياسية الاستعمارية التوسعية بين الغرب والصهيونية هي أخطر بكثير من مجرد تحالف سياسى ، إذ إنها تستند إلى شراكة حضارية ثقافية عميقة ، عمرها مئات السنين ! » (٢٤) .

فالمواجهة بيننا وبين الصهيونية ودولتها اليهودية ، إنما هي جزء من المواجهة التاريخية والصراع الحضارى ، الممتد لمئات السنين ، بين الغرب الاستعماري

(٢٣) من حديث ميشيل عفلق إلى مجلة [الطليعة العربية] - بغداد - عدد نوفمبر سنة ١٩٨٥ م .

(٢٤) [فى سبيل البعث] : ج ٣ ، ص ٢٧٠ - من أجل عمل عربى مستقبلى - ٧ / ٤ / ١٩٨٦ م .

وحضارته العدوانية وبين الإسلام والأمة العربية . . ينهض التعصب الدينى والعنصرى وحب الهيمنة والاستغلال - وهى سمات غربية - بالدور الرئيسى فى هذه الشراكة السياسية بين الغرب والحركة الصهيونية . . فالتحالف السياسى مؤسس على «شراكة حضارية ثقافية عميقة» ، موجهة ضد الإسلام والأمة العربية وحضارتها الإسلامية . .

تلك هى رؤية ميشيل عفلق للشغرة الثالثة ، التى فتحها الغرب فى جدار المقاومة العربية الإسلامية لزحفه الحضارى ، المتوالى الحلقات ، والمتكرر الحملات ، على بلادنا عبر مئات السنين ! . .

* * *

العرب .. والشيوعية الغربية

فى باريس ، إبان دراسته فيها ، درس ميشيل عفلق الماركسية . . وكان - مع مجموعة كبيرة من الطلبة العرب الدارسين هناك - قريبا من الحزب الشيوعى الفرنسى ، الذى كانت شعاراته أقل عداء لشعوب المستعمرات الفرنسية ، ومنها الشعوب العربية فى سورية ولبنان وتونس والجزائر والمغرب . .

وهو يتحدث - بصدد نقده للشيوعية - عن معرفته بها ، وبمراجعاتها والانتقادات التى وجهت إليها ، من داخل أحزابها ومن خارجها . . بل لقد كان الرجل - كما سيتبين لنا - متابعا جيدا لمجريات الفكر والتطبيق فى البلاد التى اختارت الشيوعية طريقا للتغيير . . يتحدث عن دراسته للماركسية فىقول :

« إن الذين وضعوا الأسس الأولى لهذا الحزب ، كانوا ممن درسوا الفكر الماركسى ، وأعجبوا ببعض نواحيه ، وبكثير من نواحيه ، فكانوا فى الوقت

نفسه أبناء زمنهم ، وأبناء بلدهم وأمتهم ، فلم يتجمدوا عند الصيغة الأولى للماركسية ، بل اطلعوا وشاهدوا أكثر الاعتراضات التي وجهت إلى الماركسية ، سواء من ضمنها أو من الآخرين ، وشاهدوا واطلعوا على الردود والتكذيبات العملية التي أتت بها الأحداث كدليل على خطأ أو نقص في التفكير الماركسى . . .» (٢٥) .

فهو دارس للماركسية . . بل ولا يخفى إعجابه ببعض أو بكثير من نواحيها . . ومن ثم ، فإن نقده لها ، ورفضه لأن تكون صيغة التقدم والتحرر العربية ، هو موقف فيه من الموضوعية ما يجعله أهلاً للتأمل والاعتبار . .

* * *

لقد نظر ميشيل عفلق إلى الماركسية فرأها وافدا غريبا ، وامتدادا للغزو الفكرى الذى تمارسه الحضارة الغربية ضد حضارتنا العربية ، ووحدة من الثغرات التى فتحتها الغرب فى جدار صمودنا الفكرى . . فهى نافية لأصالتنا ، لا من حيث هى « وافد » فقط . . فلم يكن الرجل رافضا لكل « وافد » . . وإنما من حيث نفيها ونقضها لكل « الثوابت » و« المطلقات » فى أصالتنا العربية الإسلامية . .

● فهى المبشرة بالمادية والإلحاد . . تطمح إلى نفسى الدين . . بينا صيغة البعث قد رأت للإسلام المرجعية الأولى فى البعث القومى ، كدين وعقيدة وثورة وحضارة وأخلاق . . كما رأت فى مطلق الدين حاجة إنسانية خالدة .

(٢٥) المصدر السابق : ج ٤ ، ص ٣٧١ - «البعث تعبير عن أفكار الجيل العربى الجديد» .
١٢ - ١٠ - ١٩٦٣ م . .

● وهى المبشرة بنسبية القومية ومرحليتها... تبعا لتحليلها القوميات الأوروبية بينما يرى البحث تميز قوميتنا العربية بالخلود، لأنها ثمرة الإسلام الخالد. ولأنها إنسانية، لن تطوى النزعة الإنسانية صفحتها، كما هو حال القوميات العنصرية، التى لا يتصور الماركسيون قومية ما إلا على غرارها!..

● ومذهبها فى أولية المادة، وانعكاس كل الفكر عن حركتها، وربطها «الأبنية الفوقية»، وفيها كل الفكر، تقريبا، «بالأبنية التحتية»... المادية... يجعل كل فكر، بنظرها، آيلا إلى التطور والتغير وإخلاء مكانه لغيره، تبعا لتغير وتطور الأبنية التحتية المادية، التى تفرزه وتولده وتعكسه... على حين يؤمن البحث بأن لأمتنا العربية رسالة خالدة... هى الإسلام وتراثه... وأن النهضة لا بد وأن تبنى على الثوابت المطلقة الخالدة، وأن التطور لا يطوى كل القيم وجميع الأفكار!.. بل ويرى أنه لاخير فى نهضة لا تبنى على الثوابت... .

● وهى تسعى لحل مشكلة قطاع من الأمة... مجرد طبقة من طبقاتها... هى البروليتاريا... لأن هذه الطبقة، بنظر الماركسية، هى حاملة رسالة التقدم، كما رأت الليبرالية الغربية فى البرجوازية حاملة هذا اللواء... على حين رأى البحث، بحكم رؤيته القومية، فى الأمة... كأمة... الحامل لرسالة المشروع الحضارى الذى يدعو إليه.

● وهى نظرية أوروبية... كل أصولها وملابسها نشأتها أوروبية... وأيضا ما لجوانبها الصائبة من مسوغات هى مسوغات أوروبية كذلك... ولهذا، كانت الحركات العربية التى اتخذتها منهاجا هى بمثابة الرافد الغربى فى واقعنا العربى، تحركه وتوجهه السياسات الخارجية للدول الشيوعية... على حين رأى البحث فى الحضارة الغربية العدو التاريخى، الذى حاول ويحاول منع أمتنا من النهضة والبحث والانطلاق... فالحركات الشيوعية العربية «ثغرات غربية» فى

جدار الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية ، ومعاول هدم فى مكونات حضارتنا الإسلامية . .

تلك هى أهم وجوه التناقى بين الشيوعية وبين مشروع ميشيل عفلق . . وفى ضوءها ، نقف عند نماذج من نصوصه ، تمثل الخط البيانى لفكره تجاه الشيوعية والشيوعيين العرب . . وهى صفحة من صفحات فكره ، عالج فيها « الموقف العربى » المناهض لمركزية الغرب وهيمنة حضارته على غيرها من الحضارات . .



يعرض ميشيل عفلق لموقف مشروعه النهضوى من الشيوعية ، فيقول :

« . . ولأن الشيوعية أظهرت نفسها كخلاصة للفلسفات التى عرفها البشر ، وكدين جديد لمستقبل الإنسانية ، فتحدد موقفنا منها كان مفروضاً علينا من هذه الاعتبارات ومن الأهمية الفكرية والعملية التى احتلتها الشيوعية فى العالم الأوربى ، لا من تماسها المباشر مع واقعنا العربى ، إذ إن هذا التماس كان سطحيًا وأضعف من أن يشكل مشكلة جدية وعميقة بالنسبة إلى حياة العرب ! . .

إن مجرد كون حركتنا حركة عربية انقلا بية ، يعنى أننا رفضنا نهائياً الأخذ بالنظرية الشيوعية وبحركتها ، وأن خلافتنا مع الشيوعية خلاف مبدئى وأساسى . . فسياسة الحزب الشيوعى فى بلادنا تنطلق من السياسة الخارجية المستوحاة من السياسة الشيوعية العالمية ، ومن ظروف الاتحاد السوفياتى وصراعه مع المسكر الغربى . . إن على حركتنا واجب الحذر والحيلة والجهد المتواصل للتوضيح ولتنع أى التباس بين هويتنا وهوية الشيوعية . . إن الفرق بين حركتنا وبين الشيوعية هو الفرق بين ماهو وطنى وماهو غريب ، بين ماهو طبيعى

وما هو مصطنع ، خاصة إذا عرفنا أن ظروف البلاد العربية وأوضاعها ونفسياتها في هذه المرحلة التاريخية هي جد مختلفة وبعيدة عن ظروف البلدان الأوربية المهيأة اقتصاديا وسياسيا وحضاريا لأن تكون الشيوعية فيها أكثر من حركة غربية توجهها سياسة دولة أجنبية . .

قد تقف الشيوعية من قضاياها ، في بعض الأحيان ، مواقف وطنية ، ولكن هذا لا ينفي عنها غربتها ، ولا يكون أكثر من التقاء عارض في المصلحة ، لا في النظرة والشعور ، لذلك ، فهي في أحيان أخرى تتراجع عن هذه المواقف ، أو تناقضها بسهولة لا يقدر عليها ولا يعقل أن يقدم عليها من ربط مصيره بشعبه واستوحى أفكاره وخططه من حاجات الشعب ومصالحه التي لا يمكن أن تبدل أو تتناقض بين حين وآخر . .

إن العرب لا يستطيعون أن يعتنقوا الفلسفة الشيوعية ونظرتها إلى الإنسان دون أن يتخلوا عن أئمن شيء في إنسانيتهم^(٢٦) . . .

لقد كتب ميشيل عفلق رأيه هذا في الشيوعية سنة ١٩٥٦ م . . بعد أن عدل حزب البعث موقفه من الأحزاب الشيوعية العربية منذ سنة ١٩٥٣ م . . عندما بدأت هذه الأحزاب « تدرك أنها تخلفت كثيرا عن ركب التطور ، وبالغت في التبعية والولاء الخارجي ، واكتسفت بتريد الفكر الثوري العالمي ترديدا حرفيا جامدا ، فكانت بذلك عاجزة عن تقديم شيء جديد للثورة العربية . وهي الآن ، كأحزاب وأفراد ، تفتش عن مكان مستقر لها في الوطن الذي تعيش فيه . . فهي أمام عملية اندماج وطني . . وهذا شيء نرحب به ونستبشر! . . »^(٢٧) .

(٢٦) المصدر السابق : ج ٤ ، ص ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٥٥ . « موقفنا السياسي من الشيوعية » - يناير ، ١٩٥٦ م . .

(٢٧) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٣٤٢ . « ٥٥ حزيران وفرصة العمل التاريخي » - نوفمبر ، سنة ١٩٦٧ م . .

فراى ميشيل عفلق فى الشيوعية كتنقيض لأثمن شىء فى إنسانية الأمة العربية ، قد ظل ثابتا حتى بعد أن تغير موقف الحزب من العلاقة مع الأحزاب الشيوعية العربية ، التى أخذت - برأيه - فى البحث عن « مستقر لها فى الوطن الذى تعيش فيه » . . !

وفى مناسبة أخرى . . يعرض ، ميشيل عفلق لنشأة البعث ، فىرى هذه النشأة لهذا الحزب - فى الملابسات التى حدثت فيها - موقف رفض للشيوعية وأحزابها . . !

« إن هذا الحزب ظهر فى زمن معين ، فى مكان معين . وظهر فى وقت كانت فيه الشيوعية ترشح نفسها ، كحركة ثورية وحيدة فى العالم ، وفى البلاد العربية أيضا . ومن البديهي أن أمة تعيش فى مرحلة ثورية لايمكن أن تنحاز أو تتبع الحركات الوطنية التقليدية . . أو الحركات الدينية أو الحركات الإقليمية المصطنعة . . ذات التفكير السقيم المتخلف . . الذى ينكر المشكلة الاجتماعية ويتجاهلها عمدا وقامرا منه على مستقبل الأمة . فكان من الطبيعى إذن أن تلقى الشيوعية التأييد وأن تعتبر المنقذ ما لم يظهر من أعماق الأمة العربية ومن صميم روحها ومصلحة شعبها والطبقات المحرومة منها . . الحركة التى تعبر عن الحاجات الثورية الجديدة ، وتواجه الحركة الشيوعية بما يحفظ للأمة العربية شخصيتها وتوازنها ومستقبلها الحضارى ، إذ لاحضارة مع التقليد والتبعة . . . كان ظهور الحزب إذن ، بحد ذاته تحديد موقف من الشيوعية ، موقوف الرفض ! . . » (٢٨) .

فظهور البعث ، كمشروع نهضة حضارية هو بحد ذاته رفض للشيوعية ، لأنها مشروع تبعية . . « ولاحضارة مع التقليد والتبعة » ! . . !

(٢٨) المصدر السابق : ج ٤ ، ص ٣٧١ - « البعث تعبير عن أفكار الجيل العربى الجديد »
١٢ - ١٠ - ١٩٦٣ م . .

ولم يحدث في يوم من الأيام ، خلال الحقبة الطويلة التي قامت فيها علاقات وتحالفات وجبهات بين البعث وعدد من الأحزاب الشيوعية العربية . . لم يحدث أن غابت عن بصيرة ميشيل عفلق المثالب والثغرات التي لأجلها تميز رفضه للماركسية بالثبات . . إنه يتحدث عن «أن موقفنا اليوم من الماركسية والشيوعية لم يعد موقفا سلبيا . . يجب علينا أن نأخذ كل ما يفيدنا في تخطيطنا للتحول الاشتراكي . .» (٢٩) . .

ومع ذلك ، فإنه عندما يعرض للحديث عن الماركسية ، نراه يسلط الضوء على كل عوراتها . . فيقول :

«إن الماركسية فيها نواح خاطئة وفيها نواح سطحية . النواحي السطحية مثلا: فهمها للدين ، فهو فهم سطحي . الخطأ مثلا - الخطأ الكبير - : إغفالها للقومية ، حقيقة القومية . وأيضا : سطحية الفهم للأمية . . الفلسفة التي قامت عليها الماركسية فيها تعصب ، فيها مبالغات ، فيها تأكيد على جانب من الحقيقة يضخم كثيرا ، كما يضخم أيضا الخطأ الذي في غيرها . وهذا يعني أنها تفتقر إلى النزاهة العلمية ، رغم ادعائها بالعلمية ، فهي برغماتية ، بمعنى أنها تستهدف النجاح بصرف النظر عن الوسائل . . فتبتعد عن الموضوعية التي هي شرط المعرفة العلمية . . الفلسفة المادية ، التي بنيت عليها الماركسية ، فيها نواحي الضعف ، وفيها نواحي القوة التي لا تنكر . . إنها أول محاولة فكرية للنظر إلى التناقضات الاجتماعية بنظر واقعي وجدى بعيد عن الطوباوية . . أما تفاصيل هذه الفلسفة فإنها تنطوي على تفسيرات متعسفة وغير جدية ، وبخاصة إغفالها لأهمية النواحي الروحية في حياة البشر» (٣٠) . .

(٢٩) المصدر السابق : ج ٤ ، ص ٤٥٧ - «النضال ضد تشويه الحزب» - ١٨ / ١ / ١٩٦٦ م .

(٣٠) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ - «طموح البعث أن يكون حركة حضارية» -

١٩٨٠ / ٨ / ٢ م .

إن الشيوعية، التي تميزت ببعض المزايا، لم تلب حاجات الشعوب إلى الحركة والاستقلال. . . لقد جاءت كرد فعل على الأوضاع الفاسدة التي كانت سائدة في أوروبا القرن التاسع عشر. . . إنها لا تحمل الحل لمشاكلنا. . .» (٣١).

لقد ظل الرفض للماركسية قائما. . . لكن مع هدوء في الأسلوب! . . .

وعندما يُسأل ميشيل عفلق - في مدرسة الإعداد الحزبي - سؤالاً قد يوحي بأن هناك تناقضا في موقفه من الماركسية. . . وتكون صيغة السؤال :

« وردت عبارة في الكلمة التي ألقيتها في المؤتمر القطري السوري الاستثنائي في فبراير سنة ١٩٦٤م هذا نصها : «أنا لست ضد الماركسية، ولكن البعث هو: اشتراكية علمية زائد روح». فهل لكم توضيح ذلك؟ ».

تأتي إجابة ميشيل عفلق، على النحو الذي يؤكد أنه « ضد الماركسية»، ولكن مع لطف في التعبير. . . يقول :

«الحزب تميز عن الماركسية، ولكنه لم يعتبرها عدوا. لقد وجدنا ناقصة، وغير ملبية لحاجات الأمة العربية. وقد تصلح لأن تهتدى بها حركات أخرى في بلدان أخرى. أما القول بأن اشتراكيّتنا علمية، فأنا قصدت ليس الاصطلاح، وإنما المعنى الحقيقي للفظ علمية. . . اصطلاح الاشتراكية العلمية محتكر للماركسية، ونحن نجادل الماركسية في هذا، ولا نعترف لها بصحة هذا الادعاء، بأن اشتراكيّتها هي وحدها العلمية. نحن بنينا اشتراكيّتنا على أساس علمي، ولم نكتف بالعلم، لأن حركة البعث، كما قلت لكم، من الأساس اعتبرت أن نصف الحقيقة ونصف الثورة هو التفاعل مع الفكر العلمي، ولكن الروح هي

(٣١) المصدر السابق: ج ٥، ص ٢٥٨ - «وحدة النضال بين القوى التقدمية والثورية في العالم الثالث» - ٢٨/٢/١٩٨٠م -

الأساس ، ولذلك قلت بأن اشتراكيتنا علمية وأيضا هي روح . أى قيم روحية وأخلاقية . . .» (٣٢)

فمع هدوء الأسلوب ، في مرحلة التحالفات مع الأحزاب الشيوعية والنظم الشيوعية . . يبقى الوفاء للموقف الرافض لأساسيات الماركسية : المادية . . والطبقة . . واللاقومية . .



بل إننا لواجدون في فكر ميشيل عفلق منذ بداية عقد السبعينيات إشارات شديدة الوضوح إلى ظاهرة التراجع والفشل والإحباط التي أصابت الفكر الماركسي وتطبيقاته في البلاد التي اختارته منهاجاً - في الاتحاد السوفياتي والبلاد الاشتراكية - وهي الظاهرة التي وضحت وأحدثت زلزالها بعد إشارات ميشيل عفلق إليها بنحو من عشرين عاماً . . .

لقد تحدث في سنة ١٩٧٠م، عن «تزعزع الأسس الفكرية» للشيوعية، على النحو الذي ينذر بتحول هذا «الشيء» الذي سُمي شيوعية إلى شيء من التاريخ» . . . وأشار إلى «نسبية النظرية الشيوعية»، ومن ثم «نسبية نظامها وتطبيقاتها»، و«تجاوز الزمن لها» - ونبه إلى «الثورات الفكرية التي تصيب بالتصدع تلك المعتقدات التي كان يظن أنها أبدية وعلمية» . . . وأكد على «ضياع فرصة تلك الثورات التي انحصرت في النواحي المادية . . . والتي - لذلك عجزت عن تحقيق التغيير النوعي في الإنسان . . .» . . . ودعا حزب البعث للتأمل والاعتبار . . .

(٣٢) المصدر السابق: ج ٣، ص ١٠٤ - «روح الأمة وروح العصر» - ٩/٤ / ١٩٨٠ م -.

تحدث ميشيل عفلق ، منذ بداية السبعينيات ، عن هذا «الزلزال» الذى أصاب الماركسية وتطبيقاتها ، والذى هز العالم فى نهاية الثمانينات . . فقال : « . . إن الاتحاد السوفيتى يخطو كل يوم خطوة نحو التقرب أكثر فأكثر إلى الغرب ، ويتعد عن واقع المجتمعات المتخلفة ، وهذا يعكس حقائق مهمة بالنسبة لمستقبلنا ، أين مصالحتنا؟ أين سنلاقى التجاوب ؟ ووحدة المصالح؟! . . » .

وهو ، بذلك ، يشير إلى هذا النظام العالمى الجديد ، الذى ولدته المتغيرات الدولية الحالية . . ويتساءل عن آثاره على مكافئنا وقضايانا! . .

ويتحدث عن تراجع الماركسية . . وانهار مصداقيتها . . . يقول : « . . . وفى الوقت الذى تنزعزع الأسس الفكرية التقليدية الشيوعية ، بشكل يندر بأن الشئ الذى سمي شيوعية منذ نصف قرن يصبح بعد ٢٠ أو ٣٠ سنة شيئا من التاريخ! فى هذا الوقت ، تظهر فى الوطن العربى دعوات وبدع تحاول بعث الماركسية اللينينية بحرفيتها وحذافيرها ، وكأنها كتاب منزل يحل لنا كل مشاكلنا! . . » .

ونحن لا نملك إلا الاعتراف بصدق النبوءة . . فبعد ٢٠ سنة من كتابة ميشيل عفلق لهذا الكلام ، أصبح « الشئ الذى سمي شيوعية . . شيئا من التاريخ! » .

ثم يمضى ميشيل عفلق للحديث عن رؤية صيغة المشروع البعثى ، منذ البدء ، لنسبية الشيوعية ، كنظرية . . يقول :

« . . لقد كان للحزب ، منذ بدايته نظرة ليست חדسية ، كما يقولون ، وإنما ناتجة عن الدراسة والتتبع ، وقد توصل إلى إدراك « نسبية » الشيوعية

كنظرية ، وبالتالي كتطبيق ونظام ، أى ليست هى الشئ الذى ليس فيه خطأ ، وإنما كشئ نسبي ، وأنها معرضة لأن يتجاوزها الزمن . . . إن العالم يشهد تطورات هى أقرب إلى أن تكون ثورات فكرية . هذا التصدع فى المعتقدات التى كانت تظهر قبل عشرين سنة أو أقل بأنها معتقدات أبدية وعلمية . ولا يتطرق إليها الشك ، أصبحت اليوم تعاني من التصدع والتفكك . . . »

ثم يشير إلى تفجر القوميات فى وجه الأمية الشيوعية السطحية ، كدليل على صحة الصيغة البعثية القومية ، وخطأ الأمية الماركسية ، فيقول : « . . . وهنا نشير إلى ظهور الظاهرة القومية ضمن المعسكر الشيوعى . وهذه تعطى لحزبنا تدعياً جديداً لأصالة تفكيره . . . » (٣٣) .

لقد كتب ميشيل عفلق كل هذا فى سنة ١٩٧٠م . . ١١ ثم عاد فعرض لهذا الموضوع بعد سبع سنوات ، فأخذ يشير إلى بعض من أسباب « ضياع الفرصة » على الثورات الشيوعية . . من مثل انحصارها فى الجانب المادى ، وإخفاقها فى التغيير النوعى للإنسان . . فكتب يقول :

« الثورات الاشتراكية التى حدثت فى العالم من بداية هذا القرن ، واستمر بعضها حتى الآن فى أنظمة معروفة ، لم تحقق القفزة النوعية التى كان مأمولاً منها أن تحققها . حققت تقدماً اجتماعياً لبلدان وشعوب كانت تعاني بشسب مختلفة من التخلف ، ولكنها لم تحقق التغيير النوعى فى الإنسان ، لم يخلق الإنسان الاشتراكى الجديد ، لم يتكون ، لم تنجح تجربته ، أو لم ينجح تكوينه . ومضى على هذه الثورات عدد كاف من السنين ، عشرات السنين ، ولا يبقى عذر لأى

(٣٣) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٤٦ ، ٤٧ - « حزب الثورة العربية » - مايو ، سنة ١٩٧٠م .

ثورة إذا هي لم تجسد أفكارها الأساسية، ولا تعطى خلال هذه العشرات من السنين جوهر ثورتها. والواقع أن الفرصة ضاعت على هذه الثورات، رغم القوة التي بلغتها بعض البلاد، قوة تكاد تنحصر في النواحي المادية التي لاتصمد للزمن، أكثر منها في تكوين الإنسان والمجتمع الاشتراكي.

إن هذه الثورات سبقتنا في الزمن، وكانت قد ورثت أيضا تراثا ثقافيا فكريا أغنى وأوسع من التراث الفكري والسياسي الذي في حوزتنا. وكانت الثورة العربية، بما فيها حزبنا، تتطلع، شاءت أم أبوت، إلى الثورات الاشتراكية، وتقتبس نارة عن وعي وتارة بدون شعور وبالتقليد.

إن أمام حزبنا وقفة. وقفة متأنية ومتعمقة يجب أن نطالب أنفسنا بها، لكي نعزز في حزبنا النهج الاستقلالي، والتفكير الأصيل، فنتعظ بما يجري عند غيرنا، ونتحرر ونتخلص من التقليد الذي دخل، كما قلت، على فصائل الثورة العربية بنسب مختلفة. . . إننا مطالبون بأن نعتبر بهذا التوقف أو التجميد الذي أصاب الثورات الاشتراكية، والذي يجب أن نبحث عن أسبابه. . . ولكي نصر على استلهم الأصالة في تاريخنا وفي روح أمتنا، ولكي لانصل يوما إلى طريق مسدود! . . .» (٣٤).

لقد وصلت الثورات الشيوعية إلى طريق مسدود، عندما وقفت - بالمنهج المادي - عند التغييرات المادية وحدها، فشلت في التغيير النوعي للإنسان. . . ولابد من وقفة تقفها فصائل الثورة العربية، للعظة والاعتبار. . . وللتحول أكثر فأكثر إلى النهج الاستقلالي، والتفكير الأصيل، الذي يستلهم الأصالة في تاريخنا وروح أمتنا. . .

(٣٤) المصدر السابق: ج ٥، ص ٥٩، ٧٠ - «الحزب تسوده روح الأسرة الواحدة» - ١٥/٩/١٩٧٧ م - .

هكذا رأى ميشيل عفلق الماركسية والشيوعية ، وامتداداتها في واقع أمتنا العربية . . . رأهما : خصوصية غربية ، زعمت لنفسها العلمية والأبدية والعموم والإطلاق . . . وامتدادا غربيا في الواقع العربي ، يقود إلى التبعية ، وينفى الاستقلال ، الذي لا يتحقق جوهره إلا إذا كان استقلالا حضاريا . . . إذ « لا حضارة مع التبعية » . . . !

ولقد كتب ميشيل عفلق هذا الذي كتب عن غروب شمس الشيوعية الغربية . . . وعن ضرورة دعم الموقف والمنهج الاستقلالي ، الذي يستلهم أصالة الأمة وروحها . . . كتب ذلك في ذات الوقت الذي كانت تتسع في مشروعه الفكري مساحة الحديث عن مرجعية الإسلام لهذا المشروع . في حقبة السبعينيات . . . !



العلمانية الغربية

إن الموقف من « العلمانية » ، في المشروع الفكري لميشيل عفلق . . . وفي فكر حزب البعث وممارساته ، يستحق التأمل والتدقيق ، وخاصة إذا كان المقام هو علاقة هذا الموقف بالإسلام ، ومدى الوفاق والخلاف بينه وبين الاحتكام إلى مرجعية الإسلام . . . بل إننا لانغالي إذا قلنا إن الموقف من « العلمانية » ، في المشروع البعثي هو المعيار لمدى القرب أو البعد لهذا المشروع من مرجعية الإسلام فيه ، كمنهاج شامل لكامل المشروع الحضاري . . .

وبادئ ذي بدء ، فإن العلمانية تعني عدم الالتزام بحاكمية الدين . . . أي نفس إلزام والتزام المرجعية الدينية ، السماوية ، ذات المصدر الإلهي ، وأن يستبدل بها المرجعية البشرية الوضعية . . . ذلك هو المعنى العام والفضفاض للعلمانية . . .

نقول المعنى العام والفضفاض ، لأن العلمانية ، بناء على هذا الفهم ، أنواع ودرجات . .

● فهناك العلمانية ، التى يطمح أصحابها إلى نفى مرجعية الدين ، كل الدين ، فى جميع الشئون البشرية ، على مستوى الاعتقاد الفردى ، والعلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وشئون العلم والتعليم والثقافة والقيم والسلوك ، وتنظيم الدولة ، والعلاقات الدولية . . هنا تغدو العلمانية دعوة لنفى الدين واستدعاء المناهج الوضعية والمادية والإلحادية بديلا عنه . .

وأشهر الدعوات التى دعت إلى هذا المستوى من العلمانية ، هى الدعوات الماركسية والشيوعية والدول التى تبنت المادية الماركسية والإلحاد الشيوعى سبيلا ومنهاجا . .

وهذا اللون من العلمانية قد رفضه ميشيل عفلق وحزب البعث ، عندما دعا مشروعه النهضوى إلى الإيمان الدينى ، وإلى مرجعية الإسلام كعقيدة دينية ، وكثورة اجتماعية ، وروحية ، وأخلاقية ، ورسالة إنسانية خالدة ، وسياس لحماية تماسك الأمة ووحدتها ، وجوهر للمكونات التى تكونت منها القومية العربية . . رفض ميشيل عفلق علمانية المادية والإلحاد ، تلك التى تريد تجريد القومية والأمة العربية من المنابع الروحية والأخلاقية المتمثلة فى الإسلام : الثورة والحضارة والروحانية والتراث . وسماها « العلمانية المستوردة » من الغرب . . ورأى فيها أحد الامتدادات ، المشبوهة ، التى غزت بنا الحضارة الغربية ، فى صراعها الفكرى والحضارى مع أمتنا العربية وحضارتنا الإسلامية . .

ذلك موقف واضح فى المشروع البعثى ، لا لبس فيه ولا غموض . .

● وهناك العلمانية ، التى تنهى الالتزام والإلزام بمرجعية الدين فى قطاع بعينه

من قطاعات الدولة وميدان بذاته من ميادين العمران الاجتماعى . . فتستدعى الدين حيناً ، وترفض التزامه حيناً آخر . . وهذا اللون من العلمانية هو الذى قبل به ميشيل عفلق ، واشتهر به حزب البعث فى التطبيقات والممارسات . .

فالمشروع البعثى ، كما أسلفنا ، وكما سيأتى الحديث عنه - وهو بالدرجة الأولى : مشروع حزب قومى - يرفض تجريد القومية العربية من الإسلام . . بل يراها ثمرة له ، ويراه الألب الحقيقى لها . . كما يرى فى تراثه الثورى والروحى والأخلاقى المنابع التى غدت هذه القومية بخصائصها التى ميزتها عن غيرها من القوميات . . منابع « الإطلاق والخلود والإنسانية » ، التى وسمت قوميتنا بالإنسانية وبقدر من الإطلاق والخلود . . كما يسرى فى تراث الإسلام الروحى والأخلاقى المنابع التى يجب أن يرتوى منها الحزب والأمة فى التربية القومية والسلوك النضالى والممارسات الحياتية . .

هنا . وفى هذه الميادين ، يستدعى المشروع البعثى الإسلام ، فيجعله المرجع . . وينفى العلمانية - عن هذه الميادين - . . بل ويهاجم الذين يريدون استدعاءها ، بدلا من الإسلام ، فى هذه المجالات . .

أما عندما يكون الأمر خاصا بدستور الدولة ، التى يريد بها البعث ، وبقوانين دولة القومية العربية ، فهنا يصبح المشروع البعثى - فى فكر عفلق وممارسات الحزب - مشروعا علمانيا . . « ففى النصوص الدستورية والقانونية . . وفى التطبيقات القانونية والدستورية » ، يسلم البعث بالعلمانية ، ويقبل بها . . ولا يستدعى حاكمية الإسلام ، كشرعية ، فى دستور الدولة وقوانينها . .

إنه يتبنى مرجعية الإسلام ، كعقيدة ، ضد الإلحاد والمادية . . ويتبنى مرجعية الإسلام ، كثورة ، وحضارة ، وتراث روحى وأخلاقى ، كان ولا يزال المنبع والملمهم والمكون الأول لقومية الأمة وثقافتها ووحدتها ونهضتها . . لكنه لا يتبنى

مرجعية الإسلام كشرعية حاكمة في ميدان دستور الدولة وقانونها . . فهو يأخذ الإسلام عقيدة وثورة وقيما . . ويتخلى عنه كشرعية وقانون! . .

تلك هى حقيقة موقف المشروع البعثى من العلمانية . . وذلك هو مستوى التزامه بمرجعية الإسلام . .

وهى الحقيقة التى سنقدم عليها البراهين من نصوص ميشيل عفلق ، متتبعين تسلسلها التاريخى ، منذ أن بدأ يطرق هذا الميدان سنة ١٩٥٠ م . . وحتى خطابه الأخير - عام وفاته - سنة ١٩٨٩ م . .

* * *

● فى سنة ١٩٥٠ م . . عرض ميشيل عفلق لقضية علاقة الدين بالدولة ، وكانت المناسبة الحوار الدائر حول هذا الأمر ، إبان وضع دستور جديد لسورية . . فرفض وجهة النظر الداعية لما أسماه «مزج الدين بالدولة» ، وتلك هى الصيغة التى يطلقها ذوو الثقافة الغربية على دعاء حاكمية الدين فى الدستور والقانون . . لأنهم يقيسون الأمور على تجربة الدولة الدينية فى العصور الوسطى الأوروبية . . رفض ميشيل عفلق وجهة النظر هذه . . لكنه رفض ، أيضا ، وجهة النظر التى تريد تعميم استبعاد الدين كمرجع يحدد طبيعة علاقة الأمة بأمورها وبمستقبلها . . الدين ، باعتباره «الأسس الروحية والحقوقية التى تقوم عليها القومية العربية» . .

فهو يرفض علاقة الدين بالدولة ، كمرجعية حاكمة فى دستور الدولة وقانونها . . لكنه ينبه على ضرورة مرجعيته فى الدائرة الأوسع من دائرة الدستور والقانون . . دائرة القومية والمشروع الحضارى ، كتراث مكون للماضى وفاعل فى المستقبل . .

«إن علاقة الدين بالدولة - التى تثار الآن فى سوريا ، بمناسبة وضع الدستور الجديد ، هى من أهم القضايا القومية ، لا كما يريد البعض أن يصورها بأنها مسألة تافهة . فهذه القضية تشمل شيئا أوسع من علاقة الدين بالدولة ، وهو علاقة الأمة بماضيها ، وموقفها من مستقبلها ، كما أنها تعنى الأسس الروحية والحقوقية التى تقوم عليها القومية العربية فى المستقبل . أما الذين يقللون من شأن هذه القضية ، فالمرجح أنهم يقصدون فساد الأسس التى يبنى عليها دعاة مزج الدين بالدولة نظريتهم ، وفساد الأساليب التى يلجئون إليها لدعم هذه النظرية ، وسوء النوايا والأغراض السياسية والاجتماعية التى تحرك بعض المتزعمين لهذا الموقف ، أو بعض المناوئين له . . . » (٣٥) .

فهو يهاجم دعاة حاكمية الدين فى الدستور - أى إقامة العلاقة بين الدين «والدولة» - التى يسميها : «مزج الدين بالدولة» . . وفى ذات الوقت يرفض وجهة النظر التى تحصر الدين - وجودا أو غيابا - فى إطار «الدولة» ، ويرى له مرجعية ضرورية فى قومية الأمة ، التى هى - بنظر البعث - جامع مشروعها الحضارى المعاصر . .

ثم يزيد هذه الفكرة تحديدا وتفصيلا ، عندما يقول : «إن الدولة العربية التى يعمل لها البعث العربى . . هى نقيض الإلحاد والفساد وكل ما هو سلبى هدام . وعلمانية الدولة ، بهذا المعنى ، ليست إلا إمعانا فى الحرص على اتجاهها الروحى والأخلاقي ، لأنها ليست إلا إنقاذا للروح من شوائب الضغط والقسر ووضع العراقيل المصطنعة أمام يقظة الروح واستقلال الخلق وانطلاق النشاط فى نفس كل عربى . وما دام الدين منبعا فياضا للروح ، فالعلمانية التى نطلبها

(٣٥) المصدر السابق : ج ١ ، ص ١٦٩ - «العرب بين ماضيهم ومستقبلهم» - ١٩٥٠ م .

للدولة هي التي ، بتحريرها الدين من ظروف السياسة وملابساتها ، تسمح له بأن ينطلق في مجاله الحر في حياة الأفراد والمجتمع ، وبأن تبعث فيه روحه العميقة الأصيلة ، التي هي شرط من شروط بعث الأمة . . » (٣٦) .

إنه يتصور : « دولة » . . و « أمة » . . فيدعو إلى علمانية « الدولة » . . وإلى روحية « الأمة » . . يريد - حسب تعبيره - « تحرير » الدين من السياسة وملابساتها ، وإعماله في الأمة ، كشرط من شروط بعثها ! . . إنه لا يستدعي كامل الإسلام - العقيدة ، والشريعة ، والقيم ، والحضارة - إلى كامل الدولة والأمة . . وإنما يسقط من مرجعية الدين شريعته في المعاملات وقانونها . . ويسقط من مجال عمل الدين في الحياة الإنسانية الدولة ، كدستور وقانون ! . .

هذا هو موقف البعث ، الذي رفضه ويسرفضه - بالطبع - كل الإسلاميين ، الملتزمين بكل الإسلام ، مرجعا لكل مناحي حياة الإنسان . .

● وفي سنة ١٩٦٠ م . . يعرض ميشيل عفلق لذات القضية ، فيكرر ذات المعنى ، ويقول عن رأى البعث في هذا الموضوع . . موضوع العلمانية . . وأصنافها . . وما يقبله البعث منها وما يرفضه ، يقول :

« . . وكان ثمة مفهوم آخر رائج - [للقومية] - مفهوم مجرد ، مستعار هو أيضا من الخارج ، يحصر القومية في اتفاق المصلحة ، وفي الذكريات الماضية والآلام والآمال . . فكان هذا جوابا جافا لا يروى ظمأ الشعب العربي إلى ما يحرك فيه طاقات دفينه . وكانت الخطوط التي رسمناها لقوميتنا العربية لا تكتفى بالروابط الحقوقية بين الأفراد ، وإنما تجعل في وجود الأمة رسالة تاريخية وأمانة في عنقها تحيا حياتها وتجربتها بصدق ، وتخلص للقيم والعقل ، وتقدم

(٣٦) المصدر السابق : ج ١ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ - « معالم القومية التقدمية » - ١٩٦٠ م . .

خير ما عندها . وهذا ما جعلنا نرجع إلى تراثنا الحضارى التاريخى وننظر إليه نظرة جديدة . . . ففى حياة العرب تجربة ضخمة ورسالة سامية . وكان التفكير السطحي قبل ظهور حركتنا يوحى أو يوهم بوجود التضاد بين القومية وبين هذا التراث الروحى بحجة الحرص على العلمانية ، ولكن وجدنا أن لاتعارض بين العلمانية وبين الاعتراف بما يغذى روح حضارتنا من تجارب ماضى شعبنا الغنية ، فكانت هذه النظرة الجديدة إلى تراثنا القومى نظرة حية واقعية عميقة ، أرجعت إلى نفوس الشباب الاستقرار الذى فقدوه زمنا ، وصالحتهم مع ماضى أمتهم دون أن تجمدهم فى هذا الماضى . . . » .

فهو هنا يعبر عن الإسلام بمصطلحات « تجارب الماضى الغنية » ، و« التراث الروحى » ، و« التراث الحضارى » ، و« التراث القومى » ! . . . ويسلم بالعلمانية ، التى لا يرى تعارضا بينها وبين « تغذية روح حضارتنا » بهذا التراث .

● ومنذ حقبة السبعينيات ، التى تزايد فيها حديث ميشيل عفلق عن الموقف الإيجابى من الدين ، وعن مرجعية الإسلام للمشروع الحضارى ، وعن أبوته للقومية . . . والتى زاد فيها استخدامه لمصطلح ، الإسلام - صراحة - بعد أن كان يواريه خلف مصطلح « التراث » . . . وبعد ما تعدلت - فى كتاباته - موازين العلاقة بين « القومية - العربية » وبين « الإسلام » ، فأخذ يؤكد على أولوية الإسلام ، الذى ولدت منه العربية ولادة جديدة - على نحو ما ستفصل حديثه فى الفصل القادم - . . . منذ حقبة السبعينيات ، التى شهدت هذا التطور فى فكر ميشيل عفلق ، أخذت الأسئلة تنهال عليه ، من أعضاء الحزب وخاصة عقب محاضراته فى مدارس الإعداد الحزبى - مستفسرين عما رآوه تناقضا بين هذا الموقف الإيجابى من الدين وبين علمانية الحزب ، التى هى واقع معيش ومتعارف عليه ، وليس عليه - فى صفوف الحزب أو خارجه - خلاف . . .

حتى لقد جاءت أحاديث عفلق عن العلمانية ، منذ هذه الحقبة ، أساسا في شكل إجابات عن هذه الأسئلة والاستفسارات . . .

ففى سنة ١٩٧٦ م . . سئل ميشيل عفلق ، فى مدرسة الإعداد الحزبى - :

« كيف توفق بين الموقف الإيجابى من الدين وعلمانية البعث »؟ . .

والسؤال هنا يوحى بأن علمانية البعث أمر مقرر - وهى كذلك - . .
والتساؤل عن اتساق هذه العلمانية مع «الموقف الإيجابى من الدين»!! . . ولقد
كان جواب ميشيل عفلق بما يلى :

« . . كلمة صغيرة عن العلمانية ، وكيف واجهها البعث .

فى تراث الحزب إشارة إلى ذلك ، قد لا تكون وافية ، ولكنها أكيدة ،
ولا تحتاج إلا إلى توسيع وتفصيل .

عند ظهور الحزب ، كانت هناك دعوات واتجاهات قومية تقول بالعلمانية ،
وتعتبر بأن القومى العربى هو الذى يتجرد من معتقداته الدينية ، ويلتقى مع
أخيه العربى على صعيد القومية العربية الحقوقية والرابطة الوطنية ، وكان لهذا
المذهب رواج كبير بين الشبيبة المثقفة ، ولكننا لم نستسغه ولم ننخدع به ،
واعتبرناه ، فى أحسن الحالات والتفسيرات ، سطوحيا وجامدا وغير معبر عن
الروابط العميقة التى تربط العربى بقوميته ، وكان من الجائز الاشتباه بهذه
الدعوة ، لأن المستعمر الأجنبى الغربى الذى كان يحتل أقطارنا لم يكن يخفى
ارتياحه لهذه العلمانية ، بل كان يشجعها ، لأن ذلك كان يؤدى إلى إفقار قوميتنا
من دمها ومن نُسخ الحياة (٣٧) فيها ، من أصالتها ، من روحها ، لذلك كان
من أول ما تصدى له حزبنا فى بدايته هو هذه القومية المجردة .

(٣٧) النسخ - بضم النون وسكون السين - : السائل الغذائى الذى يمثل مصدر الحياة
لللكائن الحى ، عندما تمتصه عروقه فيجرى فيها .

أذكركم ببعض الكلمات التي كانت تشير إلى ذلك . . فهناك إشارة في كراس «ذكرى الرسول» إلى القومية التي تأتينا من الغرب على النمط الأوربي ، ونشير إلى الفارق بين قوميتنا وبين القوميات الغربية ، وإلى أن الإسلام هو تاريخنا ، وهو بطولاتنا ، وهو لغتنا وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون ، وأشياء كثيرة يصعب حصرها وتعدادها . فما الذي يضطرنا ، لكي نكون قوميين سليمي الانتماء ، أن نطرح كل هذا من حياتنا ونضعه على الهامش ؟ ! فإذا نحن ذهبنا ، بكل بساطة وصراحة ، إلى واقعنا الحي ، ماهو واقعنا؟ هو العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام .

أما العلمانية ، بمعنى أن الدستور والقوانين لامتياز مذهباً على آخر في القبول للوظائف أو في كذا وكذا ، هذه أمور بسيطة ، ونسلم بها ، ونحن نمشي مع هذا العصر ، ولانجادل في ذلك إذا كانت المسألة مسألة نصوص دستورية وقانونية . ولكن البعث وضع الأمور في نصابها ، عندما وضع الإسلام ، كثرة أخلاقية وفكرية واجتماعية حاسمة في تاريخ البشر ، وضعها في صلب القومية العربية . بهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم ، هذا إذا كان العربي صادق العروبة ، وإذا كان متجرداً من الأهواء ومتجرداً من المصالح الذاتية . العروبة تعني الإسلام بهذا المعنى الرفيع الذي لاتعصب فيه ولا تميز ولا أي شيء سلبي . .

فإذا نحن ، لم يكن ممكننا لنظرة كنظرة البعث ، أن تؤخذ بخرافة العلمانية وسطحياتها ، وإن كنا لانجادل في الحدود والتطبيقات القانونية والدستورية لما يفهم من العلمانية . ولكن العلمانية ، كإهمال وبتراً لأهم شيء في قوميتنا وفي تاريخنا وفي تكويننا النفسي والعقلي ، هذا شيء غير مقبول ، وغير واقعي ، وقد

سقط منذ أن ظهر حزب البعث ، ولم يعد لتلك النظرة قيمة كبيرة . . » (٣٨) .

فعلمانية الدستور والقوانين مقبولة ولا جدال فيها . . أما علمانية القومية ، بتجريدتها من الإسلام - الذى هو فى صلبها - فتلك خرافة وسطحية ، رفضها ويرفضها البعث دونما جدال ١ . .

وفى ذات العام - عام ١٩٧٦ م - . . وعقب محاضرة أخرى فى مدرسة الإعداد الحزبى . . سئل ميشيل عفلق ، مرة ثانية :

« يُرَجَى توضيح مفهوم العلمانية » . . فكان جوابه ، الذى فصل فيه الحديث ، كما لم يفصله فى مناسبة أخرى ، عندما قال :

« كان هناك ، عند ظهور الحزب ، مفهوم سائد للعلمانية ، اعتبرناه مفهوما سطحيا ، غير متجاوب مع روح الأمة وطموحها الحضارى . . والحزب منذ بداية إعلانه عن فكرته ، حاول تصحيح هذا المفهوم .

العلمانية ، بمفهومها الذى كان رائجا فى ذلك الحين ، أى فى بداية الأربعينيات ، سواء فى الأوساط الثقافية المتأثرة بالثقافة الغربية ، أو فى الأوساط المتأثرة بالماركسية . العلمانية ، فى ادعائهم ، تعنى : التحرر من الدين ، الإهمال لكل ما له علاقة بالدين والتراث ، لكى يلتقى المواطنون على صعيد واحد أمام المفهوم القومى ، أو أمام القومية أو الوطنية . وهذا كان تبريره : تعدد المذاهب والأديان فى وطننا العربى وفى بعض أقطاره ، وأقطار المشرق بصورة خاصة . . فكنا ضدهذه النظرة . لماذا ؟

(٣٨) [فى سبيل البعث] : جـ ٣ ، ص ٣٣ - ٣٥ - « أصالة الأمة قوة نضالية متجددة » - ١٩ / ١ / ١٩٧٦ م - .

نحن انطلقنا من تصور حى لواقع الأمة العربية ، الأمة لها ماض . . لها تراث ضخم ، هو أثمن شىء فى حياتها ، وهو داخل فى حاضرها ، مؤثر إذن فى تربيتها . . فى تكوين شخصيتها . . فى عواطفها وأفكارها فى آمالها وتطلعاتها . وعندما نقول للعربى : تجرد من كل ذلك حتى تصبح عربيا ، كأننا حكمنا عليه بالموت أو بما يشبه الموت ! ، إذ ما يبقى من العربى عندما يتجرد من تراثه ؟ ! .

الحزب ، كما تعرفون ، بدأ بنظرة جديدة إلى التراث ، هى من أهم أفكار الحزب . . أنا أقولها بصراحة ، فيما يخصنى . خلاصة أفكارى وضعتها فى تلك الكلمة : (ذكرى الرسول العربى) . . لأن القومية العربية ليست هكذا مجرد مجرد انتماء مواطنين فى وطن ، لهم حقوق وعليهم واجبات ، يشتركون فى مصالح وعواطف . . نحن إذا دققنا فى العواطف ، سنجد بأن جماهير شعبنا لها عواطف نحو هذا التراث ، الذى هو شىء حى فى حياتها . . وليس تاريخا نقرأه ، وإنما تمارسه وتحياه . عقيدتها الدينية هى هذا التراث الضخم . . عندما نقول : «أمة عربية واحدة ، ذات رسالة خالدة» ، أى رسالة هى ؟ ماذا أعطى العرب أعظم من هذه الرسالة ؟ ماذا يقدمون عندما تتبارى الأمم ؟

الفرق ، هو أن حزبنا لم يكن مثل التقليديين الجامدين الذين كانوا يتوهمون بأن تكرار قراءة التراث والتغنى به تجمىء للعرب بالتقدم مجانا . . كهبة جاهزة . . هكذا . فى كتابات الحزب . . انطلقنا من النظرة بأن التراث لانفهمه إلا عندما نناضل ، لانستحقه إلا عندما نعمل الثورة العربية . . التراث يبقى أصم جامدا وبلا معنى إذا لم نرتق فى نضالنا وبثورتنا ، ونتجدد ونقطع المراحل النضالية والثورية التى لا بد منها لنهوض أى شعب ، عندها تحل أسرار التراث ، ويصبح مفهوما ، ويصبح متفاعلا مع حياتنا ، ونصبح مجددين لهذا التراث ومتابعين لقيمه ومعانيه .

فالعلمانية التى تعنى شطب وإلغاء كل هذا الجانب . . مرفوضة ، وهى سطحية ، وأحيانا مشبوهة . . عندما تكون كذلك . . لكن نظرتنا هذه إلى التراث تمنعنا من القول بأن المواطنين جميعا ، فى الدولة العربية المقبلة ، متساوون فى الحقوق والواجبات ، لاتفريق فى المذهب بين فئة وأخرى . هذا شىء . . وإعطاء التراث حقه ، وهو أضخم شطر فى حياتنا الفكرية والعاطفية من تاريخنا ومن حاضرنا ، وبالتالى من مستقبلنا هذا شىء آخر .

فى الناحية التى نحن بصددھا ، كان هناك شعار سائد : الدين لله والوطن للجميع . . وكان هذا شعارا تقدميا ، استطاع أن يوحد فئات الشعب وطوائفه فى وجه المحتل الأجنبى ، استطاع أن يحقق نوعا من الوحدة الوطنية . التجديد الذى عمله الحزب ، يمكن تسميته ارتقاء من منطق التطور إلى منطق الثورة والانقلاب . . الارتقاء من مفهوم الوطنية إلى مفهوم القومية . الشعار الذى كان وليد المرحلة السابقة أوجد وحدة على السطح وترك الخلافات فى الباطن وفى الأعماق . . أوجد وحدة فى الوعى الوطنى المحدود والسطحى ، وأبقى الخلافات فى جزء كبير من العواطف والارتباطات والولاءات النفسية والفكرية . أوجد وحدة وطنية وترك المجال واسعا لتشتت وانقسام حضارى ، أوجد جبهة شكلية وسطحية فى وجه الاستعمار ، وترك مجالات عديدة لأكثر من جهة أجنبية لكى تفسد البنية الداخلية لکیان الأمة والمجتمع . لذلك ، فإن هذا المفهوم للعلمانية ، الذى كان فى وقت ما خطوة تقدمية ، أمسى عامل تشويه وخنق لانطلاقة الأمة على المستوى الحضارى والإنسانى . وبكلمة مختصرة ، كان ذلك المفهوم يسىء من ناحيتين :

الأولى : أنه بحجة التقاء جميع فئات وطوائف الشعب على صعيد الوطنية ، كان يطلب من الأكثرية الساحقة من الجماهير العربية - وهى مسلمة - أن تنسى

أو تغفل التراث القومى . . أو على الأقل لا يكون لقاءها به لقاء صريحاً مطلوباً وحاراً ، وإنما لقاء له طابع الشئ الخاص الفئوى المتهم بالتعصب ، بدلاً من أن يكون الغذاء الروحى والفكرى والنضالى للأمة كلها . .

الثانية : حرمان الطوائف الأخرى ، من غير المسلمين ، من التراث العربى ، الذى هو تراثها ، وبالتالى إبعادها عن تحقيق شخصيتها الكاملة ، وتركها فريسة للأيدى والتوجيهات الأجنبية . . ولشتى التيارات التى تستلب جزءاً من شخصيتها . وترك الفجوة بينها وبين القسم الآخر والأكبر من بنى قومها وشعبها تتسع مع الزمن لتصل أحياناً إلى التناقض .

فتفكير الحزب تناول المسألة القومية من الجذور التاريخية والفكرية والنفسية ، واعتبر أن للعرب جميعاً تراثاً قومياً واحداً يشتركون فيه ، بصرف النظر عن العقيدة الدينية ، وإن كان هذا التراث هو ، أيضاً ، عقيدة بالنسبة للأكثرية .

وعندما قلنا بأن ذلك المفهوم للعلمانية كان فى بعض الأحيان مشبوهاً ، كنا نقصد أن بعض المروجين له كانوا من الاستعماريين أو أدوات الاستعمار ، ويريدون من ورائه ليس لقاء الجميع على صعيد الوطنية ، كما كان الادعاء ، بل نسيان الأمة لتراثها ، يقابل هذا النسيان ترويج وتعميم للثقافة الغربية والحضارة الغربية . أى أنه كان هناك عملية احتيال ! ! . . » (٣٩) .

ففى هذه الإجابة المسهبة ، التى قدمها ميشيل عفلق لتوضيح مفهوم العلمانية ، ركز على رفض وإدانة مفهومها الذى يجرّد القومية وروابط وحدة الأمة ومقومات نهضتها ومشروعها الحضارى من التراث القومى ، الذى هو

(٣٩) المصدر السابق: جـ ٣، ص ٤٢ - ٤٥ - «فهم التراث بالفكر الثورى والمعاناة النضالية» - ٢ / ٤ / ١٩٧٦ م - .

الإسلام بما فيه عقيدته الدينية . . واعتبر هذا المفهوم ، الذى كان يتبناه المتأثرون بالثقافة الغربية ، ، الليبراليون منهم والماركسيون ، اعتبره مفهوما سطحيا . . بل ومشبوها ، لأنه مجرد قومية الأمة من المكون الحقيقى لوحدها . . الذى هو عقيدة وتراث لم الأغلبية ، وتراث الأقلية . . وذلك لحساب ترويض وتعميم الثقافة الغربية والحضارة الغربية ! . .

وفى سنة ١٩٨٠ م . . يتوجه عدد من البعثيين السودانيين إلى ميشيل عفلق أثناء لقائهم به - بذات السؤال :

«كيف نوفق بين علمانية البعث ونظرته الإيجابية للدين ؟!» . .

وعن هذا السؤال يجيب ميشيل عفلق إجابة مسهبة ، لا تخرج عن الأفكار التى قدمها فى النص السابق الذى أوردناه . . إجابة يشير فيها إلى عدة أفكار محورية . . من مثل :

● إنه لاتناقض بين علمانية البعث وبين موقفه الإيجابى من الدين . . فالعلمانية للدولة والقانون الذى يسوى بين المواطنين . . والدين - كتراث روحى لوحدة الأمة وتغذية روحها الحضارى . .

● إن الدين حاجة إنسانية خالدة ، حتى وإن تجددت أشكال التدين . . وتلك حقيقة قد تحدى بها البعث الإرهاب الفكرى للمادية الماركسية . .

● إن مهمة البعث قومية ، وليست دينية ، تعنى بشئون الآخرة ، أو بإقامة دولة دينية . . فتدين الحضارة ، بتغذيتها من تراثها وعقيدتها لا يستلزم تدين الدولة ، بدستورها وقانونها . . فمرجعية الدين فى القومية تجعله يحقق الانسجام فى تكوين الأمة ، وعلمانية الدولة تحقق المساواة لمواطنيها على اختلاف العقائد والمذاهب الدينية . .

حول هذه القضايا والمعاني ، تحدث ميشيل عفلق عن رأيه في اتساق علمانية البعث مع نظريته الإيجابية للدين ، فقال :

« . . علينا أن نتعمق لنرى أن ما يبدو متناقضا ، هو ليس كذلك . فالبعث علماني ، وله نظرة إيجابية ، ونظرة عميقة ورائدة للدين ، سبق فيها الكثيرين . . »

في الوقت الذي ظهر فيه الحزب ، كانت الماركسية سائدة فكريا بين المثقفين في العالم ، فلم يستسلم لإرهاب فكري عالمي ، وأعطى للدين أهميته في النفس الإنسانية ، وفي التاريخ الإنساني ، وفي المستقبل الإنساني أيضا ، لأن الحزب نظر إلى الدين كشئ خالد . فالحاجة للدين شئ عميق وأساسي ، ولا يمكن أن يزول ، فأشكاله وصوره يمكن أن تتطور . التدين قابل للتطور ، لكن الدين ، من حيث إنه حاجة إنسانية ، خالدة . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، نظر إلى تراثه الروحي من خلال الأمة العربية ، فأعطاه المعنى الحى الثورى الذى يمكن أن يكون أساس الثورة العربية الحديثة . فالفهم العميق للدين ، والفهم العميق للإسلام ، كدين وكتراث عربى ثورى حضارى ، أوصل إلى نتيجة يمكن أن نعبر عنها هكذا : الحياة العربية الحديثة . . والمستقبل العربى الذى نريده . . لا يمكن أن يكون إذا لم يرتو إلى أبعد حدود الانواء من معين التراث الروحي للأمة العربية ، وإذا لم تكن نظرتها إلى الروح نظرة إيجابية عميقة . . . فعندما تنهض الأمة نهوضا سياسيا واجتماعيا ، لابد أن تنهض نهوضا دينيا . . إن نظرتنا أدخلت الشئ الأساسى والجوهري فى الدين ، أدخلته فى الحياة القومية ، إلا أنها لم تجعل مهمتها دينية . يعنى ، مهمة البعث العربى ليست شئون الآخرة وشئون العقاب والشواب . جوهر الدين : حركة تنقية وتطهير للنفس والمجتمع ، ورجوع إلى الصفاء ، إلى البهية ، إلى الفطرة ، إلى التجاوب

السليم مع قوانين الحياة التى لاتستقيم إلا بالمقاييس الأخلاقية ، وبمقاييس العدل ، وبمقاييس الرحمة ، وهذه الأشياء التى نص عليها الدين .

بالإضافة إلى كل ذلك ، نحن فهمنا من الإسلام الوصايا ، وصايا نموذجية لحياة العرب ، ولها إشعاع إنسانى . وهو ثورة إنسانية ظهرت فى أرض العرب ، ومادتها العرب . العرب هم مادة الإسلام ، لكن هى ثورة إنسانية بأعمق معانى هذه الكلمة ، لأن الإسلام يعالج كيف ينبغى للعربى وغير العربى أن يتصرف . . فالإسلام يتوجه إلى البشر عامة ، لكن هذه الرسالة ظهرت عند العرب ، وجنودها وأبطالها هم من العرب . . كل هذا كان فى نظر الحزب درسا ثميناً ، يمكن أن يتجدد دوماً ، وليس شيئاً للمحفظ ، للتقديس ، للإعجاب فقط ، إنها فيه قابلية دائمة فى الأمة العربية لأن تجدد نفسها حسب هذا النموذج ، أى نموذج الإسلام . .

ونحن فى هذا العصر ، وفى سعينا لبناء المستقبل الجديد الناهض ، مهمتنا ليست إنشاء دولة دينية ، بل دولة قومية ، الدين جزء أساسى فيها ، كروح ينبث فى فكرها ، ينبث فى نظرتها الأخلاقية ، فى نظرتها الإنسانية . نحن أمة عربية ، تعيش ضمن شعوب لها ديانات مختلفة وحضارات مختلفة . . وعلينا أن نتعامل مع هذا العصر ومع هذه الإنسانية . فلا يمكن أن نتقيد بحرفية النصوص ، أو نرجع إلى أمور تكون هى عامل تفرقة ، وقد تكون مظهر تخلف بدلاً من أن تكون عامل نهوض .

هذا المقصود بالعلمانية . العلمانية : تريد أن تبنى مجتمعا قوميا ودولة قومية ، لاتفرق بين المواطنين ، تحترم حرية كل الفئات وكل المذاهب والمعتقدات . ليس هنالك تمايز أو تمييز بين فئة لها امتيازات على فئة أخرى ، الكل فى حرف القانون ، فى عرف الدولة ، متساوون ، أمامهم نفس الغرض ، نحترم حرية الإنسان ، كرامة الإنسان .

ولكن، هل هذه العلمانية، تعنى فقط أن نجمع فئات متباينة في هذا المجتمع ونسميها أمة عربية؟! أم أننا نحرص على الانسجام الحقيقي العميق، الانسجام الفكري والروحي في هذه الأمة؟

الانسجام هو أساس تكوين الأمة، وأساس استمرارها، وأساس تطورها وعطائها. هناك التربية القومية التي يدخل جوهر الدين فيها وروح الإسلام، لأنه هو النموذج الثوري العربى، المثل العربية، الأخلاقية الإنسانية فيه، تدخل في التربية القومية عندما تؤمن لكل المواطنين تربية قومية توحدهم، عندها لايمنا أن يكون هناك هذا المذهب، وهناك هذا الدين، وهناك هذه الطائفة، طالما أن كل المواطنين انصهروا في تربية قومية واحدة، عندها الانتهاء للأديان وللطوائف يصبح انتهاء لأشياء، قد تكون تراثية، تاريخية، أى شىء، لكن لايتناقض ولايتعارض مع أهداف الدولة العربية، بهذا نكون قد ضمنا نموذجا واحدا موحدًا لكل المواطنين في الدولة العربية! . . .» (٤٠).

هنا - كما سبقنا إشارتنا - يستدعى ميشيل عفلق من الإسلام الروح الموحدة للأمة، تلك التى تسرى في تربيتها القومية من تراثها الروحي، وتسرى في فكرها، وفي نظرتها الأخلاقية، وفي نظرتها الإنسانية. . . ويستبعد منه شريعته وقانونه، بزعم أن ذلك سيؤدى إلى دولة دينية غير عصرية، تكون نشازا في عالم معاصر، لامناص فيه من التعامل مع شعوب ودول وحضارات متعددة الأديان. . . وهو يخشى أيضا من تعددية المذاهب والأديان داخل الأمة العربية والدولة العربية، فيكتفى « بروح الإسلام الموحدة» دون «شريعته التى توهم أنها مفرقة». . . فهل كان - وهو الذى قال ذلك في حقبة العراقية - يفكر في الانقسام «السنى - الشيعى»! . . .

(٤٠) المصدر السابق: ج ٥، ص ٢٧٤ - ٢٧٨ - «طموح البحث أن يكون حركة حضارية»
- ١٩٨٠م / ٨ / ٢ - .

مهما كانت أسباب هذا الموقف ، فإن النتيجة هي أن هذا الرأي الذى استبعد شطرا من الإسلام ، مراعاة لاختلافات المذاهب والأديان ، قد وقع أسير «المنطق» الذى استبعد أهله كل الإسلام مراعاة لهذا الاعتبار . وهو «المنطق» الذى سبق أن انتقده ميشيل عفلق ، ووسمه بالسطحية وعدم التجاوب مع روح الأمة وطموحها الحضارى . . وحقيقة الأمر، أن شريعة الإسلام - كعقيدته وقيمه وحضارته - هي سبيل توحيد ، وهي أنجح النماذج التاريخية التى حققت التعايش بين مختلف المذاهب والأديان ! . .

لقد كانت القضية الكبرى للمشروع الفكرى البعثى ، هي القضية القومية . . القومية العربية . . ولذلك ، كان شاغله الأعظم هو علاقة «العروبة» بـ «الإسلام» . . وليس علاقة «الدولة» بـ «الإسلام» . . فالبعث - كحزب قومى قد استدعى من الإسلام ما يجعل العروبة رباطا قوميا يحقق للأمة العربية العزة والمنعة والوحدة والنهوض . . ولذلك ، وقف من العلمانية عند رفض «مفهومها الغربى ، الذى يهمل التراث » معتبرا إياه « انحرافا بالفكر القومى »^(٤١) عن الطريق السديد . . واكتفى «بنقد العلمانية المستوردة من الغرب ، وألح على الصلة العضوية المصيرية بين العروبة والإسلام . .»^(٤٢) .

لقد وقف ضد العلمانية ، بمفهومها الغربى . . اتساقا مع تصديه لشغرات الغزو الفكرى الذى شنه الاستعمار الغربى وحضارته على أمتنا العربية وحضارتها الإسلامية . . واتساقا مع ضرورة استدعاء الروح الإسلامية ، روح الإسلام كعقيدة . . وثورة . . وحضارة . . وأخلاق . . وتجربة إنسانية . .

(٤١) من خطاب ميشيل عفلق « العمل المستقبلى - نداء إلى الأمة - ٧ - ٤ - ١٩٨٨ م - طبعة بغداد سنة ١٩٨٨ م .

(٤٢) من خطاب ميشيل عفلق فى ٧ - ٤ - ١٩٨٩ م ص ٩ . طبعة بغداد سنة ١٩٨٩ م - مطبعة العمال المركزية .

ورسالة خالدة للأمة العربية . . استدعاء ذلك ، كروابط تقيم وحدة الأمة ، وتعطى قوميتها أبعاد الإنسانية والخلود . . لقد استدعى من الإسلام ما يميز القومية العربية عن القوميات الغربية . . وأهمل منه الشريعة والقانون . . فوقف عند «الصيغة القومية» ، ولم يبلغ مستوى «الصيغة الإسلامية» التى تستدعى كامل الإسلام لكل ميادين الحياة! . . ومن ثم ، فلقد وقع - حياى قضية الغزو الفكرى - فى تناقض لا يخرجه منه سوى التبنى لكامل الإسلام : عقيدة . . وشريعة . . مع الحضارة . .

ذلك ، أن الغزو الفكرى الغربى ، الذى رفضه المشروع البعثى ، بسبب تجريده «القومية» من «التراث» . . أى تجريده «العروبة» من «الإسلام» . . هو ذاته الغزو الفكرى ، الذى جاءنا بـ «الدولة العلمانية» . . أى «الدولة» المجردة من «الشريعة الإسلامية والقانون الإسلامى» . . فكان الواجب - والذى لا يزال واجبا - على المشروع البعثى أن يرفض هذا الغزو هنا - فى مجال الدولة - كما رفضه هناك - فى مجال القومية - ! .

فالموقف «الإسلامى» . . الذى يتبنى كامل الإسلام لكامل سمات وميادين المشروع الحضارى ، هو الموقف الوحيد الذى يحظى بالمصادقية والموضوعية والاتساق! . .

أيهما أولاً.. العروبة؟ أم الإسلام؟!

كان ميشيل عفلق - بكل المقاييس - واحداً من أبرز المفكرين القوميين العرب المعاصرين . . وكانت القضية القومية ، هي ميدان اهتمامه الأول . بل لقد كانت ، بالنسبة إلى كتاباته ونضالاته ، زاوية الرؤية التي يرى من خلالها كل شيء ، والمعيار الذي يزن به سائر الأمور ، والقانون الذي يحاكم إليه كل النظريات والدعوات والحركات . . . ولذلك ، فلقد كان طبيعياً أن نرى في علاقة القومية العربية بالإسلام ، من خلال مشروعه الفكري ، الميدان الأول والرئيسي لقضية مكانة الإسلام في مشروعه الحضارى ، وموقعه في مرجعية هذا المشروع . .

لقد كانت « القومية - أى العروبة » هي محور المشروع البحثي . . فأين منها وفيها موقع « الإسلام » ؟ ! .

* * *

هنا . . وفي الإجابة عن هذا السؤال ، سنرى الخط البياني الصاعد لتطور فكر ميشيل عفلق إزاء مرجعية الإسلام ومكانته بين مكونات القومية العربية . . وهو تطور احتفظ فيه الرجل « بثوابت » بدأ بها منذ فجر حياته الفكرية والنضالية ، تؤكد على العلاقة الخاصة بين الإسلام والعروبة ، وتنبه على دور

هذه العلاقة في تميز القومية العربية عن القوميات الأخرى . . تميزها بالخلود والإطلاق النابعين من خلود الدين الإسلامى ومن اتسام الفكر الدينى بالإطلاق . . وهو تميز امتد إلى أمة هذه القومية - الأمة العربية - عندما جعل الإسلام لها «رسالة خالدة» ، حملتها وتحملها إلى الناس أجمعين . . ولهذا الخصوصية في العلاقة بين العروبة والإسلام ، ولامتياز الإسلام بخاصية التجدد الدائم ، فلقد تميزت هذه العلاقة هى الأخرى بالدوام - في مشروع النهضة المعاصرة كما في النهضة العربية التى فجرها ظهور الإسلام - . . ومن ثم ، فلقد تميزت صيغة البعث في المسألة القومية عن الصيغ القومية التى نشأت في الحضارة الغربية ، والتى استعارها قوميون عرب ، جردوا القومية من هذه العلاقة العضوية والخاصة بالإسلام . .

تلك أمور « جوهرية - وثوابت » في المشروع الفكرى القومى لميشيل عفلق ، على امتداد الخمسين عاما التى قضاها الرجل في الكتابة والنضال . .

أما القضايا التى شهدت « تطورا » في فكره إزاء علاقة العروبة بالإسلام ، ومن ثم مكانة الإسلام بين مكونات القومية العربية . . فلعل أبرزها ، بعد وضوح الرؤية . . واتساع مساحة الحديث عن الإسلام ودوره في المسألة القومية :

● أن الرجل كان يرى في العقود التى سبقت عقد السبعينيات انفراد القومية وحدها كمحرك للأمة العربية نحو الثورة والنهوض . . والإسلام الحضارى هنا هو مجرد مكون من مكونات القومية يغذيها بترائه الروحى ، وهو مُتَضَمَّن فيها . .

● أما منذ عقد السبعينيات . . وبعد اتساع مساحة الحديث عن الإسلام في مشروعه الحضارى ، فلقد أصبح الإسلام أكبر من مكون من مكونات القومية العربية . . أصبح أباهما الذى ولدت منه ولادة جديدة . . كما أصبح

الإسلام الحضارى خياراً قائماً بذاته ضمن خيارات النهضة الثلاثة ، كما تحدث عنها ميشيل عفلق ، وهى : القومية . . . والتقدم . . . والإسلام الحضارى . . .

لقد كانت العروبة - فى المرحلة الأولى - هى الأصل . . . وكان الإسلام مجرد «مُصِصَح» عن رسالة الأمة العربية ، إبان ظهوره . . . وكانت القومية - - وليس الإسلام - - هى « المُصِصَح » عن رسالة الأمة فى العصر الحديث . . . أما فى المرحلة الثانية - مرحلة «الحقبة العراقية» فى تطور ميشيل عفلق - فلقد تحدث عن الإسلام باعتباره الأب الشرعى للعروبة - - وليس المصصح عنها - . . . وباعتباره المكوّن الأول لها . . . وجوهر مشروعها النهضوى . . . بل وباعتباره وطن الأمة والسياسج الحامى لوحدها ، فى الماضى والحاضر والمستقبل على السواء ! . . . لقد أصبح : ديناً . . . ووطناً . . . ووطنية . . . وقومية . . . وحضارة . . . وثقافة . . . بل ومبرر الوجود للأمة العربية ! . . .

* * *

لقد بدأ عفلق مؤمناً بالإسلام ، كدين سماوى . . . لكن ما كان يهمه منه فى مشروعه الفكرى ، ويستدعيه منه فى حركته القومية هو « الحركة » التى قام بها العرب عندما تدينوا بهذا الدين . . . كانت « الحركة - العربية » ، المتمثلة فى إنجاز الأمة العربية هى ما يحفل ويحتفل به ويبرزه ويستدعيه . . . ولعلاقة « المُحرّك - الإسلام » بـ « الحركة - الأمة - وقوميتها » ، فلقد رفض ميشيل عفلق نموذج القومية الغربى ، المجرد من الدين ، ورأى للعرب وقوميتهم خصوصية متميزة فى هذا الميدان ، جاءت ثمرة للعلاقة العضوية بين العروبة والإسلام . . . فالمفهوم الغربى للقومية يجعلها نقيضاً للدين ، لثبات الدين ونسبيتها ولإلهية الدين ويشريتها : وهو يجردها من التراث - لأنها ، لديه ، ظاهرة حديثة لاعلاقة لها بالتراث - بينما نرى - فى الواقع العربى - علاقة الإسلام بالعروبة قد منحتها شيئاً

من خلوده وإطلاقه . . كما أصبح تراثه الروحي المعين الذى ترتوى منه العروبة والقومية العربية دائما وأبدا . فالإسلام غير أجنبى عن الأمة العربية ، كما هو حال الدين المسيحى مع القوميات الغربية . واللغة العربية هي - عندنا - لغة الدين والقومية معا ، وليس كذلك لغة الدين والقوميات فى الغرب . . والإسلام الحضارى . . الحركة . . الثورة . . التاريخ . . الرسالة الإنسانية . . التجربة التى امتزجت فيها تأثيرات السماء باستجابات الأرض . . كل هذا الجانب البشرى من الإسلام - والذى هو وليد الآلام العربية ، ومفصح عن عبقرية الأمة العربية - قد غدا مكونا ومغذيا للقومية العربية . . الأمر الذى ميزها ويميزها على القوميات الغربية . .

يحدثنا ميشيل عفلق عن هذه القضية ، منذ السنوات الأولى فى حياته الفكرية والنضالية ، فيكتب فى سنة ١٩٤١ م ، يقول :

«إن هذه القومية التى تأتينا من أوروبا مع الكتب والمجلات تهددنا بخطر مزدوج . فهى من جهة تنسينا شخصيتنا وتشوهها ، ومن جهة أخرى تسلبنا واقعنا الحى ، وتعطينا بدلا منه ألفاظا فارغة ورموزا مجردة . . وإن فى مقارنة القومية بالدين والتقاليد والفن ، مثلا ، ماينم عن إخلال بدقة التفكير ، وفهم جزئى للقومية كأنها شىء مستقل عن الدين والتقاليد والفن ، مع أنها التربة التى تنمو فيها مواهب أمة ما فى كل الميادين . وعلى هذا ، لايعود جائزا أن نخلق خصومة بينها وبين أحد أجزائها الأصيلة المنبعثة منها ، ولا أن نساوينا به . إن التفكير المجرد منطقى مع نفسه إذ يقرر أن القومية لايسد أن تصطدم بالدين مثلا لأنها يختلفان فى المنيع والمظاهر .

ولكن ، لنهجر اللفظ قليلا ، ولنسم الأشياء بأسمائها وصفاتها المميزة ، فنستبدل بالقومية «العروبة» وبالدين «الإسلام» ، تظهر لنا المسألة تحت ضوء

جديد . فالإسلام ، في حقيقته الصافية ، نشأ في قلب العروبة ، وأفصح عن عبقريتها أحسن إفصاح ، وسائر تاريخها ، وامتزج به في أجد أدواره ، فلا يمكن أن يكون ثمة اصطدام . وبعد ، فهل القومية محصورة بالأرض ، كما يظن ، بعيدة كل البعد عن السماء ، حتى يعتبر الدين شاغلا عنها مبذرا لبعض ثروتها ، بدلا من اعتباره جزءا منها مغذيا لها ومفصحا عن أهم نواحيها الروحية والمثالية؟ . . . إن القومية العربية ليست نظرية ، ولكنها مبعث النظريات ، ولاهى وليدة الفكر ، بل مرضعته ، وليست مستبعدة الفن ، بل نبعه وروحه ، وليس بين الحرية وبينها تضاد ، لأنها هي الحرية ، إذا ما انطلقت في سيرها الطبيعي وتحققت ملء قدرتها . . .» (١) .

هنا يرفض ميشيل عفلق نموذج القومية الغربية ، الذى تتجرد القومية فيه من الدين وذلك لإيمانه بعلاقة الإسلام بالعروبة ، في النموذج القومى العربى . . . لكنه يرى الإسلام «جزءا» من أجزاء القومية العربية . . . «نشأ في قلب العروبة ، وأفصح عن عبقريتها» . . . فهى الأصل وهو الفرع . . . وهى الكل وهو الجزء . . .

وفي سنة ١٩٤٣ م . . . يعيد عفلق تأكيد هذه المعانى التى تدعو إلى تمييز قوميتنا عن القوميات الغربية ، فيقول :

« . . . فالفكرة القومية المجردة في الغرب - [أى المجردة عن الدين] - منطقية إذ تقرر انفصال القومية عن الدين ، لأن الدين دخل على أوربا من الخارج ، فهو أجنبى عن طبيعتها وتاريخها ، وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق ، لم ينزل بلغاتهم القومية ولا أفصح عن حاجات بيئتهم ، ولا امتزج

(١) [في سينال : ج ١ ، ص ١٣٧ - ١٣٩ - « في القومية العربية » - سنة ١٩٤١ م . . .

بتاريخهم ، في حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ، ولا هو أخلاق مجردة ، بل هو أجل مفسح عن شعورهم الكونى ونظرتهم إلى الحياة ، وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التى يتدمج فيها اللفظ بالشعور والفكر ، والتأمل بالعمل ، والنفسى بالقدر . وهو فوق ذلك كله أروع صورة للغتهم وآدابهم ، وأضخم قطعة من تاريخهم القومى ، فلا نستطيع أن نتغنى ببطل من أبطالنا الخالدين بصفته عربيا ونهمله أو نتفر منه بصفته مسلما . قوميتنا كائن حتى متشابك الأعضاء ، وكل تشريح لجسمها وفصل بين أعضائها يهددها بالقتل .

فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذن كعلاقة أى دين بأية قومية . .

فملحمة الإسلام لا تنفصل عن مسرحها الطبيعى ، الذى هو أرض العرب ، وعن أبطالها والعاملين فيها ، وهم كل العرب . . . فالإسلام ، إذن ، كان حركة عربية ، وكان معناه : تجدد العروبة وتكاملها ، فاللغة التى نزل بها كانت اللغة العربية ، وفهمه للأشياء كان بمنظار العقل العربى ، والفضائل التى عززها كانت فضائل عربية ظاهرة أو كامنة ، والعيوب التى حاربها كانت عيوباً عربية سائرة فى طريق الزوال ، والمسلم فى ذلك الحين لم يكن سوى العربى ، ولكن العربى الجديد ، المتطور ، المتكامل . . . إن هذا الدين يمثل وثبة العروبة إلى الوحدة والقوة والرقى . . .

فعلق هنا مع اعترافه « بساوية » الإسلام ، كدين إلهى . . إلا أنه يسلط كل الضوء على الجانب « البشرى » فيه . . على « الحركة العربية » التى أفصحته عن عبقرية الأمة فى صورة الإسلام . .

وهو ينفى أن يكون الإسلام قد « وجد ليكون مقصوداً على العرب » . . ولكنه يعتبر بعده الإنسانى التعبير عن نزوع الأمة العربية « فى أصل تكوينها إلى القيم

الخالدة الشاملة ، والإسلام خير مفصح عن نزوع الأمة العربية إلى الخلود والشمول . . فرسالة الإسلام إنما هي : خلق إنسانية عربية !» .

وهو - في هذه المرحلة من مراحل فكره - لا يرى اليقظة العربية الأولى ثمرة للإسلام ، وبعضاً من آثاره وتجلياته ، وإنما يرى في الرسالة الدينية الإسلامية مفصلاً عن تلك اليقظة القومية العربية الأولى ! . . فيقول ، مغلباً « البشرى » على « السماوى » في هذا الذى شهدته العرب إبان ظهور الإسلام :

«إن العرب ينفردون دون سائر الأمم بهذه الخاصية : أن يقظتهم القومية اقترنت برسالة دينية ، أو بالأحرى كانت هذه الرسالة مفصحة عن تلك اليقظة القومية . . . وما الإسلام إلا وليد الآلام ، آلام العروبة ! . . .» .

وبسبب من هذا الموقف ، المتأثر - رغم تدين صاحبه - بالتحليل المادى لنشأة الأديان . . الموقف الذى رأى في الإسلام مجرد مكون ومغذ للقومية العربية ، أفصح - بلغة السواء - عن يقظة العرب الأولى ، وعبرية أمتهم ، وتجسد في الحركة البشرية العربية : الثورة . . والعلوم . . والتراث . . والمثل . . والحضارة . . بسبب من هذا الموقف الذى غلب عقل فى « البشرى » على « السماوى » - حيال النظرة للإسلام - رأيناه - رغم حديثه عن البعد الإنسانى والعالمى للإسلام - يرى « أن الإسلام لا يمكن أن يتمثل إلا فى الأمة العربية ، وفى فضائلها ، وأخلاقها ومواهبها . . ولذلك . . وجب أن توجه كل الجهود إلى تقوية العرب وإنهاضهم ، وأن تحصر هذه الجهود فى نطاق القومية العربية » (٢) .

(٢) [فى سبيل البعث] - طبعة دار الطليعة سنة ١٩٧٤م - ص ١٣١١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٣ -
« ذكرى الرسول العربى » - إبريل سنة ١٩٤٣م - .

وفي سنة ١٩٤٦ م . . يعود عفلق ، فيطرق ذات الموضوع ، وليؤكد على ذات الفكرة . . فالأصل والمنبع هو أن للأمة العربية « رسالة خالدة » ، هي « نزوع واستعداد » لتحقيق الذات والإفصاح عن هذه الذات . . نزوع واستعداد دائم وخالد . . أما أشكال الإفصاح والتعبير، فإنها تختلف باختلاف مراحل تطور هذه الأمة . . فقبل الإسلام ، أفصححت الأمة عن ذاتها ورسالتها في صورة « تشريع حمورابى » [١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق . م] مرة . . وفي صورة « الشعر الجاهلى » مرة ثانية . . وعند ظهور الإسلام ، كان الإفصاح عن الذات والرسالة في صورة هذا الدين - « دين محمد » ! . . ثم جاء عصر أفصححت فيه الأمة عن ذاتها ورسالتها في صورة « ثقافة عصر المأمون » . . والآن . . غدت « القومية » هي الصورة العصرية التى تفصح بها الأمة العربية عن ذاتها وعن نزوعها الدائم ورسالتها الخالدة . .

يعبر ميشيل عفلق عن هذه الفكرة عندما يقول : « فهذه الأمة التى أفصححت عن نفسها وعن شعورها بالحياة إفصاحا متعددًا متنوعًا ، فى تشريع حمورابى ، وشعر الجاهلية ، ودين محمد ، وثقافة عصر المأمون ، فيها شعور واحد يبرزها فى مختلف الأزمان ، ولها هدف واحد ، بالرغم من فترات الانقطاع والانحراف . . . لقد أفصح الدين ، فى الماضى ، عن الرسالة العربية التى تقوم على مبادئ إنسانية ، فهل معنى ذلك بأنه يتعذر على هذه الرسالة أن تكون قومية ؟ . . . إن هذه الرسالة يجب أن تفهم على أنها نزوع واستعداد أكثر من كونها أهدافًا معينة محدودة » (٣) . . .

ويذهب عفلق على درب التأكيد لهذا رأى ، الذى يرى الإسلام - فى

(٣) المصدر السابق : ص ٩٨ ، ٩٩ - « الرسالة الخالدة » - سنة ١٩٤٦ م . .

آثاره الأرضية والبشرية - ثمرة لعبقرية الأمة العربية . . وليس ثمرة للوحي الإلهي والوضع الرباني - . . عندما يمضى مؤكدا حلول «القومية» محل «الدين» كالمحرك الأول ، بل والوحيد للأمة العربية في هذا العصر الذي نعيش فيه . .

« . . فمشكلتنا هي : القضية القومية . لكل أمة ، في مرحلة معينة من مراحل حياتها محرك أساسي يهز أعماقها ويفجر فيها ينابيع النشاط والحيوية والحماسة ، ويتفتح له قلبها ، وهو بمثابة نقطة يتركز فيها انتباه الأمة ، وتكون مفصصة عن أعماق حاجاتها في مرحلة ما .

فإذا نظرنا إلى العرب في الماضي ، وجدنا هذا المحرك الأساسي كان في وقت ما ، عند ظهور الإسلام ، هو الدين ، فقد قدر وحده على استثارة كوامن القوى في النفس العربية ، واستطاع أن يحقق الوحدة والتضامن ، وأن يلهب النفوس ، ويفتح القرائح ، وأن يحقق بالتالي تلك النهضة . في ذلك الوقت ، دعى العرب إلى الإيمان بسأله واحد ، فقادهم ذلك الإيمان إلى تحقيق الانقلاب الاجتماعي والاقتصادي الذي كانوا بحاجة إليه . فالإصلاح الاجتماعي كان فرعا ونتيجة للإيمان العميق بالدين .

أما اليوم ، فإن المحرك الأساسي للعرب . . هو القومية ، التي هي كلمة السر التي تستطيع وحدها أن تحرك أوتار قلوبهم ، وتنفض إلى أعماق نفوسهم ، وتتجاوب مع حاجاتهم الحقيقية الأصيلة . . لذلك ، لا يمكنهم أن يفهموا لغة غير لغة القومية . . وكما استجابوا ، في الماضي ، لنداء الدين ، فاستطاعوا أن يحققوا الإصلاح الاجتماعي ، فإنهم يستطيعون اليوم تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين وضمان الحرية بين العرب جميعا ، نتيجة الإيمان القومي وحده! . . » (٤) .

(٤) المصدر السابق : ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ - «معالم الاشتراكية العربية» - سنة ١٩٤٦ م - .

فـ«الإيمان القومي وحده» - بنظر عفلق - هو المحرك الوحيد للأمة ، في عصرنا الراهن ، كما كان « الإيمان الدينى » هو المحرك لها على عهد ظهور الإسلام . . .

ولقد قادت هذه الأفكار - التى اختزلت الإسلام فجعلته « جزءا » من « الكل القومى » . . . واستبدلته ، « كمحرك تاريخى » « بالمحرك القومى » المعاصر قادت هذه الأفكار ميشيل عفلق إلى فكرة أخطر ، جعلته يتبنى « الإسلام : التراث » ، إذ هو من مكونات القومية ، يحقق وحدة الأمة الثقافية والروحية . . على حين قد أهمل « الإسلام : الدين الصرف » ، بدعوى افتقاره إلى ما يميزه ويفضله على الديانات الأخرى فى الواقع العربى ، وبدعوى أنه عامل « تفريق » للأمة ، وليس عامل « توحيد » . . . فكتب فى سنة ١٩٥٠ م . . وسنة ١٩٥٥ م . . وسنة ١٩٥٧ م . . داعيا إلى الوقوف من الإسلام عند تبنى « ناحيته القومية » ، لأنها هى أداة التوحيد للدولة القومية العربية ، دون تبنى « ناحيته الدينية » ، بدعوى أنها عامل « تفريق - لاتوحيد » . . ومُتَوَهِّما وجود تماثل بين « الدولة » فى الإسلام ، وبين نظيرتها فى المسيحية الغربية إبان حكم الكنيسة فى العصور الأوربية الوسطى والمظلمة . . .

قادت هذه الأفكار إلى هذه النتائج . . فكانت عبارات ميشيل عفلق المفصحة عن رؤيته لموقع كل من « الإسلام » و«العروبة» فى معادلة العلاقة بينهما ، فى تلك المرحلة السابقة على تطوره الفكرى . . والتى كتب فيها ، فقال :

« . . إن البعث العربى حركة قومية ، تتوجه إلى العرب كافة ، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، وتقديس حرية الاعتقاد ، وتنظر إلى الأديان نظرة مساواة فى التقديس والاحترام . ولكنها ترى ، إلى جانب ذلك ، فى الإسلام ناحية قومية لها

مكانتها الخطيرة في تكوين التاريخ العربى والقومية العربية ، وتعتبر هذه الناحية ذات صلة وثيقة بـتراث العرب الروحى وبمميزات عبقريتهم . .

فالإسلام ، من حيث هو دين صرف ، مساو لغيره من الأديان فى الدولة العربية التى تساوى بين جميع مواطنيها وتحترم حرية معتقدتهم . والإسلام ، من حيث هو حركة روحية امتزجت بتاريخ العرب واصطبغت بعبقريتهم وأثاحت ظهور نهضتهم الكبرى ، له مكانة خاصة فى روح القومية العربية وثقافتها وحركة انبعاثها . .

وبهذا المعنى ، تستلهم حركة البعث العربى من الإسلام تجددته وثورته على القيم الاصطلاحية . تستقى من نبعه فضائل الإيمان والمشالية والتجرد عن المنافع الشخصية والمغريات الدنيوية فى سبيل نشر المبادئ التى تنقذ العرب فى هذا العصر من ضعفهم وتفككهم وانخفاض مستواهم الروحى والاجتماعى . . «(٥)» .

فهو الموقف الانتقائى . . الذى يستدعى من الإسلام «ناحيته القومية» دون غيرها من نواحيه . .

وهذه «الناحية القومية» من الإسلام ، والتى هى من مكونات العروبة ، ومتضمنة فيها ، هى «عامل التوحيد القومى» فى الإسلام . . بينما - فى رأى عفلق - تكون «النواحي الدينية» ، وكذلك «العالمية - غير العربية» هى عوامل «تفريق» ! . .

« . . فالاسم الذى هو أقرب مايكون إلى الواقع وإلى الماضى وإلى المستقبل هو العروبة . فإذا قلنا : الإسلام ، فسنتسلط مع عالم آخر نصطدم معه

(٥) [فى سبيل البعث] : ج ١ ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ - «العرب بين ماضيهم ومستقبلهم» - ١٩٥٠م .

بالمصالح . فالفروق القائمة في وسط مجتمعا العربي ، تظهر أنها لاشيء أمام
الفروق في وسط العالم الإسلامي . إذا أخذنا الأقليات العنصرية ما بين العالم
العربي والإسلامي نجد لها كثيرة (٦) . . . فالعرب اليوم لا يريدون أن تكون
قوميتهم دينية ، لأن الدين له مجال آخر ، وليس هو الرابط للأمة ، بل هو على
العكس قد يفرق بين القوم الواحد ، وقد يورث - حتى ولو لم يكن هناك فروق
أساسية بين الأديان . . . نظرة متعصبة وغير واقعية (٧) . . . والدولة الدينية كانت
تجربة في القرون الوسطى انتهت بالفشل ، وكلفت البشرية كثيرا من الجهد ومن
الدماء ومن المشاكل ، وحدثت تقريبا في أوقات متقاربة في البلاد الإسلامية وفي
أوروبا المسيحية ! . . . » (٨) .

هكذا . . . وعلى هذا النحو ، رأى ميشيل عفلق علاقة الإسلام بالعروبة ، في
المرحلة الأولى من مرحلتى فكره إزاء هذا الموضوع . . .

فرغم إيمانه بالإسلام ديناً سماوياً . . . إلا أنه قد دعا إلى استلهاام الإسلام :
الثورة . . . الإسلام : الحضارة . . . الإسلام : التراث . . . لأن هذا الجانب من
الإسلام هو « الحركة العربية » التي أفصححت عن عبقرية الأمة ورسالتها في صورة
إسلامية . . . ولأن « الجانب القومي » من الإسلام قد غدا مكوناً قومياً في قوميتنا
العربية ، ومتضمناً في « العروبة » ، التي هي الصورة العصرية لرسالة

(٦) [في سبيل البحث] - طبعة دار الطليعة سنة ١٩٧٤م - ص ١٧٠ - « قوميتنا المتحررة أمام
التفرقة الدينية والعنصرية » - سنة ١٩٥٥م - .

(٧) [في سبيل البحث] : ج ١ ص ١٨٨ - « القومية العربية والنظرية القومية » - سنة
١٩٥٧م - .

(٨) [في سبيل البحث] - طبعة دار الطليعة سنة ١٩٧٤م . ص ١٧٠ « قوميتنا المتحررة أمام
التفرقة الدينية والعنصرية » - سنة ١٩٥٥م - .

الأمة ، المفصحة عن عبقريتها ، والمحرك الأول والوحيد ، في عصرنا ، للعرب كي ينهضوا لأداء رسالتهم الخالدة . وأيضاً ، لأن هذا « الجانب القومى » فى الإسلام هو « عامل التوحيد » ، بينما — فى رأى عفلق — يمثل « الإسلام : الدين الصرف » عامل تفريق بين العرب أنفسهم ، وبين العرب وغيرهم من القوميات التى اعتنقت الإسلام ! . .

وإذا كانت قد سبقت إشاراتنا إلى تطور فكر ميشيل عفلق حيال مكانة الإسلام وحجم مرجعيته فى المشروع البعثى للنهضة الحضارية العربية ، وخاصة منذ « الحقبة العراقية » ، التى بدأت فى عقد السبعينيات . . فلقد حان الحين كي نتبع الخط البيانى لهذا التطور الفكرى حيال هذه القضية . . قضية علاقة العروبة بالإسلام . . ووزن كل منهما بالنسبة إلى الآخر فى المعادلة البعثية التى جمعت بينهما . .



منذ حقبة السبعينيات — واستقرار ميشيل عفلق بالعراق — برزت قسمة الحديث عن الإسلام فى مشروعه الفكرى . . فاتسعت — على نحو ما سبقت إشارتنا إليه — مساحة الحديث عن الإسلام . . وضمن هذا التطور ، أخذ الرجل يلقي الأضواء على الدور المحورى والمصيرى « لاكتشافه الإسلام » ، منذ فجر حياته الفكرية والنضالية . . واكتشافه خصوصية العلاقة بين الإسلام والعروبة . . والدور المحورى والمصيرى لهذا « الاكتشاف » فى تميز صيغة البعث عن الصيغ التى كانت سائدة فى ساحة الفكر والسياسة العربية فى عقد الأربعينيات . . صيغ القومية المجردة من الدين ، كرد فعل ضد هيمنة الدولة العثمانية على العالم العربى ، أو تقليد للقوميات الغربية العلمانية . . والصيغة الليبرالية الغربية . . وكذلك الصيغة الماركسية الشيوعية المادية . .

وأخذ ميشيل عفلق ينبه على أن هذه المنطلقات . . . منطلقات الإسلام الحضارى . . . لم تعط في المشروع البعثى حقها من البحث والدرس والإيضاح ، واستخلاص الدروس . . . وإلى جانب مزيد عنايته بها في كتاباته وخطبه ومحاضراته في مدارس الإعداد الحزبى ، نبه الأجيال البعثية الجديدة على ضرورة بذل المزيد من العناية بجلاء وتطوير الرؤية البعثية لهذه المنطلقات . . . منطلقات الإسلام الحضارى ، ومكانته المرجعية في المشروع القومى لإنهاض الأمة العربية . . .

فإلى جانب التركيز على دور الإسلام في تحديد الاختيار البعثى المتميز عن الخيارات الأخرى التى أهملت الإسلام أو حاربتة . . . أخذ ميشيل عفلق يربط بين «الإسلام : الدين» و«الإسلام : التجربة» - بعد أن كان يعلن أن مايعنيه من الإسلام هو «الإسلام : التجربة» فقط ، لأن «الإسلام : الدين الصرف» مفرّق للأمة وليس جامعاً لها . . . ومساو لغيره من الأديان ، وليست لعلاقته بالقومية تلك الخصوصية التى «للإسلام : الحضارى» . . . أخذ ميشيل عفلق يطور فكره حيال هذه القضية . . . فتناثرت في كتاباته الإشارات إلى الربط بين «الإسلام : الدين» وبين «الإسلام : التجربة . . . الثورة . . . الحضارة . . . والتراث» . . .

وأخذ يؤكد على أن «تجربة العرب الإسلامية» فيها شيء «مطلق» و«خالد» ، اكتسبته من «الإسلام : الدين» ، فتميزت به عن «تجارب» الأمم الأخرى . . . وعلى تداخل «السماء» و«الأرض» في تراث الأمة وثورتها وحضارتها ورسالتها الإنسانية . . . في ذلك كله امتزجت «البشرية» بـ «السماوية» . . . بل وبلغ درجة القطع «بأن الأمة العربية لا تستطيع شيئاً أقل من الوحى الإلهى . . . الشيء السماوى» ! . . .

وبعد أن كان الإسلام - فيما قبل حقبة الوضوح والتطور ، مجرد مكون من

مكونات القومية، وتراث روجي يغذيها، وهو مُتَّصِنٌ فيها . . أصبح - في كتابات عفلق الأخيرة - : الأب الشرعي للقومية والعروبة، ولدت منه ولادة جديدة ومتميزة . .

وبعد أن كان الإسلام - فيما قبل المرحلة الجديدة - مجرد «مُفْصِح» عن عبقرية الأمة ورسالتها - التي هي سابقة عليه - غدا الإسلام - في الكتابات الجديدة - كل شيء : فهو العروبة . . وهو الوطن . . وهو الثقافة . . وهو القومية . . وهو الحرية . . وهو الحضارة . . وهو أثنى شيء في العروبة . .

وبعد أن كان الحب للإسلام نابعا من حب الأمة العربية، غدا الحب لذات الإسلام!! . .

كانت «العروبة أولاً» . . ثم اقترب ميشيل عفلق من الإسلام، حتى قال مرة: «الإسلام أولاً»!!

تلك هي حقيقة الوضوح والتطور اللذين حدثا لفكر ميشيل عفلق إزاء مكانة «الإسلام: الحضاري» وحجم مرجعيته في المشروع البعثي لنهضة الأمة العربية . . وهو وضوح وتطور قد استتبعا امتداد رؤية ميشيل عفلق إلى ما وراء حدود الوطن العربي والأمة العربية، فاختلفت نظرته السلبية لعلاقة الأمة العربية بالمسلمين غير العرب . . وبرز حديثه عن الشعوب الإسلامية، وعن العلاقة المتميزة بين الأمة العربية وبين هذه الشعوب . . بل ودعا إلى الحوار مع «الإسلاميين»، بعد أن كانت هذه الدعوة قاصرة على القوميين والماركسيين . .

كل ذلك، حدث في فكر ميشيل عفلق، إزاء علاقة الإسلام بالعروبة، منذ عقد السبعينيات . . مصاحبا لتعاظم المد الإسلامي - الذي جفل منه، فازور عن الإسلام قوميون آخرون - . . وقبل الثورة الإيرانية - سنة ١٩٧٩م -

التي زايد عليها ، بالشعارات الإسلامية ، قوميون وعلمانيون آخرون !! . الأمر الذي يجعلنا نحترم هذا التطور في فكر الرجل ، ونرى فيه الموقف القومي المخلص والطبيعي إزاء مرجعية الإسلام ، في أمة رسالتها الخالدة هي الإسلام . . وفي عالم تنهاوى فيه معابد وأصنام الأيديولوجيات المستوردة ، والمعادية منها . . أو المهمللة للدين على وجه الخصوص . .

لقد فتح ميشيل عفلق ، بهذا الوضوح والتطور ، الطريق أمام التيار القومي . . طريق التبنى لكامل الإسلام مرجعاً أول لكامل المشروع الحضاري . . ودعا الأجيال الجديدة إلى السير على هذا الطريق . .

أما نصوص الرجل وعباراته الشاهدة على هذا الوضوح والتطور اللذين حدثا لفكره حول هذه القضية . . فإننا نقدمها في هذه النقاط . . التي تقدم قراءة جديدة لفكر الرجل حول هذا الموضوع . :

● في سنة ١٩٧٦م . بدأ ميشيل عفلق يولي الأهمية لإلقاء الأضواء على دور الإسلام في تحديد «الخيار البعثي» . . وعلى تداخل «خلود» الدين «وإطلاقه» في «التجربة العربية» ، على النحو الذي ميزها بنسبة من «الخلود» و«الإطلاق» ، فيه تداخلت «السماء» و«الأرض» ! . . فكتب ، في نص طويل ومهم ، يقول :

« . . قراءة جديدة للإسلام كشفت لنا عن حقائق أساسية في روح شعبنا ونفسيته ، وأضاءت لنا طريق العمل الثوري .

وثمة واقع ذاتي ، جاء في الوقت نفسه تعبيرا عن واقع موضوعي . الواقع الذاتي : هو أنني شخصيا في بداية تكوين الحزب ، اكتشفت الإسلام . أقول : اكتشفت ، ولا أعني أنني لم أكن أعرف الإسلام . فقد كانت هنالك ألفة منذ

الصغر . . اكتشفت الإسلام كثورة كتجربة ثورية هائلة ، وقرأته قراءة جديدة من هذا المنظار . . إنه عقيدة ، ونضال في سبيلها . . وقضية ، هي قضية أمة ، وقضية إنسانية . . بل إنه قضية أمة بتصور إنسانى أوسع . . ونضال على أروع مايكون ، بأعلى مراحلها ، وبها فيه من تنظيم دقيق ، وثقيف ، إلا أنه ، أيضا ، دين . فهو تجربة ثورية ، السماء فيها متداخلة مع الأرض .

ولولا هذا الاكتشاف ، لما كان مستبعدا أن يأخذ تفكيرنا ، كشباب مثقف مخلص لبلده ، يريد أن يعمل شيئا ، بإحدى الصيغ : إما بالتححر بالصيغة الغربية . . وهذه كانت معروفة عند الكثيرين ، ولم تكن شيئا معيبا . . وإما صيغة أخرى أحدث ، وفيها نزعة تقدمية ، وجدة . . وهي صيغة الماركسية ، أو الشيوعية ، وفيها النقد للمجتمع والاستغلال الرأسالى الطبقي .

كل هذا كان واردا . وقد مشى عشرات المثقفين العرب في هذه السبيل .

لماذا اختط حزب البعث طريقا خاصا به ؟ . . هذا أمر لم نتحدث فيه ، لأننا لانريد الدعاية . . ولكن ، بعد أكثر من ثلاثين سنة من نشوء الحزب ، علينا أن نذكر ذلك ، ونقول : إن الفضل في ذلك يرجع إلى اكتشافنا الإسلام .

إن المسلم لا يكتشف الإسلام . . وكذلك البعيد عن الإسلام . الذى يكتشف ينبغى أن يجمع بين الاستعداد النفسى وبين الجدة . . أى ذلك الذى لم تضعف العادة والألفة حساسية عينيه وأذنيه . . فالمسلم الذى نشأ في بيت مسلم منذ طفولته ، واعتاد سماع الكلام عن الإسلام ، يتكون عنده نوع من الضعف في رهاقة الحس والذهن ، فلا يرى الجديد في هذا الكلام ، ولا يدرك المعنى العميق والهزة الروحية . . كما يحصل حين يهزك الكلام الذى تسمعه لأول مرة .

ولكن ، هل اكتشاف الإسلام وقراءته قراءة جديدة ، هو ، فقط ، أن شخصا وضع جهده وقرأ الإسلام قراءة جديدة؟

لا ، فهناك ظروف موضوعية للأمة العربية . . للثورة العربية ، هي مواجهة الاستعمار الغربى والحضارة الغربية ، والسؤال عن سبيل الخلاص؟ عن كيفية الإنقاذ؟ كيف نتحرك؟ كيف نتقدم؟ هل بالشيوعية؟

قرأنا الإسلام . . بعد قراءة الشيوعية . . بعد مواجهة التحدى الاستعماري الغربى وحضارته ، وبعد الاطلاع على الحل الثورى الشيوعى الآتى من الغرب أيضا ، فهى ، إذن ، قراءة من خلال موقف مصرى من تحديات الاستعمار والحضارة الغربية ، ومن تحديات الفكر الشيوعى .

المهم هو هذه الصورة التى انطبعت أثناء القراءة الجديدة للإسلام ، والتى أعطت أشياء أساسية ، بعضها واضح ، وبعضها واقع بين الوضوح والإبهام!

إن الأمة التى يختارها القدر لتكون مسرحا لمثل هذه التجربة ، البشرية الساموية ، هى أمة حكم عليها ، وإلى الأبد ، أن تكون متميزة عن باقى البشر ، لأنها ذاقَت طعم شىء لم يشاركها أحد فيه . . إنها لايمكن أن تستطيب شيئا أقل من مستوى الوحى الإلهى . . الشىء الساموى ، الذى هو ، أيضا ، بشرى ومتجسد فى عقل بشرى واضح .

عندما نضع يدنا على هذه الميزة التى للأمة العربية ، بهذا الوضوح وبهذه الواقعية ، وهذه القوة ، فلا شك أنها توحى بطريق خاص للثورة العربية ، ليس المطلوب فيه أن نخالف العقل البشرى ، أو نخالف العصر ، والقوانين العلمية . فمن ضمن قوانين العقل والعلم يعطى هذا الاكتشاف لحركة الثورة العربية خصوصية . . يعطيها مستوى ، وأخلاقية معينة . . كما يعطيها سعة إنسانية ، وكونية . . يعطيها اتساعا وشمولا . .

لا أريد القول إن الأفكار كانت كلها جديدة . لأنها في الجو العربي . .
ولكن الحزب كثفها وأحس بها بقوة أكبر، انبعثت كلها من لحظة اللقاء مع
التجربة الخالدة .

الأمة العربية لها رسالة لا تستطيع التنازل عنها وتبنى غيرها . فالأمة العربية
شغلت بحضارتها ثلث التاريخ البشري ، وكانت هذه الحضارة إحدى
الحضارات الإنسانية الثلاث المؤثرة . .

فالتراث وحده يعطى الأمة شعورا بالوحدة ، كما يعطيها حق الطموح إلى
حمل الرسالة . . قراءة التراث تعطي للثورة في العالم ، ولثورات العصر، بما فيها
الثورة العربية ، نسبية معينة ، لأنها جميعا ثورات بشرية ، بحدود طاقة الإنسان ،
مهما بلغت هذه الطاقة . وتجربة الأمة العربية ، من خلال الإسلام ، فيها شيء
مطلق . . في حين أن كل شيء آخر نسبي ، قد يعيش عشر سنوات ، أو مائة
سنة . . ولكن ليس فيه الخلود . .

هذا بالذات أعطانا جرأة معينة لنقد الشيوعية . تجاوزنا أوضاعنا القومية ،
إلى الأوضاع الإنسانية عامة . أى أن نقدنا للشيوعية لم ينحصر في أن الشيوعية
لاتلائمنا كعرب ، بل تعداه إلى الكشف عن النقص الأساسي في هذه النظرية
بالنسبة للعرب ولغيرهم .

وعندما نقول : إن القومية شيء خالد ، وأن الشيوعية قفزت من فوقها ،
وأرادت أن تحطمها ، فإننا نكون قد وصلنا إلى أن نكتشف شيئا له صفة
الشمول ، بالمعانة كأمة وكعرب ، تأتى نظرية ثورية وتدعى أنها تقدم لنا الحل
للخلاص ، ولكن بضمن باهظ لا يمكن أن نقبل به . . أن نعتبر قوميتنا مرحلة ،
وشيئا من مخلفات الماضي . . فتقرير حقيقة العامل القومى شيء إنسانى . .
وهو شيء عام وليس خاصا . .

من الطبيعي أن نكتشف حقيقة ثانية ، لاتقل أهمية عن الأولى ، وهى حقيقة الدين . فطريق البعث كان نتيجة اكتشاف الإسلام . وهذا شيء إنسانى ، لاينحصر بالعرب ، لأن الدين حقيقة إنسانية . إلا أن عوامل سلبية قد تطرأ عليه فتشوهه ، وتضعفه ، وتزيفه ، وتجعله أحيانا عامل تخلف ، وعامل استغلال وعبودية ، ولكنه فى الأساس شيء إيجابى موجود فى أعماق النفس البشرية . استلهم التراث يعطى الثورة شيئا مميزا ، هو أخلاقية متميزة . . « (٩) .

هكذا ، بسط ميشيل عفلق — فى أول مناسبة يفسح فيها المكان من فكره لهذه القضية — بسط الحديث عن دور اكتشاف «الإسلام : الحضارى» — الممتزج «بالإسلام : الدين» ، فى تميز الخيار البعثى . . وكيف كان هذا الخيار ، ذو المرجعية الإسلامية ، حتمية اقتضتها المواجهة مع هيمنة الحضارة الغربية على بلادنا . . إذ لا خلاص ولا إنقاذ من هيمنة الغرب إذا نحن انضويننا تحت خيارات المهيمنين ! . .

● وفى سنة ١٩٧٧ م . . يعود ميشيل عفلق ، فيطرق ذات المبحث . . منها على أن مكانة الإسلام ودوره فى تحديد المنطلقات البعثية وفى تميز خياراته ، وحجمه فى مرجعية المشروع الحضارى البعثى . . قضية لم تعط ، فى أدبيات البعث وفكره ، القدر الواجب لإيضاحها وتطويرها . . فيكتب قائلا عن الموقف من «التراث والإسلام» .

« . . لقد كانت اللحظة التاريخية فى حياة الثورة العربية المعاصرة : سلامة الاختيار . . ولم يكن الاختيار بين روح ومادة ، بل بين مادة مستقلة مسيطرة ، ومادة تابعة من الروح ، وتابعة لها . والروح ، فى تفكيرنا ، ليست شيئا غيبيا

(٩) مجلة [آفاق عربية] : ص ٥ - ٧ . عدد إبريل سنة ١٩٧٦ م .

ولاسحرىا يناقض منهجنا العلمى ، وإنما هى الوعى ، وهى الإرادة والأخلاق وكل النزعات التى تشدنا إلى الخير والجمال والتضحية والبطولة ، وهى الإيمان بالحقيقة والعدالة والحرية . . .

وقد كان الموقف من التراث القومى ، وعلاقته بمسرحلة الانبعاث القومى المعاصرة ، معبرا عن أحد الاختيارات الكبرى لفكر البعث ، وقد قام منذ البدء على تصور ثورى للإسلام . . لذلك لم يكن غريبا أن يعود الحزب بين الحين والآخر يؤكد على منطلقاته الأساسية التى لم تعط الاهتمام الذى تستحقه ، ولم يستخرج منها كسل العبر الكامنة فيها ، كالموقف من التراث والإسلام . . «(١٠)» . .

● وعندما يُسأل ميشيل عفلق ، فى «مدرسة الإعداد الحزبى» - عقب إحدى محاضراته فيها - عن نطاق حديثه حول صلة العروبة بالإسلام . . هل هو النطاق التراثى التاريخى؟ فهى «صلة ذكريات»؟! . . أم أنها - هذه الصلة - لاتزال قائمة وحية ومتجددة؟! . . تأتى إجابته لتؤكد على دوام وتجدد الصلات بين العروبة - النسبية - وبين الإسلام - المطلق - على النحو الذى يميز عروبتنا عن غيرها من القوميات . .

لقد سئل :

- «تؤكدون باستمرار على صلة العروبة الحية بالإسلام ، هل هى صلة ذكريات؟ أو امتداد؟ أو تجديد؟» . .

فكان جوابه :

(١٠) المرجع السابق : عدد مايو سنة ١٩٧٧ م - خطاب ٧ من إبريل سنة ١٩٧٧ م - .

- «سأختصر ، لأن هذا الموضوع طرقت أكثر من مرة ، وهنا في هذا المكان بالذات .

. . الصلة ، كما نراها ونؤمن بها ، هي صلة عضوية بين العروبة والإسلام ، لا يمكن أن تنفصم ، صلة تاريخ ، وهي مستمرة منذ القديم ، حية لا تموت ، وهي أيضا - ونظرة الحزب ركزت على ذلك - صلة تجديد ، أى أننا لنا فهم ثورى للإسلام . ونرى أيضا ونعتقد بأن نشوء حركات إصلاحية وثورية في الدين تنفض الغبار عن حقيقة الدين ، وتعيد إليه إشعاعه وحسويته ، أعتقد أن هذا ضرورى في حركة الثورة العربية ، وأعتقد أنه سيحصل بشكل حتمى . الأمة عندما تنهض وتدخل في طور الإبداع ، فإنها تنهض وتبدع في كل مجالات الحياة ، ولا تقتصر على ناحية واحدة ، والدين من أهم مجالات الحياة . الحياة الروحية في الإنسان لها أهميتها الكبيرة . .

لذلك ، بمقدار ماتتقدم مسيرة الثورة العربية ، نجد أن الفكر الدينى يصبح أكثر إشراقا . . أكثر تجديدا . . أكثر تحررا ، يذهب إلى اللب وإلى الحقيقة ، ويتخلى عن القشور وعن العقلية الحرفية الجامدة . النهضة العربية ستكون نهضة شاملة . . نهضة في الفكر ، ونهضة في الدين ، ونهضة في الفن ، ونهضة في البناء المادى والاقتصادى . ولذلك كانت نظرة الحزب إلى هذه الصلة . . صلة العروبة بالإسلام بأنها هي بصورة خاصة صلة تجديد . . أى أننا نستمد من فهمنا الثورى لحركة الإسلام قوة ثورية لتجديد عقليتنا ولتجديد أوضاعنا الفكرية والاجتماعية والقومية .

وهنا ، أحسب أن أشير إلى فكرة عزيزة على ، وهي أن أمتنا قد عرفت عند ظهور الإسلام مالم يتسنّ لأمة أخرى أن تعرفه . . عرفت تجربة مطلقة ، وبقي شيء من هذه الذكريات في نفس كل عربى حتى الآن ، وسيبقى ذلك

طويلا إلى المستقبل البعيد . . . نحن ، كعرب ، عندنا هذا الرصيد الروحي . . . هذا التراث ، إذا حرصنا على أن نُبقى صلتنا حية بيننا وبينه ، وخاصة نحن كمحركة ثورية ، أن نستلهم هذا التراث بقيمه الروحية والأخلاقية السامية ، فإننا نعطي لثورتنا العربية ضوابط أخلاقية ، وجوًّا فيه هداية ، وفيه ردع ، وفيه ضوابط كثيرة نحن بحاجة ماسة إليها . . . لذلك قلت . . . [في مقال « آفاق عربية في العام الماضي] - : بأن ثورات العصر ثورات نسبية ، والثورة العربية كذلك ثورة نسبية ، ولكنها إذا حرصت على صلتها بالتراث الخالد فإنها تستطيع أن تدخل إلى جوها شيئا من المطلق . . . أي من الضوابط الأخلاقية الرفيعة . . . » (١١) .

لقد تعانقت في المرجعية التراثية للمشروع النهضوي ، عند ميشيل عفلق ، « التجربة . . . والحركة » ، أي « الإسلام : الحضاري » . . . مع « المطلق . . . والخالد » . . . أي « الإسلام : الدين » . . . بل وتحدث عفلق عن ضرورة أن نستمد من الإسلام الحضاري القوة الثورية لتجديد عقليتنا ، ولتجديد أوضاعنا الفكرية والاجتماعية والقومية . . . وعن ضرورة اتخاذ التراث الروحي - الإسلام - ضابطا ورادعا للثورة والثوار في واقعنا العربي المعاصر؟ ! . . . فالأمة العربية ، التي شرفت باقتران نهضتها الأولى برسالة الإسلام . . . لا تستطيع ، في نهضتها الحديثة والمعاصرة ، شيئا أقل من الوحي الإلهي ! . . .

● وبعد أن كان ميشيل عفلق يتحدث عن الإسلام الحضاري باعتباره المفصح عن العروبة - وهي سابقة عليه - وعن عبقرية الأمة . . . غدا يتحدث عنه باعتباره « المكوّن للأمة » . . . « . . . فالشعب العربي . . . شعب واسع . . .

(١١) [في سبيل البعث] : جـ ٣ ، ص ٨٤ ، ٨٥ - « بناء المناضل » - ١١ - ٥ - ١٩٧٧ م .

رحب . . . لاكتشفه العقد . . . وهو منفتح متسامح ، مستقر على أرضه ، غير مشرد وغير تائه ، مؤمن بالمستقبل ، وواثق بهذا المستقبل مهما حدث . . . فهو إنسانى بعقيدته وبتكوينه أيضا ، وبامتداد رقعة وطنه . . . » .

وكل هذا الذى اكتسبه الشعب العربى وتميزت به الأمة العربية هو من ثمرات الإسلام وبفضله إذ - كما يقول ميشيل عفلق - « بدون الإسلام ، كان يمكن لهذا الشعب العربى أن يبقى بعقلية قَبَلِيَّة ! . . . » . وبرغم سبق «العروبة» للإسلام . . . فإن النهضة العربية الأولى ، التى اقترنت برسالة الإسلام الدينية هى «التى كونتهم كأمة» (١٢) !

● وبعد أن كان « الإسلام : الحضارى » مجرد مكوّن من مكونات القومية العربية . . . وتراث روحى ينهض بتغذية العروبة . . . وهو مُتَضَمَّن فيها . . . وهى التى تعبر عنه . . . بل ولقد غدت مغنية عنه ، لأنها هى وحدها المحرك للأمة فى مشروع النهضة المعاصرة ، كما كان الدين هو المحرك لها فى نهضتها الأولى . . .

بعد أن كان هذا هو فكر عفلق وكانت تلك هى صياغته لعلاقة العروبة بالإسلام فى معادلة علاقتهما ، إبان المرحلة السابقة على عقد السبعينات . . . أصبح يتحدث عن الإسلام باعتباره «أهم وأعمق حقيقة فى تكوين القومية العربية . . . فهو جوهر العروبة والمحور والروح للمشروع الحضارى . . . ومصدر إلهام النهضة المعاصرة . . . » . . .

«فمن أجل قوميتنا ، ولكى يكون مجتمعنا صحيحا سليما ، أكدنا ضرورة الدين ، وأنه حاجة ملازمة للنفس الإنسانية التى تلبي مطلبا عميقا وأساسيا فيها ، وأن الدين خالد . . . وهكذا كان الدين الحقيقة الإنسانية الثانية التى

(١٢) [آفاق عربية] : ص ٨ ، ٩ . عدد إبريل ، سنة ١٩٧٦ م .

أكدها الحزب منذ بدايته ، في وقت كان الفكر المادى الإلحادى يغزو عقول الشبيبة العربية ، مستغلا ظمأ هذه الشبيبة إلى التحرر والانعقاد وإلى الثورة والتجديد .

ومن أجل قوميتنا ، ولكى تكون صحيحة وصادقة ومكتملة الجوانب والأبعاد الروحية والأخلاقية والحضارية ، نظرنا إلى أعماق هذه القومية وإلى جذورها والينابيع التى تنهل منها ، فوجدنا الإسلام أهم وأعماق حقيقة فى تكوينها وأنه روحها وأفقها الأخلاقى والإنسانى . لقد طرح فكر البعث ذلك كله فى وقت شاعت فيه الدعوات التى تنكر القومية والدين أو تشوهها وتستغلها ، وفى وقت كانت فيه الاشتراكية مطروحة كتنقيض للقومية ، وتيار الثورة والتجديد نقیضا للاستقلالية والأصالة والتراث الروحى . . .» (١٣) .

لقد رأى عفلق « أن الإسلام هو الذى يكون أولى مقومات الشخصية العربية» (١٤) . . وبالنسبة للثورة العربية ، فإنه هو الذى يكون روحها ، وقيمها الإنسانية ، وأفقها الحضارى . . إنه جوهر العروبة ، وملهم ثورتها الحديثة . . (١٥) . . ولذلك ، فإن من الطبيعى أن يحتل الإسلام ، كشورة عربية فكرية أخلاقية اجتماعية ذات أبعاد إنسانية ، أن يحتل مركز المحور والروح فى هذا المشروع الحضارى الجديد لأمة واحدة ذات تاريخ عريق ورسالة حضارية إنسانية . .» (١٦) .

(١٣) [فى سبيل البعث] جـ ٣ ، ص ١٨١ ، ١٨٢ - « معركة المستقبل العربى » - ٧ من إبريل سنة ١٩٨١ م .

(١٤) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٢٨١ - « من أجل عمل عربى مستقبلى » - ٧ من إبريل سنة ١٩٨٦ م .

(١٥) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ - « معركة المستقبل العربى » - ٧ من إبريل سنة ١٩٨١ م .

(١٦) صحيفة [الثورة] العراقية ٦ - ١١ - ١٩٨٥ م - عن حديث عفلق مع مجلة [الطليعة العربية] - عدد نوفمبر ، سنة ١٩٨٥ م .

وإذا كان الإسلام هو «الثقافة القومية الموحدة للعرب ، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم فإن مبادئه الإنسانية وقيمه الأخلاقية والحضارية هي روح العروبة ومصدر إلهامها الدائم المتجدد . تلك هي نظرة البعث للإسلام . وهي نظرة علمية مضادة بالحب . فالبعث - [كما يقول ميشيل عفلق] - هو قبل كل شيء : «حب للعروبة وحب للإسلام! . . .» . وهذا الارتباط بين العروبة والإسلام ، هو واقع حي تعيشه الأمة ، وتنفسه «كالهواء» ، ولا يحتاج في إثباته إلى براهين وأدلة . . إنه نتاج القرون والأجيال . ولكنه قبل كل شيء ، هو إرادة إلهية طبعت الحياة العربية ، وهو قد ظل أيضا بالنسبة للشعوب الإسلامية غير العربية بمثابة الحقائق البديهية . . فالقومية العربية قائدة في خدمة الإسلام ، وتدميرها ليس إلا ضربا لمصلحة الإسلام في الصميم! . .» (١٧) .

ويعلل ميشيل عفلق اعتداء صيغة البعث إلى «الإسلام : الحضارى» كمرجع لقوميتنا ومشروعنا الحضارى ، بنشأة هذه الصيغة في ظرف موضوعي ، سيطرت عليه حدة الصراع الحضارى بين أمتنا وبين الحضارة الغربية . . فالعرب الذين تبنا صيغة القومية العربية المجردة من الإسلام قد صنعوا ذلك إبان الصراع مع الدولة العثمانية - ذات المشروعية الإسلامية . . والشعارات الإسلامية - أما المرحلة التي أعقبت ذلك ، والتي نشأ فيها البعث ، فلقد تميزت بهيمنة الغرب وصراعه الحضارى ضد أمتنا ، بسبب تدينها وتحصنها بالإسلام . . فالإسلام هو هوية الأمة وسلاحها الحضارى في هذا الصراع . . ومن ثم ، كانت له هذه المكانة المرجعية في هذا المشروع الحضارى القومى الجديد . .

(١٧) [في سبيل البعث] : ج ٥ ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ - «العراق قدّر بطولى» - ٧ من أبريل ، سنة ١٩٨٧ م . -

« . . إن حركة البعث وجدت في فترة تاريخية فاصلة بين مرحلة استنفدت أغراضها ، ومرحلة مضطربة قلقة ، ورؤيتها للمستقبل غير واضحة .

المرحلة التي استنفدت أغراضها ، كانت مرحلة القومية العربية المجردة ، التي اقتضاها الصراع التحرري ضد الهيمنة العثمانية ، فلم تكن تستطيع رفع شعار الإسلام ، الذي كان هو شعار الدولة المهيمنة . واستمرت الحال حتى بعد أن زالت الظروف التي استوجبت ذلك .

واستجدت ظروف هيمنة الاستعمار الغربى على الأقطار العربية ، هذه الظروف التي أعادت الأمور إلى نصابها ، حين أعادت الإسلام إلى العروبة . . إلى القومية لضرورة المواجهة الحضارية مع الاستعمار الغربى . . لقد تم ذلك بنظرة إلى التقدم . . ونظرة إلى الإسلام . . ولدت منهما نظرة جديدة للإسلام ، كتورة عربية إنسانية حضارية ، قابلة للتجدد والانبعاث في كل مرحلة تاريخية مصيرية من حياة الأمة العربية .

وهكذا ، بدأ طريق المستقبل العربى يزداد وضوحا ، فهو لا يبنى إلا من خلال الثورة باتجاه التقدم ، ولكن باستلهاام الأصالة التي تجسدها ثورة الإسلام ، بواقعها العربى ، وجوهرها الإنسانى ، وأبعادها الحضارية . . لنهضة تاريخية يكون الإسلام ، بمفهومه الثورى ، مصدر إلهامها . . » (١٨) .

هكذا حدد ميشيل عفلق الظرف الموضوعى الذى استدعى مرجعية الإسلام فى المشروع الحضارى القومى ، بعد أن حجبت عنه ظروف الصراع « العربى - العثمانى » . . وهذا الظرف كان الصراع الحضارى بين الغرب الاستعمارى وبين الأمة العربية ، والإسلام فى مركز أسباب هذا الصراع ! ! . .

(١٨) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ - « من أجل عمل عربى مستقبلى » - ٧ من إبريل ، سنة ١٩٨٦ م .

وإذا كانت هذه الحقيقة التي أشار إليها وأفاض في الحديث عنها ميشيل عفلق - وخاصة عندما كان يتحدث عن الغزو الفكري الغربى لأمتنا العربية - فإننا نتساءل اليوم ، بعد أن وضحت في أفق المتغيرات الدولية التي تعاظمت في نهاية عقد الثمانينيات وبداية عقد التسعينيات من هذا القرن العشرين . . بعد أن وضحت معالم وحدة الحضارة الغربية ، كنموذج حضارى تعود إليه وحدته ، ذات الطابع الليبرالى - بعد طى صفحة الانشقاق الشمولى في هذه الحضارة - . . وبعد اتجاه أحلاف ومؤسسات هذه الحضارة - العسكرية . . والاقتصادية . . والسياسية . . والفكرية - إلى الوحدة . . وبعد غروب شمس الصراعات الحادة داخل محاور هذه الحضارة . . وتوجه قواها ودولها ومؤسساتها الرئيسة نحو المواجهة المرتقبة والقادمة مع الإسلام وعالمه وأمتة - أو على الأقل الرغبة والتخطيط لتكون الحركة في هذا الاتجاه . .

نتساءل : ألا تدعو هذه المتغيرات . . التي تبرز ، على نحو غير مسبوق ، حدة الصراع الحضارى بين « الغرب : الحضارى » وبين « الإسلام : الحضارى » . ألا تدعو التيار القومى العربى . . وكل التيارات القومية في عالم الإسلام إلى الإمساك بالخيط الذى التقطه ميشيل عفلق - أبرز مفكرى التيار القومى العربى المعاصر - لمواصلة السير على الطريق الذى حدد الرجل معالمه؟! .

إن وزير الخارجية الإيطالى « جيانى ديميكليس » ، عندما تسأله مجلة « نيوزويك » الأمريكية - بوصفه رئيس المجلس الوزارى الأوروبى - عن مبررات بقاء « حلف شمال الأطلنطى » - الناتو - بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالى والمعسكر الذى كان اشتراكيا . . يجيب الرجل قائلًا : « صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة . إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربى والعالم الإسلامى » . . ثم هو يحدد ، في ذات الحديث ، شروط

الغرب للعدول عن مواجهة العالم الإسلامى بحلف شمال الأطلسى . . فإذا هى خضوع العالم الإسلامى حضاريا ، بقبوله النموذج الحضارى الغربى كخيار حضارى له . . فيقول - جوابا عن سؤال :

- « كيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة » ؟

- « ينبغى أن نحل أوروبا مشاكلها ، ليصبح النموذج الغربى أكثر جاذبية وقبولا من جانب الآخر فى مختلف أنحاء العالم . وإذا فشلنا فى تعميم ذلك النموذج الغربى ، فإن العالم سيصبح مكانا فى منتهى الخطورة ^(١٩) ! ! . . » .

فهل هناك ، أمام هذه المخاطر الحضارية المحدقة بأممتنا والمهددة لوجودنا . . التى تشهد عليها آلاف الشواهد - من مثل حديث وزير الخارجية الإيطالى - . . هل هناك أمام الوطنى والقومى ، فى وطن العروبة وعالم الإسلام ، سبيل آخر غير استلهاهم « الإسلام » مرجعا حضاريا ، وحصنا للأمة ، وسيجا للنهضة ، فى هذه المواجهة الحضارية المفروضة ، التى تعمل لها ولا تستحى من الإعلان عنها مؤسسات الغرب العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية بكل الوسائل وجميع اللغات ؟ ! . . هل هناك سبيل غير تطوير الموقف الذى اتخذته ميشيل عفلق ، عندما تبنى الإسلام سياجا حضاريا للأمة فى هذا الصراع الحضارى مع الغرب . . ومواصلة السير على هذا الطريق ؟ ! . .

● ولهذه الحقيقة من حقائق « الوعى الحضارى » عند ميشيل عفلق . . التى برزت فى مشروعه الفكرى ، عندما عرض لصراع الغرب ضد أممتنا ، بسبب تميزها وتميز خيارها الحضارى بالإسلام . . لهذه الحقيقة جاءت إشارات الرجل إلى الإسلام باعتباره : الدين . . والقومية . . والوطن . . والسوطنية . .

(١٩) مجلة « النيوزويك » الأمريكية - عدد ٢ يوليو سنة ١٩٩٠ م . . والتقل عن مقال الأستاذ فهمى هويدى « الغرب والإسلام . . من يعادى من ؟ » [الأهرام] ٧ من يوليو سنة ١٩٩٠ م .

والثقافة القومية . . وأثمن شىء في العروبة . . والحضارة . . والحرية . . حتى
لقد رفع شعار : [الإسلام أولا] . . وأعلن : إنه قد كان يجب الإسلام كثمرة
لحبه للعرب . . أما الآن ، فلقد أصبح الحب للإسلام . . وما العرب إلا أمة
الإسلام . . وما العروبة إلا ضرورة لنصرة الإسلام ! . .

تحدث ميشيل عفلق عن هذه المعانى ، التى ازدانت بعباراتها كتاباته فى هذا
الطور الأخير من حياته الفكرية والنضالية . . فقال :

« . . وعندما أقول : عروبة ، تعرفون بأننى أقول : الإسلام ، أيضا ، لا ،
بل أولا : العروبة وجدت قبل الإسلام ، ولكن هو الذى أنضج عروبتنا ، وهو
الذى أوصلها إلى الكمال ، وهو الذى أوصلها إلى العظمة ، وإلى الخلود . . هو
الذى جعل من القبائل العربية أمة عربية عظيمة ، أمة عربية حضارية .
فالإسلام كان ، وهو الآن ، وسيبقى روح العروبة ، وسيبقى هو قيمها الإنسانية
والأخلاقية والاجتماعية . هذا هو الإخلاص للشعب ، هذا هو حب الشعب ،
هذه هى الحقيقة .

صحيح أننا نصل إليها فى المطالعة وفى قراءات التاريخ ، ولكننا نصل إليها
بصورة أعمق وأصدق عندما نقرب من شعبنا ، ونصغى إلى دقات قلبه وإلى
خلجات ضميره ، إلى هذا الترادف ، هذا التمازج بين العروبة والإسلام . .
فالوطنية . . هى العروبة بعينها . . والعروبة - هى الإسلام فى جوهره^(٢٠) ! . .
لقد نمت البذور الأولى للبعث فى عهد الكفاح الوطنى ضد الاستعمار
الفرنسى ، الممثل فى ذلك الحين للغطرسة الغربية ، وللتعصب العنصرى

(٢٠) [فى سبيل البعث] : ج ٥ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ - « الوطنية السودانية هى العروبة
والعروبة السودانية هى الإسلام » - ١٤ - ١ - ١٩٨٢ م .

والدينى ضد العروبة والإسلام . . فكان صراع أمتنا مع الاستعمار الغربى صراع حضارة وتاريخ وتراث وعقيدة . فكان رجوع البعث إلى الإسلام ، فى مواجهة الطغسان الغربى الحضارى رجوعا طبيعيا وعضويا لم يحتاج إلا إلى الحس الصادق . وتلك بداية الطريق التى أعطت الحزب أصالته الراسخة . .

لقد وجد الحزب فى معين الإسلام الذى لا ينضب ، أول ما وجد ، عروبة الإسلام ، العروبة كهوية ، وطبيعة ، وأرض ، ولغة ، وتاريخ ، والعروبة كشعب ومجتمع فى حالة مخاض وتحفز ، والعروبة كثورة ، فجرها الإسلام ، فأصبحت ثورة إنسانية عالمية ، وأعظم ثورة فى التاريخ البشرى ، والعروبة كرسالة خالدة ، لأن الإسلام ، وهو دين هداية للعالمين ، كان العرب أول من حمل مسئولية نشره ، وسيظلون مسئولين قبل غيرهم عن حماية ورفع لوائه وتجسيد قيمه فى نهضتهم الحديثة .

وعروبة الإسلام لا تتعارض مع إنسانيته وعالميته ومصدره السماوى ، بل تسمو بهذه الحقائق وتشرف وتزداد قوة .

ونعتقد أن أية أمة من الأمم معرضة لأن تنجح إلى الإلحاد ، ماعدا الأمة العربية ، التى يدخل الإسلام فى نسيج شخصيتها وتاريخها ، لأن الإسلام بالنسبة إليها هو : دين ، وقومية ، وحضارة . وهل يستطيع شعب أن يهرب من شخصيته ، ويتمرد على قوميته ، ويتنكر لحضارته ؟ ! .

ولئن وجدت شعوب تنشد الحرية بالانعتاق من الدين ، فالأمة العربية تجد حريتها فى الفهم المتجدد للإسلام . . ولذلك . . فإن الدفاع عن الإسلام هو مهمة القوميين الذين يريدون أن يبقى للأمة العربية سبب وجيه للبقاء^(٢١) . ! .

(٢١) المصدر السابق : ج٣ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ - «تثبيت الخيارات الأساسية فى النهضة العربية» - ٧ من إبريل سنة ١٩٨٤ م . .

.. إن الإسلام هو وطن الأمة العربية الروحي ، والمادي ، بكل ما تحمل كلمة وطن من معاني حب الأرض والأهل ، وحب اللغة والتاريخ^(٢٢) .

.. بدافع الحب للأمة العربية أحببنا الإسلام ، منذ السن البافعة . وبعد أن اقربنا أكثر من فهم الإسلام ، أضحي حبنا لأمتنا يتلخص في حبنا للإسلام ، وفي كون الأمة العربية أمة الإسلام ! .

إن ثقة عميقة تملأ نفوسنا بأننا أخلصنا كل الإخلاص ، طوال عمرنا ، لأمتنا ، لمصلحتها ، ولتاريخها ، ولعقيدتها ، ولستقبلها ، وأننا دوما حيث العروبة الصحيحة والإسلام الصحيح . إن هذه العلاقة الحميمة بالإسلام هي من النوع التاريخي ، الموسوم بالتجرد الخالص .

وكان شيئا طبيعيا أن يأخذ هذا الوعي ، وهذه العاطفة كل أبعادهما ، فتدرك ما تمثله الشعوب الإسلامية من عمق وسند للأمة العربية ، ونشعر نحوها بعاطفة القريبى . . »^(٢٣) .

هكذا ، اعتدلت عناصر المعادلة - بين العروبة والإسلام - في المشروع القومي ، كما صاغه ميشيل عفلق - فغدا الإسلام هو الأول . . والأساس . . الدين . . والوطن . . والقومية . . والوطنية . . والحضارة . . والثقافة . . وسياس الأمة . . وحصنها . . وصيغة التاريخ . . إنه الأب الشرعى للأمة . . ورسالتها ، التى لولها لما كان لهذه الأمة مبرر للبقاء !! . .

(٢٢) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ٢٦٩ - « من أجل عمل عربى مستقبلى » - ٧ من إبريل سنة ١٩٨٦م .

(٢٣) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ - « من أجل عمل عربى مستقبلى » - ٧ من إبريل ، سنة ١٩٨٦م .

« . . لقد ولد الإسلام في أرض العروبة ، وضمن تاريخها وأهلها ، ولكنه أصبح هو أبائها ، لأنها ابتداء من الإسلام ولدت ولادة جديدة ، وأصبحت أمة عظيمة تاريخية ، لها دور أساسي في تاريخ الإنسانية ، وفي صنع مستقبل الإنسانية . الإسلام أعطى للأمة العربية هذه الأبعاد . . أعطاهم مسؤولية الدور الإنساني العظيم ، وأعطى العرب مذاق الخلود وطعم الحياة الحقيقية ، التي هي جهاد قبل كل شيء ، وفكرة ومبدأ وعقيدة ، ولا خوف على العروبة مادامت مقترنة بالإسلام ، لأنه كفيل بأن يجددها ويوقظ فيها هذه النزعة إلى السماء . . إلى الخلود . . إلى الأفق الكوني . . إلى البطولة وحمل الرسالة . . وعندها تنهال الأمراض العالقة والمشاكل المادية والآنية التي لاتليق بأممتنا ولا تعبر عن حقيقتها وحقيقة رسالتها . . . وبنهوض الأمة ووحدتها ، ينتصر الإسلام ويعلن عن وجهه الحقيقي الإنساني السامع الذي تحتاجه الإنسانية اليوم كما احتاجته في الماضي ، وكما ستبقى بحاجة إليه في المستقبل (٢٤) . . »

إن الإسلام هو الذي حفظ العروبة وشخصية الأمة في وقت التمزق والضياح وتشتت الدولة العربية إلى طوائف وإلى ممالك ودويلات عدة متناحرة ، وكان مرادفا للوطنية وللدفاع عن الأرض والسيادة والداعي إلى الجهاد أمام العدوان والغزو الأجنبي ، وسيبقى دوما قوة أساسية محركة للنضال الوطني والقومي . وهو الذي خرجت من صلبه ، ومن حركة التطور التاريخي فكرة القومية العربية ، بمفهومها الإنساني السامع ، وهو الذي يحيط الأمة العربية بسياج من الشعوب المتعاطفة معها . .

إن الإسلام هو العامل الصميمي المتدمج في نسيج الأمة ، وفي تاريخها ، وفي حياتها اليومية . . ولا يصح تناول الإسلام من الموقع الحيادي النظري السياسي . والشئ الطبيعي هو أن يكون انفتاح التيار القومي على الإسلام موقفا فيه

(٢٤) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٤١٦ ، ٤١٨ - « نفهم الماضي من خلال تحملنا لمسئولية الحاضر » - ١٣ - ٨ - ١٩٨٧ م . .

الحرارة والحنين ، والغيرة والحرص ، والاعتراف بالفضل ، وبما يشكله الإسلام من ضمانة مصيرية لقوميتنا ومستقبلنا كأمة . ومن هذا المنطلق ، يستطيع التيار القومي أن يحاور التيار الديني المتجرد الوطني حوار الحب والعقل . . « (٢٥) .

* * *

هكذا . . انتهى ميشيل عفلق . . أبرز مفكرى التيار القومي العربى فى هذا القرن . . وصاحب أبرز المشروعات الحضارية القومية المعاصرة . . انتهى ، بعد أن حدد مكانة الإسلام المرجعية فى المشروع النهضوى . . إلى دعوة التيار القومى إلى :

(أ) الانفتاح على الإسلام من « موقف الحرارة والحنين ، والغيرة والحرص ، والاعتراف بالفضل ، وبما يشكله الإسلام من ضمانة مصيرية لقوميتنا ومستقبلنا كأمة . . » .

(ب) وإلى « الحوار مع التيار الدينى . . حوار الحب والعقل » . .

وهى رسالة وجهها الرجل إلى التيار القومى فى ختام صفحات مشروعه الفكرى . . وختام سنوات عمره ، الذى قضى منه نصف قرن فى الفكر والنضال . .

وهذه الرسالة مازالت موجهة إلى التيار القومى ، ومعرضة على قاداته ومفكره حتى كتابة هذه السطور ! ! . .

وهى ، أيضا ، موجهة إلى التيار الإسلامى ، الذى وقفت تصوراته للمفكر القومى وتياره ومشروعه النهضوى عند الصفحات الأولى ، التى لم تنضج فيها الرؤية القومية للإسلام . .

(٢٥) [العمل المستقبل - نداء إلى الأمة] : ص ٩٠ - خطاب عفلق فى ٧ من إبريل سنة

١٩٨٨ م - طبعة بغداد سنة ١٩٨٨ م - .

وبعد ..

فلقد رأينا - عبر صفحات هذا الكتاب - :

● مكانة الإسلام في فكر ميشيل عفلق . . ودوره المرجعى في المشروع القومى والحضارى الذى صاغه هذا « المفكر - المناضل » البارز . . ليصبح فلسفة ونظرية ودليل عمل لفصيل بارز من فصائل التيار القومى العربى . .

● ورأينا - عبر هذه الصفحات - : « الثوابت » و « المتغيرات » في فكر ميشيل عفلق حيال هذه القضية المحورية من قضايا حياتنا الفكرية المعاصرة . . ومشروعنا الحضارى المستقبلى . . ونهضتنا العربية الإسلامية المنشودة . .

رأينا ميشيل عفلق :

● مع « التدين . . والدين . . والإيمان الدينى » - كموقف ثابت - ضد « المادية . . والإلحاد » . .

● ومع « النزعة الروحية » ، أو « الروحية - الواقعية » - كما سماها . . التى وإن لم تنكر البعد الغيبى فى الروحانية . . إلا أنها لم تركز عليه بقدر تركيزها على ضرورة الاستفادة من الروحانية فى تكوين أخلاقية مثالية ، بل وشبه صوفية ، للمناضلين والثوار . .

● ومع « الإسلام » - الذى آمن به ديننا سماويا . . لكنه بدأ بالتركيز على

الإنجاز الحضارى فيه . . الإسلام : الحركة . . والثورة . . والأخلاق . .
والتراث الروحى الموحد للأمة ، كثقافة قومية لها ، ومميز لقوميتها عن القوميات
الأخرى . . ثم تصاعد الخط البيانى لتطوره الفكرى - منذ « الحقبة العراقية » فى
حياته ، فى عقدى السبعينيات والثمانينيات ، ليربط « الإسلام : الحضارى »
« بالإسلام : السماوى » - مزيج السماء والأرض . . لأن الأمة العربية - كما قال -
« لا تستطيع ما هو أدنى من الوعى الإلهى » . . !

ورأينا كيف استدعى ميشيل عفلق هذا الإسلام ، لا كمجرد « تراث -
تاريخى » و« مجدد لذاكرة الأمة » . . وإنما كمرجعية لمشروعها الحضارى المعاصر
ونَهضتها المستقبلية المنشودة . . لأن هذا الإسلام - كما رآه - هو حياة متجددة
ومجددة لروح الأمة ومشروعها الحضارى . . وهو قد رفض ، باستدعاء « الأصالة
الإسلامية » للمشروع « القومى - التقدمى » ، مذاهب « الحداثة » ، بالمعنى
الغربى . . تلك التى تعمم النسبية والمرحلية على كل الموارىث . . فتطوى
صفحة الماضى . . غير مميزة فيها بين « الأصول » و« الفروع » ، أو « الثوابت »
و« المتغيرات » ، على النحو الذى يقطع التواصل الحضارى للأمة . . فإذا كانت
- كأمتنا - فى دور الضعف والاستضعاف ، كان ذلك لحساب « القوى -
المهيمن - الغرب » ، الذى يملأ بفكره الغازى ماتخلقه هذه « الحداثة » من
فراغ !! .

● ورأينا وعى ميشيل عفلق - الذى يستحق الإعجاب والتنويه والتقدير -
بالطابع الحضارى لصراع الغرب ضد أمتنا العربية . . وهو الوعى الذى جعله
يبصر جيداً دور « العامل الدينى » فى هذا الصراع ، فيتحدث عن « البعد :
المسيحى - اليهودى » فى سمات ومكونات الحضارة الغربية المعادية لأمتنا
وحضارتنا . . ويبصر دور الإسلام ، الذى يعادينا الغرب من أجل كراهيته له

ونخشيته من منافسته الحضارية لحضارته . . يبصر ذلك كله ، في الصراع التاريخي والحديث والمعاصر بين الغرب وبين أمتنا العربية . . وينبه على تصاعد تأثيرات هذا البعد الدينى منذ قيام المشروع الصهيونى فى قلب وطن الأمة العربية . . مبرزاً دور الإسلام ومكانته كحصن وسياج للأمة فى هذا الصراع الحضارى مع الغرب الاستعمارى . .

● وفى إطار هذا الصراع الحضارى مع الغرب . . رأينا كيف تحدث ميشيل عفلق عن الإسلام كجامع ثقافى ، وأداة توحيد قومى للأمة ، على اختلاف دياناتها ومذاهبها ، فدعا المسيحيين العرب - فى واحدة من أكثر صفحات فكره القومى روعة وإشراقاً - دعاهم إلى جعل الإسلام ثقافتهم القومية ، باعتباره أئمن مافى عروبتهم وقوميتهم . . فهو ، بالنسبة لهم ، الثقافة . . والقومية . . والحضارة . . وهى الجوامع الموحدة لهم مع المسلمين ! . .

● ونبه على خطر الغزو الفكرى والثقافى الغربى - الذى أعطاه الاستعمار إمكانات السيطرة على مؤسسات العلم والتعليم والفكر والثقافة والإعلام . . - خطر هذا الغزو على الاستقلال الفكرى والحضارى للعقل العربى ، وعلى المشروع الحضارى العربى . .

فبالفلسفة ، يغزونا الغرب ، ليحل مفاهيمه محل مفاهيمنا المتميزة . .

وبالشيوعية والماركسية ، يغزونا الغرب ، ليحل ماديتها وإلحادها وطبقيتها وأمميتها محل ما يتميز به مشروعنا الحضارى فى هذه الميادين . .

وبالعلمانية ، يغزونا الغرب ، ليجرد قوميتنا من الإسلام ، فيحرمها من التميز بالخلود والإطلاق والإنسانية ، التى اكتسبتها من التراث الروحى للإسلام . .

● وفي ميدان علاقة « الإسلام » بـ « العروبة » ، والقومية العربية . . رأينا - عبر صفحات هذا الكتاب - ثبات الموقف الفكرى الذى ربط فيه ميشيل عفلق ، ربطاً عضوياً ، بين « العروبة » و « الإسلام » . . وذلك منذ بداية مشروعه الفكرى وحياته النضالية . . بل لقد رأينا هذا الربط ، عنده ، سبباً فى تميز الخيار الحضارى البعثى على الخيارات الغربية الوافدة ، والتي كانت سائدة فى أوساط الفكر والسياسة العربية يومئذ - ليبرالية كانت أو ماركسية تلك الخيارات - فكان الإسلام ، فى الخيار البعثى - كما قال ميشيل عفلق - هو الذى حدد الطريق وصنع « الخطوة الاختيار ! » . .

ثم رأينا تطور « الوزن » و « العلاقة » بين كل من « العروبة » و « الإسلام » داخل هذه المعادلة ، عبر مسيرة التطور الفكرى لميشيل عفلق . .

فبعد أن كان « الإسلام : الحضارى » مجرد ثمرة عربية ، أفصححت به الأمة العربية عن رسالتها وعبقريتها - كما أفصححت بقوانين حمورابى . . وبالشعر الجاهلى . . وبثقافة عصر المأمون . . عن هذه العبقرية والرسالة فى فترات أخرى . . وكما تفصح ، حديثاً ، بالقومية وحدها عن هذه العبقرية والرسالة . . وبعد أن كان الإسلام مجرد مكون من مكونات القومية العربية ، يغذيها بتراته الروحية ، ويميزها عن القوميات الأخرى . . أصبح الإسلام - فى العقدين الأخيرين من حياة ميشيل عفلق الفكرية - : الألب الشرعى للعروبة وللقومية العربية ، التى ولدت منه ولادة جديدة . . والمكون الأول للأمة - التى بدونها كانت ستظل أمة قَبَلِيَّة - . . وجوهر المشروع الحضارى العربى . . بل لقد أصبح الإسلام هو : الدين . . والوطن . . والوطنية . . والقومية . . والثقافة . . والحضارة . .

وبعد أن كانت « القومية » ، وحدها ، هى المحرك للأمة فى مشروع نهضتها

الحديثة . . غدا الإسلام خيارا متميزا ، ومستقلا ، ومزائلا لخيارى : القومية . .
والتقدم . . فى هذا المشروع . .

وبعد أن كانت « القومية » هى الجامع . . وكان التشكيك فى صياح
الإسلام كجامع للأمة العربية . . وكجامع لها مع الشعوب الإسلامية غير
العربية . . أصبح الإسلام - فى التطور الفكرى لميشيل عفلق - هو صياح
الوحدة للأمة . . تاريخيا . . وحاضرا . . وفى المستقبل أيضا . . بل لقد تحدث
عنه باعتباره : مبرر بقاء الأمة العربية الواحدة . . وجوهر رسالتها الخالدة! . .

وبعد أن كان أفق المشروع الحضارى والاهتمام النضالى لميشيل عفلق لا
يعدو حدود الأمة العربية ووطنها القومى . . اتسع هذا الأفق - فى التطور
الفكرى للرجل - ليشمل الشعوب الإسلامية غير العربية . . وكثر الحديث عن
« خصوصية العلاقة بين العرب والشعوب الإسلامية الأخرى »^(١) .

لقد أثمر هذا التطور ، الذى عرضت له صفحات هذا الكتاب : انفتاح
المشروع الفكرى لميشيل عفلق على الإسلام - « الإسلام : الحضارى » فى علاقته
بـ « الإسلام : الدين » . . وانفتاح هذا المشروع القومى العربى على عالم
الإسلام والقوميات الإسلامية غير العربية . . والدعوة إلى انفتاح التيار القومى
على التيار الإسلامى ، فكانت دعوة ميشيل عفلق فى آخر خطاب ألقاه إلى
« الحوار الديمقراطى ، المنطلق من الإيمان بوحدة الأمة ، المتحرر من
الحساسيات ، والسدى ينبغى أن يتسع وأن يتعمق بين البعثيين والناصرين
والإسلاميين والماركسيين وسائر القوى الوطنية والقومية ، باعتباره المدخل

(١) [فى سبيل البعث] : ج ٣ ، ص ٢٦٩ - « من أجل عمل عربى مستقبلى » - ٧ من
إبريل ، سنة ١٩٨٦ م . .

الطبيعى لبلوغ هذا المستوى الجديد ، الكفيل وحده بفتح آفاق العمل المستقبلى على انتصارات جديدة للأمة . . » (٢) .

لقد انفتح التيار القومى ، من خلال فكر ميشيل عفلق ومشروعه الحضارى ، على الإسلام . . والمسلمين . . والإسلاميين . . كموقف طبيعى ، وتطور حتمى للموقف القومى المدرك لمكانة الإسلام فى تكوين الأمة العربية . . وتميز هويتها الحضارية . . وأيضاً كضرورة نضالية لا غنى عنها فى هذا الصراع الحضارى الضارى الذى فرضه ويفرضه الغرب الاستعمارى وحضارته العنصرية المتعصبة على وطننا وأمتنا وهويتنا ونهضتنا . .

ورحم الله الرجل ، الذى تحدث إلى كل القوميين العرب ، بصدق التجربة ، وحرارة الإيمان ، ونبرة اليقين ، فقال :

« . . بدافع من الحب للأمة العربية ، أحببنا الإسلام ، منذ السن اليافعة . وبعد أن اقتربنا أكثر من فهم الإسلام ، أضحي حبنا لأمتنا يتلخص فى حبنا للإسلام ، وفى كون الأمة العربية هى أمة الإسلام . .

إن هذه العلاقة الحميمة بالإسلام هى من النوع التاريخى ، الموسوم بالتجرد الخالص . . وإن ثقة عميقة ثملأ نفوسنا بأننا أخلصنا كل الإخلاص ، طوال عمرنا لأمتنا ، لمصلحتها ، ولتاريخها ، ولعقيدتها ، ول مستقبلها ، وأنها كنا دوماً حيث العروبة الصحيحة والإسلام الصحيح (٣) . .

(٢) ص ٢٧ من خطاب عفلق فى الذكرى الثانية والأربعين لتأسيس الحزب - ٧ - ٤ - ١٩٨٩ م . طبعة بغداد ، سنة ١٩٨٩ م . - مطبعة العمال المركزية .

(٣) [فى سبيل البعث] : ج ٣ ، ص ٢٦٧ - « من أجل عمل عربى مستقبلى » - ٧ من إبريل سنة ١٩٨٦ م . -

لقد وجدت العروبة قبل الإسلام ، ولكن الإسلام هو الذى أنضح عروبتنا ، وهو الذى أوصلها إلى الكمال . . . وإلى العظمة . . . وإلى الخلود . هو الذى جعل من القبائل العربية أمة عربية عظيمة ، أمة عربية حضارية . فالإسلام كان ، وهو الآن ، وسيبقى روح العروبة ، وقيمها الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية . . . فالوطنية هي العروبة بعينها . . . والعروبة هي الإسلام في جوهره . . .

لقد ولد الإسلام في أرض العروبة ، وضمن تاريخها وأهلها ، ولكنه أصبح هو أبائها ، لأنها ابتداء من الإسلام ولدت ولادة جديدة ، وأصبحت أمة عظيمة تاريخية ، لها دور أساسى في تاريخ الإنسانية ، وفي صنع مستقبل الإنسانية . . . لقد أعطاهما مسئولية الدور الإنسانى العظيم . . . ومذاق الخلود . . . وطعم الحياة الحقيقية . . . ولاخوف على العروبة مادامت مقترنة بالإسلام ، لأنه كفيل بأن يجددها ويوقظ فيها هذه النزعة إلى السماء . . . والخلود . . . والأفق الكونى . . . إلى البطولة وحمل الرسالة . . .

إن الإسلام هو الذى حفظ العروبة وشخصية الأمة في وقت التمزق والتشتت والضياع . . . وكان مرادفا للوطنية وللدفاع عن الأرض والسيادة والسداعى إلى الجهاد أمام العدوان والغزو الأجنبى . . . وسيبقى دوما قوة أساسية محركة للنضال الوطنى والقومى .

والإسلام ، هو الذى خرجت من صلبه ، ومن حركة التطور التاريخى فكرة القومية العربية . بمفهومها الإنسانى السمع ، وهو الذى يحيط الأمة العربية بسياج من الشعوب الإسلامية المتعاطفة معها . . .

إن الإسلام هو العامل الصميمى المندمج في نسيج الأمة ، وفي تاريخها ، وفي حياتها اليومية . . . ولأصبح تناول الإسلام من الموقع الحياذى النظرى السياسى .

والشيء الطبيعي هو أن يكون انفتاح التيار القومي على الإسلام موقفا فيه الحرارة، والحنين، والغيرة، والحرص، والاعتراف بالفضل، وبما يشكله الإسلام من ضمانة مصيرية لقوميتنا ول مستقبلنا كأمة . . ومن هذا المنطلق ، يستطيع التيار القومي أن يحاور التيار الديني حوار الحب والعقل . . «(٤)!

هكذا انفتح المشروع القومي ، الذي قدمه ميشيل عفلق ، على الإسلام . . والمسلمين . . والإسلاميين . . وبقي أن تبلغ رسالته هذه كل فصائل التيار القومي العربي . . فينفتح هذا التيار على الإسلام . . والمسلمين . . والإسلاميين . . وأن يبادل الإسلاميون القوميون هذا الانفتاح !! . .



إن الحياة الفكرية ، والحركات السياسية ، قد شهدت وتشهد - عبر الزمان والأوطان - العديد من التحولات الفكرية والتطورات الأيديولوجية . . والساحة العالمية اليوم ، في ظل المتغيرات الدولية الراهنة ، شاهد جيد البرهنة على عمق وشيوع المراجعات الفكرية للفلسفات والأيديولوجيات والمذاهب والسياسات . . بل إن واقعنا العربي ، وحركاتنا القومية بالذات ، قد عرفت الكثير من هذه التحولات . .

فالتيار «الوطني - القومي - الناصري» . . قد عرف في النصف الأول من عقد الستينيات انفتاحا جزئيا على مدارس الفكر الاشتراكي العالمية . . فأخذ منها . . وتأثر بها . .

و«حركة القوميون العرب» . . انفتحت - في نهاية عقد الستينيات - على الماركسية ، فتبنتها فلسفة ومنهاجا . .

(٤) [العمل المستقبلي - نداء إلى الأمة] : ص ١٠ - خطاب عفلق في ٧ من إبريل سنة ١٩٨٨ م - .

وإذا كان ذلك قد حدث في مناخ فكري وسياسي تميز « بجاذبية الماركسية ». واجتذابها لهذه الحركات والتيارات . . فهل يصبح تعاضل المد الإسلامي المعاصر . . ووضوح وتألق وتأكيد المشروع الحضاري الإسلامي ، كطوق النجاة لأمتنا من المسخ الحضاري والتشوه المعرفي والتبعية الفكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية للحضارة الغربية ذات الطابع العنصري والاستعلائي والعدواني . . هل يصبح هذا المناخ الفكري ، الذي تنحاز فيه جماهير الأمة نحو الخيار الإسلامي ، على نحو لم يحدث من قبل في تاريخها الحديث . . هل يصبح ذلك ظرفا مواتيا لانفتاح التيار القومي على الإسلام . . والأمة الإسلامية . . والتيار الإسلامي ؟! . .

وهل ينهض التيار الإسلامي بواجبه نحو هذا التحول ، الذي يعيد الوحدة لعقل الأمة وطاقتها النضالية ، عندما تتقارب وتتعاون قوى الأصالة العربية الإسلامية ، التي تضم الإسلاميين والقوميين ؟!

تلك واحدة من الأمنى . . الممكنة التحقيق . .

ولعل هذا الكتاب أن يكون رسالة مفتوحة إلى القوميين والإسلاميين جميعا . . ودعوة للحركة منهما على هذا الطريق !! .

المصادر

● كتابات ميشيل عفلق :

- [في سبيل البعث - الكتابات السياسية الكاملة] : خمسة أجزاء - طبعة دار الحرية - بغداد ، سنة ١٩٨٦ ، سنة ١٩٨٧ م ، سنة ١٩٨٨ م .
- [في سبيل البعث] : طبعة دار الطليعة - بيروت ، سنة ١٩٧٤ م .
- [العمل المستقبلي - نداء إلى الأمة] - خطاب ٧ من إبريل سنة ١٩٨٨ م - طبعة بغداد ، سنة ١٩٨٨ م .
- [خطاب ٧ من إبريل سنة ١٩٨٩ م] : طبعة مطبعة العمال المركزية - بغداد ، سنة ١٩٨٩ م .
- [نضال البعث] : ج ١ - ١٣ - طبعة دار الطليعة - بيروت ، سنة ١٩٧٦ م .

مجلة [آفاق عربية] - بغداد .

مجلة [الطليعة العربية] - بغداد .

صحيفة [الثورة] - بغداد .

● كتابات عن ميشيل عفلق :

- د . الياس فرح : [القومية العربية والوحدة العربية أمام تحدى المصير] - طبعة بغداد . سنة ١٩٨٨ م . : [شهادة . . حية] .
- زهير المارديني : [الأستاذ . . قصة حياة ميشيل عفلق] ، طبعة لندن - رياض الريس للكتب والنشر - سنة ١٩٨٨ م .
- د . سعد الدين إبراهيم : [المنتدى] - نشرة منتدى الفكر العربي - عمان .

مجلة [الوطن العربى] - باريس .

صحيفة [الوطن] - الكويت .

● كتابات أخرى :

فهمى هويدى [الأهرام] - القاهرة - .

د . محمد عابد الجابرى : [الحوار القومى الدينى] مركز دراسات الوحدة

العربية - طبعة بيروت ، سنة ١٩٨٩ م .

د . محمد عمارة : [إسرائيل . . هل هى سامية ؟] - طبعة القاهرة ، سنة

١٩٦٧ م .

الفهرس

كلمات	٥
ميشيل علق في سطور	٧
مقدمات تمهيدية	١١
الإيمان الدينى . . والنزعة الروحية	٥١
التراث . . والتقدم : ماذا يعنىان فى المشروع البعثى ؟	٦٨
ماهية « الرسالة الخالدة » ؟	٨٥
الإسلام . . فى الصراع : الغربى - العربى	٩٤
العرب والغرب	٩٧
الغرب . . والأقليات المسيحية العربية	١٠٦
الغرب . . واليهودية - الصهيونية	١١٦
العرب . . والشيعية الغربية	١٢٣
العلمانية الغربية	١٣٥
أيهما أولا . . العروبة ؟ . . أم الإسلام ؟ !	١٥٤
وبعد	١٨٨
المصادر	١٩٧

رقم الإيداع : ٢٢٧٧ / ٩٧
الترقيم الدولي : 8 - 0372 - 09 - 977 I.S.B.N.

مطابع الشروق

القاهرة ٨: شارع سيويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (١٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣٦٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (١٠)

الكتاب القوي الإسلامي

حتى المؤلف - قبل قراءة مصادر هذا الكتاب - لم يكن يتوقع أن تكون هذه هي مكانة الإسلام في المشروع القومي العربي .

ولذلك . . . سيد هاشم الكثيرون - من القوميين والإسلاميين - من الحقائق التي تقدمها - مؤثقة - صفحات هذا الكتاب ! . . .

● إنه دعوة للقوميين كي يعبدوا النظر في مكانة الإسلام بمشروعهم القومي . . .

● ودعوة للإسلاميين كي يصححوا تصوراتهم عن القومية والقوميين . . .

● وبيان التضاريف الأصلية في أمتي الإسلام والقوميين - لتتلاحم صفوفهم تحت رايات الإسلام والعروبة . . .

● ولذلك هو طوق نجاة الأمة من التحديات الشرسة التي تهدد الوجود . . . حتى الوجود ! . . .

To: www.al-mostafa.com